رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشخصية الإسلامية في شعر المتنبي

تأليف الدكتور
فتحي أسعد اسماعيل نجحة

دار البشير
مؤسسة الرسالة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشخصية الإسلامية في شعر المتنبي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

****

رقم التصنيف : ٨١١,٠٩٠٠٦٥٢
المؤلف ومن هو في حكمه : فتحي أسعد إسماعيل نعجة
عنوان الكتاب : الشخصية الإسلامية في شعر المتنبي
الموضوع الرئيسي : ١- الاداب
٢- النقد الادبي
٣- الشعر العربي
رقم الإيداع : ١٩٦٥ / ١٠ / ١٩٩٩
بيانات النشر : عمان / دار البشير

* - تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ١٤١٠ / ١٠ / ١٩٩٩

دار البشير
مركز جوهرة القدس التجاري - العبدلي - هاتف : ٤٦٥٩٨٩١/٤٦٥٩٨٩٢ - فاكس : ٤٦٥٩٨٩٣
ص.ب : ١٨٢٠٧٧ / ١٨٣٩٨٢ - عمان ١١١١٨ الأردن

Dar Al-Bashir
For Publishing & Distribution
Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali - Tel: 4659891 / 4659892 - Fax: (4659893)
P.O.Box. (182077) -(183982) - Amman 11118 Jordan - E-mail: al_bashir@index.com.jo

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - وطى المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا - مبنى المسكن
تلفاكس: ٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٣٩ - ٦٠٣٢٤٣ ص.ب: ١١٧٤٦٠ - برقياً : بيوشران

Al-Resalah
Publishing House
BEIRUT / LEBANON - TELEFAX: 815112 - 319039 - 603243.- P. O. BOX: 117460
E. mail: Resalah@Cyberia. net. lb : البريد الإلكتروني

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشخصية الإسلامية في شعر المتنبي

تأليف الدكتور
فتحي أسعد اسماعيل نجحة

دار البشير
مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

[النساء: ١١٣]

صدق الله العظيم

الإهداء

إلىٰ روح والدتي التي تعهدتني صغيراً حتى كبرت.

إلىٰ زوجتي التي ضحت وآزرت حيث وفرت لي المناخ الملائم للدراسة والبحث.

إلىٰ أبنائي ليكون هذا العمل هادياً لهم علىٰ طريق المستقبل.

إلىٰ كل هؤلاء، أهدي هذا العمل المتواضع لعله يكون لبنة خير في صرح حضارتنا الإسلامية.

المؤلف

شكر وتقدير

أقدم شكري الجزيل لأستاذي، الأستاذ الدكتور:

سيد حنفي حسنين ـ أستاذ الأدب العربي القديم ـ وكيل كلية الآداب جامعة القاهرة ـ الذي أفاض عليّ من لطفه وعلمه وفضله ما يعجز القلم عن وصفه والذي تعهّد هذا البحث المتواضع منذ كان فكرة حتى نما وظهر علىٰ هذه الصورة المباركة بفضل توجيهاته النافعة التي تدلّ علىٰ علم غزير كبير، فله مني الشكر والعرفان، سائلاً المولىٰ أن يمدّ في عمره وأن ينفع به وبعلمه.

وأُثني بالشكر علىٰ أستاذي عضوي لجنة المناقشة العالمين الكبيريْن اللذيْن تحملا عناء قراءة هذه الرسالة وتسجيل ملحوظات نافعة في سبيل تقويمها والارتقاء بها فلهما مني كل تقدير واحترام، واثقاً أني سأفيد كل الفائدة من توجيهاتهما.

وأقدم شكري إلىٰ كل من قدّم لي عوناً مهما كان حتى خرج هذا البحث علىٰ ما هو عليه.

والشكر أولاً وأخيراً إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ عونه وتوفيقه ونسأله السداد والصواب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله يحيي قلوب عباده بطاعته، ويضيء عقولهم بنور كتابه، دعا الناس إلىٰ الإيمان به، ونصب لهم آيات وحدانيته، ودلائل ألوهيته وأرشدهم إلىٰ أنه واجب الوجود بما منحهم من نظر ثاقب، وفكر عميق مستنير ناقد، والصلاة والسلام علىٰ رسوله الأمين بلّغ الرسالة وأدىٰ الأمانة.

وبعد..

فإن الأمم تقاس رفعة وانخفاضاً بمقوماتها الفكرية وقيمتها الأخلاقية وإنجازاتها العلمية، وقد كان للثقافة الإسلامية دورها العظيم في بناء الأمة الإسلامية وترسيخ عظمتها، وتوطيد سلطانها، واستمرار عطائها، ولست مبالغاً إذا قلت إنّ الثقافة الإسلامية أوجدت خير أُمة أخرجت للناس، تميزت بعقيدتها ومنهجها وقيمها وأخلاقها وأهدافها، وبناءً علىٰ ذلك اخترت الشخصية الإسلامية في شعر المتنبي (أحمد بن الحسين) أمير الشعر العربي حقاً، إنه شاعر فريد في فنه وفكره وصراعه وقبل وبعد برؤيته ورؤياه.

إنه صاحب أروع كلمة في اللغة العربية، شعره مترع بالأفكار والقيم، ومستودع لآراء الناس في عصره، لأنه لم يحصر نفسه في دائرة ضيقة تضم إخواناً له وندامىٰ في الكأس، ولم يكن مجرد بوق لغيره، بل ذاق الحياة في أيامه بكل جوانبها، وحاول أن يقف علىٰ قدميه وسط عمالقتها.

لقد انشغل جمهور من الشراح والدارسين والباحثين والمؤرخين في الشاعر الأشهر المتنبي، كل ذلك لأنه شاعر عظيم، وفحل من فحول الأدب العربي، ولولا

ذلك ما حمل هذا العدد الهائل من الدارسين علىٰ تتبع أدبه ودراسة ديوانه، إن هذا العدد الهائل من الدارسين لم ولن يتناول الشاعر من زاوية واحدة، وبروح واحدة ومزاج واحد بل لكل واحد منهم زاويته التي يجيد النظر منها في أدب هذا الشاعر.

ما من شاعر عربي أثار ـ كالمتنبي ـ جدلاً عنيفاً، وما من أحد غيره علىٰ الأخص دفع إلىٰ تأليف قدر كبير من الكتب.

لقد تشكلت في حياة المتنبي حلقات من المعجبين في حلب والفسطاط، وبغداد وشيراز حيث كان يُقرأ فيها ديوانه، ولم يضع موت المتنبي حداً في بغداد للخصومة التي كان يضمرها العديد من الكتاب والشعراء والعلماء للرجل وأعماله الشعرية، وقد تجلّىٰ هذا العداء أحياناً في الصمت كما يبدو صنيع أبي الفرج الأصبهاني المعاصر له والمتوفى سنة ٣٥٦هـ الذي لم يذكر الشاعر المتنبي مرة واحدة في كتابه الكبير «الأغاني» وكذلك صنع المرزباني المتوفى سنة ٣٨٣هـ الذي لم يشر في كتابه «الموشح في مآخذ العلماء علىٰ الشعراء» إلىٰ المتنبي لا في خير ولا في شر.

إن أبا الطيب من فحول الشعراء العرب ولكن لم يتعرض أحد من القدماء أو المحدثين إلىٰ مثل هذا الموضوع (الشخصية الإسلامية في شعر المتنبي) ذلك أنّ الشاعر اتهم بعقيدته حيث اتهم بالتنبؤ مرة وبالقرمطة ثانية وبشاعر القومية العربية ثالثة. لذلك كان لا بد لمن يختار مثل هذا الموضوع أن يوضح حقيقة ما اتُهم به الشاعر، ويثبت أن الشاعر شخصية إسلامية حقّة، وفي شعره ملامح إسلامية تدل علىٰ صحة عقيدته.

إن الإسلام يكوّن الشخصية الإسلامية بالعقيدة الإسلامية حيث فيها تتكون عقليته وبها تتكون نفسيته، فالعقلية الإسلامية هي التي تفكر علىٰ أساس الإسلام، أي تجعل الإسلام وحده المقياس العام للأفكار عن الحياة.

إن الإسلام أمر بالاستزادة من الثقافة الإسلامية لتنمو عقلية ذلك الإنسان وتصبح قادرة علىٰ قياس كل فكر من الأفكار، فالحكم علىٰ الإنسان بأنه شخصية

إسلامية جعله الإسلام أساساً لتفكيره وأساساً لميوله، ومن هنا يأتي تفاوت الشخصيات الإسلامية، وتفاوت العقليات والنفسيات الإسلامية.

لذلك يخطىء أولئك الذين يتصورون الشخصية الإسلامية بأنها ملاك، وضرر هؤلاء في المجتمع كبير وعظيم، لأنهم يبحثون عن الملاك فلا يجدونه في أنفسهم فييأسون وينفضون أيديهم من المسلمين، وهؤلاء الخياليون إنما يبرهنون أن الإسلام خيالي.

إن المسلم حين تتهيأ له العقلية والنفسية الإسلامية يصبح مؤهلاً للجندية والقيادة في آن واحد جامعاً بين الرحمة والشدة والزهد والنعيم، يفهم الحياة فَهْماً صحيحاً وتراه حتىٰ يكون بطل الجهاد يكون حليف محراب، وتراه يجمع بين الأمارة والفقه وأسمىٰ صفة من صفات الشخصية الإسلامية أنه عبد الله تعالىٰ خالقه وبارئه.

وقد وصف الله هذه الشخصية في القرآن الكريم حيث قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٤]، وقال أيضاً: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهنا لا بد لي أن أسأل هذا السؤال: هل كان أبو الطيب شخصية إسلامية في شعره؟ وللإجابة عن هذا السؤال أقول: إن أبا الطيب لم يُتّهم بإلحاد أو زندقة إذا استثنينا ما اتهم به في أول حياته من ادعاء النبوة تلك التهمة التي لفقها له الحاسدون والحاقدون فدخل السجن بسببها. ولذلك تراه حين يذكر ما اتهم به يقول العدوان علىٰ العالمين، وهذه عبارة غامضة لا توحي بشيء من التنبؤ، بل توحي بالعصيان وإثارة الفتن والقلاقل: اسمعه يقول:

وقيلَ عدَوت علىٰ العالمين بيْن ولادى وبين القُعُودِ[1]

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٤٦.

أي أنهم اتهموه بالعدوان علىٰ العالمين في حالة الطفولة قبل أن يستطيع القعود ومن هنا علىٰ الإنسان أن يلاحظ نوع التهمة، فهي في الخروج علىٰ السلطان ولو كانت ادعاء النبوة لما قال عدوت علىٰ العالمين، ويقول إن الذين وشَوْا به هم سفلة الناس فشهادتهم مرفوضة لعدم تورعهم علىٰ الكذب.

فمـــالَـــكَ تَقْبَـــلُ زورَ الكـــلامِ وقَـــدْرُ الشَّهـــادة قَـــدْرُ الشُّهـــودِ
فـــلا تَسْمَعَـــنَّ مـــن الكـــاشحيـــن ولا تَعْبـــأَنَّ بمَحْـــكِ اليهـــود[1]

ويهيب الشاعر بالحاكم أن يقرن بين إرادة الفعل والفعل، فربما يكون قد وصله أنه رغب وأراد ولكنه لم يصله عنه أنه فعل، لذلك فهو بريء، وأن التنبؤ جريمة وكفر عند المسلمين.

وكـــن فـــارِقـــاً بَيْـــنَ دَعْـــوىٰ أردْتُ ودَعـــوىٰ فَعَلْـــتُ بِشـــأوٍ بعيـــد[2]

وحين يحتاج الشاعر إلىٰ العفو مهما كانت جريمته لا يشبه نفسه علىٰ فرض إقدامه علىٰ ما اتهم به بمدعي النبوة المعروفين في التاريخ الإسلامي كمسيلمة وسجاح، بل يُعدّ رمز الجريمة أحمر ثمود، وأحمر ثمود لم يدع النبوة وإنما أنكر نبوة صالح وعقر الناقة.

وفـي جُـودِ كَفّيْـك مـا جُـدْتَ لـي بنَفْسـي ولـو كُنـتُ أشْقـىٰ ثمـود[3]

فادعاء النبوة تهمة رماه بها أعداؤه لمّا رأوا تعاليه عليهم وهو منها بريء.

أما القرمطة فقد نسبها إليه المستشرقون وأول من أحدث هذه الخرافة بلاشير، وقيد قوله في دائرة المعارف الإسلامية، ثم في كتابه عن أبي الطيب، وتلقف هذه المستشرقون، وجاء من بعدهم أبواق دعايتهم فاتهموه بها، والمتنبي بريء من ذلك، لأننا لو دققنا النظر في شعره لما وجدنا فيه شيئاً من أصول دعوة القرامطة.

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٤٧.
(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٣٤٧.
(٣) المصدر نفسه ١/ ٣٤٧.

فأين الشعر الذي يمجد أئمة الدعوة؟ أين التغني بدعاتها من أمثال عبد الله بن ميمون القداح، و(حمدان قرمط)، و(أبي طاهر الجنابي)؟

وإذا كان المتنبي ترك ذلك تقية وستراً، فأين الشعر الذي يشتم فيه توجيه المسلمين إلىٰ نبذ معتقداتهم والاستخفاف بمقدساتهم التي نبذها القرامطة ومرغوها في التراب؟ أين الشعر الذي يروج لمذهب القرامطة ويحث علىٰ مبادئهم ويتغنىٰ بآرائهم؟ لم نجد شيئاً من ذلك في ديوانه، وكل ما وجدناه دعوة إلىٰ سفك الدم مع أنها قد تكون دعوة إلىٰ سفك دم القرامطة، أو دماء الجند والسلاطين الذين ما استطاعوا أن يردوا القرامطة عن الكوفة ملهىٰ طفولته، علىٰ أننا لم نجد من خصومه الأولين وما أكثرهم عدداً وأسلطهم لساناً، وأسرعهم إلىٰ الثلم والعيب مَنْ تعرض لهذه الناحية، ولقد كان مجالاً فسيحاً لغمزه والقضاء عليه، وكلنا يعرف مدىٰ تعصب المتنبي للعرب تعصباً أنساه نفسه بحضرة ابن العميد حين قال له: (مالي وللديلم). ثم إن سنّ المتنبي إبان ثورة القرامطة كانت تسع سنوات، وهي سن لا تسمح لنا أن نخلع عليه صفة الدعاة كدعوة خطيرة تحتاج إلىٰ اللباقة، وبراعة الحجة، وقوة العارضة وإلىٰ مزيد من الكيد والمكر.

أما أنه شاعر القومية العربية كما يقول مارون عبود، وحنا الفاخوري فهذا كلام عار من الصحة حيث لم تعرف القومية العربية في زمانه، وإنما عرفت في العصر الحديث، فالمتنبي كان مسلماً في المقام الأول لأن جميع البلاد الإسلامية كانت تعيش في أخوة الإسلام، وكانت عصبياتهم لا تطغىٰ علىٰ هذه الأخوة كما لم يقصد بالعروبة الانفصال عن جسم الخلافة الإسلامية، فالعروبة عنده دائرة فرعية ضمن الدائرة الإسلامية الكبرىٰ، وشاعرنا كان من دعاة الوحدة لا من دعاة التجزئة، وكان ضد الشعوبية، اسمع قوله من قصيدة يمدح سيف الدولة وقد أمر له بفرس وجارية:

إمـــام لـــلأئمـــة مِـــنْ قُـــرَيْـــشٍ إلـــىٰ مَـــنْ يتَّقـــونَ لـــه شِقـــاقـــا[1]

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان ٢/٢٩٨.

وقوله من قصيدة يمدح سيف الدولة بعد معركة الحدث:

ولســـت مليكـــاً هـــازمـــاً لنظيـــره ولكنـك التـوحيـد للشـرك هـازم[1]

هنيئاً بضـرب الهـام والمجـد والعـلا وراجيـك والإسـلام أنـك سـالـم[2]

إن دراستي لديوان هذا الشاعر تثبت إسلام هذا الرجل، وبأنه قوي الإيمان عميق النظرة في عقيدته، فاهمٌ لدقائق شريعته، ومن حسن حظ شاعرنا أنّ أحداً من دارسيه لم ينكر عليه الركن الأول من أركان الإسلام ولم تبرز عنه بادرة إنكار للذات الإلٰهية.

ولكن ليس معنىٰ أنه مسلم أنه إمام المسلمين وشيخ الإسلام، فهو إنْ لَمْ يكن أفضل إيماناً من الكثيرين فيكفي أنه لا يخضع لمخلوق مطلقاً ولا يقبل حُكماً إلاّ لله وحده.

اسمعه يقول من قصيدة يرثي جدته لأمه:

تغَـــرَّبَ لا مُسْتَعْظِمـــاً غيـــرَ نَفْسِـــهِ ولا قـــابـــلاً إلاّ لخـــالقـــهِ حُكْمـــا[3]

وقوله من قصيدة يمدح سيف الدولة بعد معركة عام ٣٤٥هـ:

ومهـــذَّب أمَـــرَ المنـــايـــا فيهـــمُ فـــأطَعْنَـــهُ فـــي طـــاعـــةِ الـــرحمٰـــن[4]

وقوله من قصيدة يصف فرساً تأخر الكلأ عنه:

أيْ كَبْـــتَ كُـــلِّ حـــاسِـــدٍ مُنـــافِـــق أنْـــتَ لنـــا وَكُلُّنـــا للخـــالِـــق[5]

وأبو الطيب من أفراد هذه الأمة الإسلامية، قرأ القرآن وآمن به وحفظ أجزاء كثيرة منه، لذلك فإن ثقافته إسلامية وليس غريباً أن تسمعه يكثر من ذكر الملائكة.

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان ٣/ ٣٩١.

(٢) المصدر نفسه ٣/ ٣٩٢.

(٣) المصدر نفسه ٤/ ١٠٧.

(٤) المصدر نفسه ٤/ ١٨٣.

(٥) المصدر نفسه ٢/ ٣٥٨.

قال من قصيدة يمدح التنوخيين:

فـأُعيـذُ إخْـوَتَـه بِـرَبِّ محمـدٍ أنْ يحـزنـوا ومُحمَّـدٌ مسـرورُ[1]

أو يَـرغبـوا بقصـورِهـمْ عـن حُفْـرَةٍ حَيـّـاهُ فيهـا مُنْكَـرٌ ونَكيـرُ

وقوله من قصيدة يمدح عضد الدولة ووَلَدَيْهِ أبا الفوارس وأبا دلف:

مـلاعـب جنـة لـو سـار فيهـا سليمـان لسـار بتـرجمـان[2]

وقوله من قصيدة يمدح علي بن منصور الحاجب:

فَلَقَـدْ دَهِشْـتُ لِمـا فَعَلْـتِ ودونَـهُ ما يُدْهِشُ المَلَكَ الحفيظَ الكاتِبا[3]

ويعترف الشاعر بالأنبياء والكتب السماوية المنزلة عليهم:

مـا مقـامـي بـأرضِ نَخْلَـةَ إلاّ كمقـام المسيـح بَيْـنَ اليَهـودِ[4]

لأمَـةٌ فـاضـةٌ أضـاةٌ دِلاصٌ أحْكَمَـتْ نَسْجَهـا يـدا داودِ[5]

وقوله:

ولَـوْ رآهُ حـوارِيُّـوهُـمُ لَبَنَـوْا علىٰ مَحَبَته الشَّرْعَ الذي شَرَعوا[6]

وشاعرنا يؤمن بالموت، وأن مصير الإنسان إلىٰ زوال، فالحياة الدنيا دار زوال والحياة الآخرة دار قرار. اسمعه يقول من قصيدة يمدح الحسين بن إسحاق التنوخي:

علىٰ ذا مضى الناسُ: اجتماعٌ وفُرْقَةٌ ومَيْـتٌ ومـولـودٌ، وقـالٍ ووامـقُ[7]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان ٢/ ١٣٣.

(٢) المصدر نفسه ٤/ ٢٥٢.

(٣) المصدر نفسه ١/ ١٣٣.

(٤) المصدر نفسه ١/ ٣١٩.

(٥) المصدر نفسه ٢/ ٣٢٠.

(٦) المصدر نفسه جـ٢/ ٢٢٥.

(٧) المصدر نفسه جـ٢/ ٣٤٢.

وقوله من قصيدة يمدح أبا المنتصر: شجاع الأزدي:

والمـوتُ آتٍ والنفـوسُ نفـائِـسُ والمُسْتَغِـرّ بمـا لَـدَيْـهِ الأحْمَـقُ[1]

فأبو الطيب استشهد بالقرآن الكريم في شرحه لبعض المفردات التي أوردها في شعره.

لقد استوحىٰ الشاعر قصة نوح عليه السلام والطوفان في تصوير كرم ممدوحه مساور بن محمد الرومي اسمعه يقول:

لَوْ كُنْتَ بحراً لم يَكُنْ لكَ ساحِلٌ أوْ كُنْـتَ غَيْثـاً ضـاق عَنْـكَ اللُّـوَحُ

وخشيـتُ مِنْـكَ علـىٰ البـلادِ وأهلِهـا مـا كـان أنْـذَرَ قَـوْمَ نُـوحٍ نُـوحُ[2]

فلقد شبه ممدوحه في البيت الأول بالغيث والبحر، وجعل المشبه يفوق المشبه به في العطاء إذ لا ساحل قد ضاق عنه القضاء، فكان خوف المتنبي علىٰ البلاد من الطوفان، وقد كان إنذار نوح لقومه هنا وليد السياق إذْ كنّىٰ به الشاعر عن الطوفان الذي ورد في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١].

كما أن الشاعر كان علىٰ دراية في بعض الأحكام الفقهية. اسمعه يقول:

تعَجَّـلُ فـيَّ وُجـوبُ الحـدودِ وحـدّىٰ قَبْـل وُجُـوبِ السُّجـودِ[3]

فمـا لـك تَقْبـلُ زورَ الكـلام وقَـدْرُ الشَّهـادة قَـدْرُ الشُّهـودِ

فـلا تَسْمَعَـنَّ مـن الكـاشحيـنَ ولا تَعْبَـأَنَّ بمَحْـكِ اليَهـودِ

وكـن فـارقـاً بَـيْـنَ دعـوىٰ أردْتُ ودعـوىٰ فَعَلْـتُ بِشـأْوٍ بعيـدِ[4]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢/ ٣٣٥.

(٢) المصدر نفسه جـ٢/ ٢٥٤.

(٣) المصدر نفسه جـ١/ ٣٤٦.

(٤) المصدر نفسه جـ١/ ٣٤٧.

وأبو الطيب بطلٌ من أبطال الجهاد، دعا إلىٰ توحيد الصفوف من أجل القضاء علىٰ العدو البيزنطي، وجاهد بنفسه حيث اشترك مع سيف الدولة في خوض المعارك، وجاهد بلسانه وذلك عن طريق الشعر الذي كان يلقيه أمام الجند لتحريضهم علىٰ الجهاد.

لقد كان المتنبي أعظم شاعر خلّد حروب المسلمين مع البيزنطيين فبذّ بذلك كل شاعر قبله، ولقد كان لكلماته دورها الفاعل في ذروات التحدي، وكان عاملاً أساسياً في تحريك الأمة نحو مواطن الأعداء وبيان مكامن الأخطار، لذلك كان يدعو إلىٰ الثورة من أجل التخلص من ربقة الأعداء ومن زمر المتخاذلين.

إن قصائد المتنبي الجهادية العديدة التي قالها خاصة في سيف الدولة تُلِحّ علىٰ الجهاد وعلىٰ الجانب الديني، فالمعارك بين معسكرين، معسكر الإيمان يقوده سيف الدولة وأنصاره، ومعسكر الكفر يقوده الدمستق وأنصاره، والصفة البارزة للمعسكر الأول أنه مسلم موحّد فيرضىٰ عنه لأنه حزبه، والصفة البارزة للمعسكر الثاني أنه كافر مشرك يؤمن بعقيدة التثليث: اسمعه يقول:

وقَدْ تَيَقَّنَ أنَّ الحقَّ في يَدِهِ ... وقَدْ وَثِقْنَ بأنَّ الله ناصِرُهُ[1]

وقوله من قصيدة يمدح سيف الدولة بمناسبة بناء مرعش:

هنيئاً لأهلِ الثَّغْر رأيُكَ فيهمُ ... وأنّكَ حزبُ اللهِ صِرْتَ لَهَمُ حِزبا[2]

لأمر أعدَّته الخلافةُ للعدا ... وسَمَّتْهُ دُونَ العالَمِ الصَّارِمِ العَضْبا[3]

فمن كان يرضي اللؤمَ والكفرَ مُلْكُهُ ... فهذا الّذي يُرضي المكارمَ والرَّبا[4]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١/ ١٢٠.

(٢) المصدر نفسه جـ١/ ٦٢.

(٣) المصدر نفسه جـ١/ ٦٨.

(٤) المصدر نفسه جـ١/ ٦٩.

وقوله من قصيدة يمدح بها سيف الدولة:

تحـاولُ نَفْـسَ مَلْـكِ الـرومِ فيهـا ... فَتَفْـديـه رعيَّتُـهُ العُلـوجُ[1]

أبـا الغمـراتِ تُـوعُـدنـا النَّصـارىٰ ... ونَحْـنُ نُجـومهـا وهـيَ البُـروجُ[2]

وفينـا السيـفُ حَمْلَتـهُ صَـدوقٌ ... إذا لاقـىٰ وغـارَتْـهُ لَجـوجُ

نُعـوذُهُ مِـنَ الأعيـان بَـأْسـاً ... ويَكْثُـرُ بـالـدعـاء لَـهُ الضجيـجُ

رضينـا والـدُّمُسْتُـقُ غيـرُ راضٍ ... بمـا حَكَـمَ القـواضِـبُ والـوشيـجُ

فـإنْ يُقْـدِمْ فَقَـدْ زُرْنـا سَمَنـدو ... وإن يُحْجِـمْ فمـوعـدُهُ الخليـجُ[3]

إن أبا الطيب من شعراء العروبة والإسلام الفرسان، يمثل شعره عامة وشعره الجهادي خاصة ميراثاً أدبياً خالداً، وآيات من الجمال والإبداع الفني، فشعره الجهادي يمثل ديواناً خاصاً مستقلاً يُعَدّ من روائع ما خلفه الشاعر، أراد خلاله جاهداً وبطريقته الخاصة وفق تفكيره أن يُصعِّد حركة الجهاد ضد الأعداء، ويُعمّق الاعتزاز والتعلق بالرابطة المبدئية، ونبذ كل شكل من أشكال الهوان والذل، والعبودية.

لقد تبوأ شاعرنا المكانة العليا بين شعراء العروبة والإسلام في التغني بالبطولة والأمجاد العربية متمثلة في بعض قادتها من أمثال المجاهد الأمير سيف الدولة.

لقد بلغ شعر المتنبي أوجه لدىٰ الحمدانيين، لأنه كان يجد هناك إطاراً ومُناخاً يرفعان صوت الشعر العربي الإسلامي.

فالقتال ضِدّ العدو البيزنطي هو الذي يمنح دون ريب المتنبي وشعره نفساً لم يعرف شعر الحرب مثل غنائيته، وإن الإنسان ليعشق هذا اللون من الشعر الجهادي لأنه ضدّ الخنوع والهوان.

---

(١) ديوان المتنبي شرح العكبري: جـ١ ص٢٣٨.

(٢) المصدر نفسه ص٢٣٩.

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٢٤٠.

إنّ شاعرنا لم يكن داعية حرب من أجل الحرب وإنما كان فارساً مجاهداً ينادي بالقوة لردع الأعداء من الداخل (الأعاجم والقبائل العربية المتمردة) ومن الخارج (الروم البيزنطيين) لذلك كان شعر الجهاد عند الشاعر وسيلة لا غاية، وسيلة المثل العليا، ولذلك إذا ما أردنا أن ننشىء شباب العرب والإسلام علىٰ الأخلاق والقيم الصحيحة التي تسمو بهم عن الدنايا فما علينا إلاّ أنْ نقدم لهم شعر الجهاد عند أبي الطيب.

إن أشعاره في الجهاد تعكس بوضوح روح الجهاد في أنبل مظاهرها وأنزهها فإن الشاعر لا يشيد فقط بالمجاهد الذي يمضي قدماً فرحاً باستشهاده وتضحيته لمثله الأعلىٰ الذي يعدّ الموت هو الحياة الحقة، ولكنه يتغنّىٰ أيضاً بالقضاء علىٰ الأعداء يقول:

وفوارس يحيىٰ الحمام نفوسها ... فكأنها ليست من الحيوان[1]

وقوله:

فخاضت نجيعَ الجَمعِ خوضاً كأنَّهُ ... بكل نجيعٍ لم تخضعه كفيل[2]

وقوله:

وربوا لك الأولادَ حتىٰ تصيبها ... وقد كَعِبَت بنت وَشبَّ غلام[3]

وقوله من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويذكر هجوم الشتاء الذي قاده من غزو خرشنة:

حتىٰ أقامَ علىٰ أرباضِ خَرْشَنَةٍ ... تَشْقىٰ بها الرُّومُ والصُّلْبانُ والبِيَعُ

للسَّبْيِ ما نَكَحُوا، والقَتْلِ ما وَلَدُوا ... والنَّهْبِ ما جَمَعُوا، والنَّارِ ما زَرَعُوا

مُخْلىً له المَرْجُ مَنْصُوباً بصَارِخةٍ ... لهُ المنابرُ مَشْهوداً بها الجُمَعُ[4]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان ٤/ ١٨١.

(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٠١.

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٣٩٨.

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٢٢٤-٢٢٥.

وقال:

فلم يَبْقَ إلاّ مَنْ حَمَاها مِنَ الظُّبا لمىٰ شَفَتَيْها والثُّدِيُّ النَّواهِدُ

تُبَكِّي عليهِنَّ البطاريقُ في الدُّجىٰ وهُنَّ لدينا مُلْقَياتٌ كَواسِدُ[1]

والشاعر يرىٰ الروم أعداء، ولذلك فهم دائماً مهزومون:

وقَدْ عَلِمَ الرُّوم الشّقيّون أنّنا إذا ما تَرَكْنا أرْضَهُمُ خَلْفَنا عُدْنا[2]

وقوله:

وفي صُورةِ الرُّوميِّ ذي التاج ذِلَّةٌ لأبْلَجَ لا تيجانَ إلا عَمائمُهْ[3]

وأرىٰ أن الحروب التي قامت بين المسلمين كانت بداية للحروب الصليبية والدليل علىٰ ذلك أن (نقفور فوكاس) الذي كان ندا لسيف الدولة كان يحشد في مقدمة جيشه البطارقة والقس ويأمر الجنود بحمل الصُّلبان الكبيرة حتىٰ يعطي الحرب صفة دينية مقدسة، وذلك كلما خرج لحرب الحمدانيّين، وكانت جيوشه من طبقات النصارىٰ المختلفة الأجناس من روم وروس ويلغار وصقلب وأرمن وخزر: اسمعه يقول من قصيدة بعد انتهاء معركة الحدث:

أتَوْكَ يَجُرّون الحديدَ كأنَّهُمْ سَرَوْا بجيادٍ ما لَهُنَّ قَوائمُ[4]

إذا بَرقوا لم تعرفِ البيضُ منهمُ ثيابُهُمُ مِنْ مثلِها والعمائِمُ

خميسٍ بشرقِ الأرضِ والغربِ زَحْفُه وفي أُذُنِ الجَوْزاءِ منه زمازِمُ

تجمَّعَ فيه كل لِسْنٍ وأمَّةٍ فما تُفْهِمُ الحُدَّاثَ إلاّ التراجِمُ[5]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان ١/ ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) المصدر نفسه ٤/ ١٦٦.

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٣٣٥.

(٤) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٨٤.

(٥) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٨٥.

فأبو الطَّيِّب هو أول من وصف هذه الحروب مع البيزنطيين بأنها ليست حروباً خاصة بين ملك الروم والمسلمين ولكنها حرب بين المسلمين والشرك:

ولَسْتَ مليكاً هازِماً لنظيرِهِ ولكنَّكَ التوحيدُ للشركِ هازِمُ[1]

لقد كان أبو الطَّيِّب شخصية إسلامية فَذّة في شعره حيث كان يدعو لتكوين دولة عربية إسلامية علىٰ أسس سليمة ولو نجح في تكوين هذه الدولة لكان ذلك من الخير للعرب والإسلام.

إن الرجل كان قوة هائلة لا تقف عند حدّ ولا ترجع عن قصد، فكان ينفخ في جسم الدولة المتهالك ويهيب بالأمة إلىٰ حياة المجد والعظمة فما يكون أقرب منها إلىٰ الاستجابة. اسمعه يقول:

لا افتخارٌ إلاّ لِمَنْ لا يُضامُ مُدْرِكٍ أوْ محاربٍ لا يَنامُ[2]

واحتمالُ الأذىٰ ورؤيةُ جانيهِ غذاءٌ تضْوىٰ به الأجسامُ[3]

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ علَيهِ ما لِجُرْحٍ بمَيِّتٍ إيلامُ[4]

من هذا كله نتبين أن شاعرنا كان شخصيّة إسلامية فَذَّة وفي شعره ملامح إسلامية.

منهج البحث:

لقد سلكتُ في هذا البحث منهجاً قائماً علىٰ مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

الفصل الأول:

لقد كان الفصل الأول عن:

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٩١.

(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص٩٢.

(٣) المصدر نفسه جـ٤ ص٩٣.

(٤) المصدر نفسه جـ٤ ص٩٤.

أ ـ الصراع بين المسلمين والروم في القرن الرابع الهجري.

ب ـ دور الدولة الحمدانية في هذا العصر وخاصة علىٰ يد سيف الدولة.

الفصل الثاني:

خصصت الفصل الثاني لـ:

أ ـ ثقافة المتنبي العربية الإسلامية وتعرضت إلىٰ نشأته العلمية وشيوخه والبيئات التي عاش فيها وإلىٰ ثقافته اللغوية والأدبية والدينية والفلسفية والتاريخية.

ب ـ عالجت في هذا الفصل موقف المتنبي من التنبؤ والقرامطة.

جـ ـ تحدثت عن كيفية وصول أبي الطيب إلىٰ بلاط سيف الدولة.

الفصل الثالث:

وتناولت فيه الملامح الإسلامية في شعر أبي الطيب وتبرز هذه المواضيع التالية:

أ ـ عقيدة المتنبي:

١ ـ إيمان المتنبي بالله الخالق.

٢ ـ إيمان المتنبي بالملائكة.

٣ ـ إيمان المتنبي بالأنبياء والكتب السماوية.

٤ ـ إيمان المتنبي بالبعث.

ب ـ استشهاد المتنبي بالقرآن الكريم في شرحه لبعض المفردات التي أوردها في شعره وتأثره بالفقه والتصوف.

جـ ـ الرابطة الدينية عند المتنبي.

د ـ شعر الجهاد: المعارك التي خاضها مع سيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة إلىٰ سنة ست وأربعين وثلاثمائة للهجرة.

هـ ـ هل الحروب التي قامت بين الدولة الحمدانية والبيزنطية كانت حروباً صليبية؟

و ـ الخاتمة.

وقد رجعت في هذا البحث إلىٰ المراجع العربية القديمة والحديثة التي تتعلق بالموضوع مع بعض آراء المستشرقين ودراسة شعر الشاعر من خلال ديوانه.

وأخيراً ليس لي إلاّ التماس العذر ممن يجدون هنات هنا، وهنات هناك وعذري في ذلك أن أعترف أمام هؤلاء بأنني لا أدّعي الإحاطة بأطراف هذا البحث والإتيان بخارق فيه. بل حسبي أنني أخلصت الوفاء وأنا أعمل من أجل بيان ميزة هذا الشاعر.

وحسبي أن أنوّه بفضل أستاذي العالم الجليل الأستاذ الدكتور سيد حنفي حسنين وكيل كلية الآداب للأبحاث والدراسات العليا في جامعة القاهرة، وأستاذ الأدب العربي القديم المشرف علىٰ هذا البحث الذي كان لإرشاده وتوجيهه اليد الطولىٰ والفضل العميم في إتمام هذا البحث علىٰ هذه الصورة التي خرج إليها جزاه الله عني خير جزاء.

كما أنني أشكر عضوي لجنة المناقشة العالمين الجليلين:

الأستاذ الدكتور يوسف خليف، أستاذ الأدب القديم في جامعة القاهرة.

والأستاذ الدكتور طه عمران وادى، أستاذ الأدب الحديث في جامعة القاهرة.

والله ولي التوفيق

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الباحث

فتحي أسعد نعجة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

أ ـ الصراع العسكري بين المسلمين والروم في القرن الرابع الهجري.

ب ـ دور الدولة الحمدانية في حلب في هذا الصراع ممثلة بالأمير سيف الدولة الحمداني.

الفصل الأول

تمهيـد

دراسة تاريخية للصراع

منذ أن انبثق فجر الإسلام، والصراع العنيف دائر علىٰ أشده بين أفكار الإسلام وأفكار الكفر، وبين المسلمين والكفار، وقد بدأ هذا الصراع فكرياً بحتاً حين بُعِث رسول الله ﷺ ولم يصحبه أي صراع مادي، واستمر كذلك إلىٰ أن قامت الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، ووجد الجيش ووجدت القوة.

ومنذ ذلك الحين ضم رسول الله ﷺ الصراع الدموي إلىٰ جانب الصراع الفكري، ونزلت آيات الجهاد، واستمر الصراع كذلك وسيظل علىٰ هذه الطريقة، صراعاً دموياً إلىٰ جانب الصراع الفكري إلىٰ قيام الساعة، حتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن هنا كان الكفر عدواً للإسلام، وكان الكفار أعداء للمسلمين، ما وجد في الدنيا إسلام وكفر ومسلمون وكفار، إلىٰ يوم يبعثون، وهذه حقيقة قطعية دائمة، فلا بدّ أن يظل إدراكها واضحاً لدىٰ المسلمين في كل لحظة من لحظات الحياة، ولا بدّ أن تتخذ مقياساً من مقاييس العلاقات بين الإسلام والكفر وبين المسلمين والكفار.

وقد استمر الصراع الفكري ثلاثة عشر عاماً متتالية علىٰ أشد ما يكون من العنف والقسوة إلىٰ أن انتصرت أفكار الإسلام علىٰ أفكار الكفر وأظهر الله الإسلام، فقامت في المدينة الدولة التي تحمي الديار وتذب عن بيضة الإسلام، وتنشر الهدىٰ بين الناس عن طريق الجهاد، فبدأت الحروب بين الإسلام والكفر،

وبين جيوش المسلمين وجيوش الكفار في معارك متلاحقة، وفي منتهىٰ الغلظة والشدة. فكان النصر في هذه الحروب كلها للمسلمين.

توفي رسول الله ﷺ، بعد أن دخلت الجزيرة العربية كلها في الإسلام، وبعد أن قضى علىٰ الشرك فيها، وبعد أن أصبحت دار الإسلام تحكم بالإسلام كله عقيدة ونظاماً، وبعد أن أكمل الله الدين وأتم نعمته علىٰ المسلمين ورضي لهم الإسلام ديناً، وبعد أن بدأ بدعوة الأمم والشعوب المجاورة بإرسال الكتب إلىٰ ملوكها وحكّامها وبالسرايا والغزوات علىٰ حدود الروم في مؤتة وتبوك، وقد جاء بعده الخلفاء الراشدون فتتابعت الفتوحات، ففتح العراق، وكان يسكنه خليط من النصارىٰ والمزدكية والزردشتية والعرب والفرس، وفتحت فارس وكان يسكنها العجم وقليل من يهود والرومانيون، وكانت تدين بدين الفرس. وفتحت الشام، وكانت إقليماً رومانياً يثقف بثقافة الرومانيين ويتدين بالنصرانية ويسكنه السوريون والأرمن ويهود وبعض العرب وبعض الرومان.

أجل، فتح المسلمون بلاد الشام وانتصر فيها الحق علىٰ الباطل، والإيمان علىٰ الكفر، والعدل علىٰ الظّلم، والمسلمون علىٰ الكفار، وأجْلَوْا الروم الكافرين الظالمين عنها، ولكن الفتح الإسلامي وقف عند نهاية سوريا الشمالية أو ما فوق نهايتها بقليل، فإن المسلمين لمّا فتحوا بلاد الشام وبلغوا السفوح الجنوبية الشرقية عند جبال طوروس، وجدوها أشد بأساً من جنود الروم وبسبب وعورة جبال طوروس، وبرد آسيا الصغرىٰ وقف الفتح الإسلامي في هذه الناحية فبقي شمال الشام مجاوراً للروم، الذين لم ينسوا هذا القطر الجميل وخيراته، بعد أنْ غلبهم المسلمون عليه في عهد الفاروق عمر بن الخطاب الشخصية الإسلامية الفذة وودعهُ هرقل قيصر الروم وداعة الحزين حين قال: وداعاً يا سورية، وداعاً لا لقاء بعده، فأنت اليوم بلاد الأعداء.

ومن أجل ذلك استمر الصراع الفكري والدموي بين المسلمين والكفار ومن أجل ذلك كان هؤلاء الروم لا يفتئون يغيرون عليه من الشمال فكثرت الحروب بينهم وبين المسلمين وتعددت الوقائع بين هؤلاء وهؤلاء، وكان ميدانها سورية

الشمالية، مما جعل الحصون والقلاع وشؤون الحرب في تلك البلاد أمراً لا مفر منه، لصدّ هؤلاء الأعداء الطامعين.

وقد دعت هذه الحال أن يكون في أقصىٰ شمال الشام إقليم يسميه المسلمون بالعواصم والثغور.

فأما العواصم فيراد بها أعالي الشام وراء حلب إلىٰ إسكندرونة وقد أطلق هذا الاسم لكثرة ما أقيم بها من الحصون المنيعة التي يعتصم بها الجنود المرابطون لصدّ هجوم الأعداء.

وأما الثغور[1] فواحدها ثغر وكأنه مأخوذ من ثغر وهي الفرجة في الحائط فهي ما وراء العواصم إلىٰ حدود جبال طوروس من البلاد الواقعة علىٰ الحدود بين الروم والمسلمين من الثغور الجزرية، والثغور الشامية مما يلي الشام.

وقد سميت بالثغور لأنها مواضع الإخافة من الأعداء، وكانت هذه الثغور كثيرة القلاع والحصون أيضاً كالعواصم، بل هي أولىٰ بالوقاية والتحصين، ومن أجل ذلك قد يدخلون الثغور في العواصم ويطلقون عليها جميعاً اسم العواصم.

ومن بلاد العواصم والثغور بالس[2]، ومنبج[3]، وأنطاكية[4]، وملطية[5]،

---

(١) الثغور: بضم التاء مع التشديد وضم العين وبعدها واو وراء جمع، وهو كل موقع قريب من أرض العدو. (ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ ص٧٩ مادة ثغر).

(٢) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة سميت باسم (بالس بن الروم بن سام بن نوح علىٰ ضفة نهر الفرات الغربية. (ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ١ ص٣٢٨).

(٣) منبج: مدينة ما زالت قائمة من أعمال حلب تقع غرب الفرات بفتح الميم وسكون النون. (العكبري: جـ٤ ص١٧٧).

(٤) أنطاكية: كانت قصبة العواصم في الثغور الشامية، حولها سور عظيم، وللسور ثلاثمائة وستون برجاً، دخلها الرشيد في غزواته فاستطابها، فتحها أبو عبيدة عامر بن الجراح. (ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص٢٦٨).

(٥) ملطية: بفتح الحرف الأول والثاني وتسكين الطاء وتخفيف الياء هي مدينة ببلاد الروم. (ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص١٩٢).

والحدث[١]، ومرعش[٢]، وزبطرة[٣]، وخرشنة[٤]، والمصيصة[٥]، والهارونية[٦]، فزبطرة مثلاً حصن كان من أقرب الثغور إلىٰ بلاد الروم والهارونية حصن صغير بناه هارون الرشيد فنسب إليه.

ولا شك أنّ كثيراً من هذه الحصون قد اشتركت في بنائه معظم الأمم التي تداولت حكم هذه البلاد المتنازع عليها منذ القدم، ثم آلت هذه الحصون إلىٰ المسلمين فزادوا فيها وحددوا علىٰ مر الأيام ما تقوض منها وتهدم وأول من أطلق علىٰ هذه الجهات اسم العواصم هارون الرشيد وقد جعلها جنداً خاصاً من بلاد الشام.

وأصل تسمية أقاليم الشام أجناداً يرجع إلىٰ بداية الفتح الإسلامي حيث كان العمال والولاة من قادة الجند المقيم بضواحي البلاد المفتوحة، الذي يُعبّر عنه بالحامية، وكانت الجنود الإسلامية منقسمة إلىٰ قوات تقيم في محطات عسكرية فكانت عساكر الشام أربعة أجناد تقيم في دمشق وحمص، والأردن وفلسطين وقد جرىٰ هذا التقسيم علىٰ النظام الذي سلكه أبو بكر في فتح الشام، إذ عقد اللواء

---

(١) الحدث: قلعة بين ملطية وسميساط ومرعش، يقال لها الحمراء لأن تربتها جميعاً حمراء. (ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص٢٢٧).

(٢) مرعش: بفتح الميم وسكون الراء وفتح العين وآخرها شين. مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني نسبة إلىٰ مروان بن محمد آخر الخلفاء في بني أمية. (ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص٢٥٨).

(٣) زبطرة: بكسر الزاي وفتح الباء وسكون الطاء وفتح الراء وآخره تاء مربوطة، مدينة بين ملطية وسميساط والحدث في طرف بلاد الروم. (ياقوت: معجم البلدان جـ٣ ص١٣١).

(٤) خرشنة: بفتح الخاء وسكون الراء ثم فتح الشين ونون وتاء مربوطة بلد قرب ملطية من بلاد البيزنطيين. (ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص٣٥٩).

(٥) المصيصة: مدينة علىٰ شاطىء نهر جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طوسوس. (ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص١٤٥).

(٦) الهارونية: حصن صغير بناه هارون الرشيد فنسب إليه سنة ١٨٣هـ وهي قرب مرعش بالثغور الشامية. (ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص٣٨٨).

لأربعة من القادة: أبي عبيدة ووجهته حمص، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين، ويزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق، وشرحبيل بن حَسنة ووجهته الأردن، وقد ولّى أبو بكر كلّ قائد من هؤلاء البلد الذي هو سائر بفتحه قبل خروجه إليه.

وظلت الشام علىٰ ذلك التقسيم الإداري حتىٰ ولي الخلافة يزيد بن أبي سفيان فجعلها خمسة أجناد وفي عهد عبد الملك بن مروان أفردت الجزيرة عن حمص وجعلت جندا قائماً بذاته.

وبلغت الأجناد ستة في عهد هارون الرشيد الذي أفرد العواصم من جند حمص وجعلها وحدها جنداً، والذي دعا إلىٰ إفراد هذا الجند كثرة غارات الروم علىٰ المجاهدين المسلمين.

استمر الصراع الدموي مصحوباً بالصراع الفكري منذ فتح هذه البلاد، فالروم يريدون أن يستعيدوا بلاداً كانت تحت حكمهم وحررها المسلمون نتيجة جهادهم أو يحتفظوا بما انتهت إليه حدودها عند جبال طوروس إذْ لم يمكنْهم المجاهدون المسلمون من التوغل بعد هذه الحدود.

وكذلك كان الحال لدىٰ المسلمين، يريدون أن يحرروا البلاد كلها من سيطرة الروم، بواسطة الجهاد، لكي ترفع راية الإسلام خفاقة وتذل راية الشرك وتنتشر الدعوة الإسلامية التي كلفهم الله بنشرها حيث إن الجهاد يعني كسر كل الحواجز التي تقف في وجه هذه الدعوة الإسلامية التي كلف الله بها النبي ﷺ لتبليغها إلىٰ الناس كافة حيث يقول الله جل شأنه في كتابه العزيز: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨].

فإن لم يستطيعوا الفتح فيلحفظوا للإسلام حرمته أو يمنعوا حدود الدولة الإسلامية من عبث الكفار المشركين.

ومن أجل ذلك كانت الحدود بين هؤلاء وهؤلاء تميل نحو أرض الروم تارة ونحو أرض المسلمين تارة أخرى، ولا تكاد تستقر علىٰ حال منذ عهد الخلفاء الراشدين.

لقد كانت الدولة الإسلامية قوية منيعة في عهد الراشدين وظلت كذلك في عهد الأمويين، ولذلك استمر الصراع بين المسلمين والكفار، صراعاً دموياً فكرياً، حتىٰ إنّ معاوية بن أبي سفيان كوّن الشواتي والصوائف. واستمرت المعارك حامية الوطيس بين المسلمين والكفار في زمن معاوية وفي زمن عبد الملك بن مروان، حاصر مسلمة بن عبد الملك القسطنطينية، وطلب منه عمر بن عبد العزيز الرجوع.

كانت دمشق عاصمة الأمويين مما جعلها أكثر استقراراً وأبعد عمّا كان يحدث في بعض الولايات الأخرىٰ من أحداث.

ثمّ نقلت العاصمة من بلاد الشام إلىٰ العراق في عهد الدولة العباسية، قد شهد هذا العصر فتناً وثورات بسبب تعثر دولة وقيام أخرىٰ، حيث زالت دولة الأمويين بمقتل آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد في معركة الزاب عام ١٣٢هـ واعتلىٰ العباسيون حكم البلاد.

واستمر الصراع الدموي الفكري بين المسلمين والروم في العصر العباسي، «فقد عمل العباسيّون علىٰ تقوية خط الحدود مع الروم ذلك الخط الذي أطلق عليه الثغور ـ كما أسلفنا ـ فعمروا الثغور وحصّنوها وشحنوها بالجند، وأَتَوْا بأناس من أنحاء الدولة الإسلامية وأحلّوهم في المدن التي كان الروم قد هجروها أيام الفتوحات الإسلامية الأولىٰ وأقطعوا لهم القطائع وأداروا عليهم الأرزاق حتىٰ أضحت منطقة الثغور تعج بالأهلين»[1].

استمر الصراع بين الطرفين المتنازعين فقد هجم الروم علىٰ الثغور فأغاروا علىٰ ملطية سنة ١٣٣هـ ولم يقوَ أهلها علىٰ دفعهم فسلموا لهم البلد علىٰ الأمان، فهدمه الروم حيث لا أمان لهم، فلما فرغ العباسيون من مشكلاتهم الداخلية زمن المنصور، وجهوا نظرهم صوب الثغور، فعادوا إلىٰ نظام الصوائف والشواتي، ذلك النظام الذي عمل به معاوية، وكان قد توقف منذ أخريات الدولة الأموية وكان أهم تلك الصوائف التي كان يقودها العباس بن محمد عندما استطاع أن يقتل قائد جند أرمينية، وأن يأسر اثنين وأربعين ضابطاً من رجاله.

---

(١) نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص١١.

الصراع العسكري بين المسلمين والروم

في القرن الرابع الهجري

لم يخمد أوار الصراع بين المسلمين والروم في العصر العباسي ولم تنطفىء ناره، وإنما زاد تضرّماً واستعاراً، وقد تجلّىٰ الصراع في سلسلةِ جبال طوروس ذاتِ الحصونِ المنيعة التي ٱستطاع العباسيّونَ أنْ يستولوا عليها بعد حروبٍ ضارية، تجلّت فيها البطولة، وقدروا علىٰ النفاذ إلىٰ داخل بلاد الروم. وحطّوا علىٰ خليج البسفور غير مرة.

وفي عهد الخليفة المهدي دخل الصراع دوره الحاسم، حين أقدمَت الإمبراطورة «إيريني» سنة ١٦٣هـ[١] علىٰ إرسال جيش أغار علىٰ «مَرْعَش» فأحرقها ووضع السيف في رقاب أهلها. ولم يدر بخلد «إيريني» عندما أقدمت علىٰ هذا الفعل أنها ستفتح سلسلة من الصراع الدموي بين الدولتين، وأنها سَتُؤجِجُ نارَ الحِقْدِ في النفوس وكان ردّ المهدي حملة قوية قام بها ولدُهُ الرشيد، حيث حاصر قلعة «صَمالو»[٢] وأقام عليها ثمانية وثلاثين يوماً.

ولما تولىٰ الرشيد خالت «إيريني» أنه يمكنها أن تَنْقُضَ العهد الذي كان مع المهدي، فنقضت الاتفاق سنة ١٦٨هـ[٣]، وكان الردّ عليها سيلاً من الصوائف، ونهض الخليفة للجهاد، فدخل حِصْنَ الصّفْصافِ، وبعث أسطولاً هزم أسطول الروم، فسارعت الإمبراطورة إلىٰ دفع الجزية مرغمة.

---

(١) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٠ ص١٤٥.

(٢) نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص١٤-١٥.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص١٦٧.
الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٠ ص١٥٠.

عزم نقفور أن يعجمَ عودَ الرشيدِ وخالَ أنه يقوىٰ علىٰ كسب انتصار علىٰ المسلمين، فكتب رسالةً إلىٰ الرّشيد سنة ١٨٧هـ[١] مفعمة بالصلف والغرور، طلب فيها جميع أموال الجزية التي دفعتها الإمبراطورة له، حيث قال في رسالته: «من نقفور ملك الروم إلىٰ هارون ملك العرب. أما بعد، فإنّ الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحَمْلِ أمثاله إليها، وذلك من ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأتَ كتابي فاردد ما حَمَلَتْهُ إليك من الأموال، وآفتد نفسك به، وإلاّ فالسيف بيننا وبينك».

فلما قرأ هارون كتابه، أخذهُ الغضبُ الشديد، حتّىٰ لم يتمكن أحد أن ينظرَ إليه، ولا يستطيع مخاطبته، ثم كتب علىٰ ظهر الكتاب: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. من هارون الرشيد ـ أمير المؤمنين ـ إلىٰ نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه. والسلام».

ثم شَخَصَ مِنْ يومه شطر الثّغور، فأناخَ علىٰ باب «هرقلة» ففتحها واصطفىٰ ابنة ملكها، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً، وخرّب وأحرق، فطلب نقفور منه الموادعة علىٰ خراج يؤديه إليه في كل سنة، فأجاب الرشيد إلىٰ ذلك.

توفي الرشيد سنة ١٩٣هـ، فتولىٰ الخلافة من بعده ولده المأمون الذي نهض إلىٰ الثّغور سنة ٢١٥هـ، فحاصر حصن «قرّه»[٢] وفتحه عنوة وأمر بهدمه.

وفي سنة ٢١٧هـ أتم المأمون فتح حصن «لُؤلُؤة»[٣] الذي ظل حتىٰ هذا التاريخ شوكة في جَنْبِ المسلمين. لما يتمتع به من موقع حصين، وفي سنة ٢١٨هـ، تولىٰ الخلافة المعتصم.

---

(١) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٠ ص١٩٤.
الطبري: تاريخ الرسل والملوك جـ٨ ص٣٠٨.
نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص١٩.
(٢) نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص١٩.
(٣) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٠ ص٢٧١.
الطبري: تاريخ الرسل والملوك جـ٨ ص٦٢٨.
نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص٢١.

آثر المعتصم أن يفرغ من أمر بابك الخُرَّمي قبل أن يتوجهَ لصراع الروم. فأخذ يُشَدِّدُ عليه الحملات، حتىٰ بدأت الأرض تَميدُ من تَحْتِ بابك وأخذ رجاله ينجون بأنفسهم ويتوجهون إلىٰ بلاد الروم.

ولما أيقن بابك أنّ نهايته قد قربت بعث إلىٰ «توفيل» يُزَيّنُ له الإغارة علىٰ الثّغور، ويغريه بانشغال المسلمين به، وكأنّ توفيل كان في ٱنتظار هذه الفرصة، فأغار علىٰ «زبطرة» سنة ٢٢٣هـ[١] وأوقع ملك الروم بأهلها وما والاها ملحمة عظيمة، قتل فيها خلقاً عظيماً من المسلمين وأسر منهم عدداً لا يحصىٰ، وكان من جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات. ومثّل بمن وقع في أسره من المسلمين. فقطع آذانهم وأنوفهم وسمل عيونهم. بعد ذلك عاد إلىٰ القسطنطينية وهو يسوق العذارىٰ والصبيان، فأقيمت لعودته الاحتفالات، وراح الناس ينثرون عليه الزهر.

خرج أهل الثغور إلىٰ المعتصم صارخين، واستغاثوا في المساجد والديار، فخرج الخليفة نافراً عليه دراعة من الصوف بيضاء، وقد تعمّم بعمامة الغزاة، وأرسل جيشاً بقيادة «عجيف بن عنبسة» لمساعدة الثغور، فقابل «توفيل» بجوار «خرشنة» ولكن القوة المسلمة قد أبيد معظمها عندئذ، وبعد أن فرغ المعتصم من بابك، أعدّ جيشاً لم يعدّه أحد من الخلفاء وسار يقود هذا الجيش الجرار. قاصداً عمورية[٢] مسقط رأس «توفيل» ومعقل الروم الحصين.

وعندما بلغ المعتصم الثّغور، أفرد جيشاً بقيادة الأفشين، وأدخله من درب الحدث بينما سار هو وبقية الجيش ودخلوا من درب السلامة، وأسقط في يد

---

(١) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٠ ص٢٨٥.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٦ ص٤٧٩.

(٢) الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٠ ص٢٨٦-٢٨٧.
ابن الأثير: التكامل في التاريخ جـ٦ ص٤٨٠.
المسعودي: مروج الذهب جـ٢ ص٣٥٣.

«توفيل»، ثم تخير ملاقاة الأفشين، فدارت بينهما رحىٰ معركة حامية في دازيمون علىٰ نهر أريس وكانت الأمطار تتساقط بغزارة، وكان الضباب يُغَلّفُ جوَّ المعركة فيضفي عليها مزيداً من الهول، ودارت الدائرة علىٰ توفيل، فأسلم جواده للريح وتفرق جنده، وفرّوا لا يدرون أين تقودهم خطاهم.

ووصلت إلىٰ أنقرة[1] أنباء هزيمة «توفيل» فأخلاها قاطنوها وطفقوا ينشدون مأوىٰ آخر غير مدينتهم التي فرّ حماتها، ولما التقىٰ المعتصم بالأفشين فيها كانت خالية تماماً.

توجه المعتصم إلىٰ عمورية، فحاصرها حصاراً شديداً، وأخذت المجانيق تدك أسوارها حتىٰ سقطت، فأسر المعتصم قادة الروم في عمورية، وكان منهم القائد «ياطس» والبطريق «توفيل» والقائد «تيودور» والقائد «يازوئيس» والرئيس «كالستوس ميلسينيوس»[2] وفي فتح عمورية قال الشاعر أبو تمام:

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حدّه الحدّ بين الجدّ واللّعبِ

وبوفاة المعتصم سنة ٢٢٧هـ نودع عصر الخلفاء الأقوياء من بني العباس، الذين كانوا يَنْهضون بالقتال، وندخل في عصر جديد، أصبح فيه عبء حماية الثغور ملقىً علىٰ كاهل الولاة، فهم الذين يقاتلون الروم، وهم قادة الصوائف والشواتي، وهم الذين يدفعون الروم عندما يغيرون. أما الخلفاء فقد انشغلوا للذائذ الحياة وعكفوا عليها.

والواقع أن عوامل الضعف قد بدأت تَنْخَر في جسم دولة الخلافة منذ بداية القرن الثالث الهجري[3] وبالتحديد عندما أقدم المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) علىٰ إدخال العنصر التركي ليضرب به العنصر الفارسي والعربي، وبذلك أشعل فتيل التنافس بين هذه العناصر الثلاثة، وأخيراً سيطر العنصر التركي علىٰ الموقف

---

(١) نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص٢٢.

(٢) المرجع نفسه ص٢٣.

(٣) أحمد صالح فاعور: الدولة الحمدانية في حلب ص١٦٧.

واستولىٰ الجند الأتراك بما عرفوا من جفاء وغلظة علىٰ زمام الأمور في الدولة، وسيطروا علىٰ الخلفاء، وأخذوا يتدخلون في تعيين المناصب العليا في الدولة، ومن بينها الوزراء والكتاب، ووصل بهم الأمر في بداية القرن الرابع الهجري إلىٰ التدخل في تعيين الخلفاء وقتلهم وسمل عيونهم إذا اقتضىٰ الأمر، فساعد ذلك علىٰ إضعاف السلطة المركزية.

في بداية هذه الفترة، كان أمراء الثغور يقوون علىٰ الإغارة علىٰ الروم والنيل منهم، ففي عهد الواثق والمتوكل، كان علىٰ الثغور أمراء أقوياء كأبي سعيد الثغري، وعلي بن يحيى الأرمني، وعمر بن الأقطع، فكانت صوائف أبي سعيد تصل الخليج، وكانت حملات الأرمني تبلغ البسفور، وقيل: إنّه غزا ألف قرية، وكانت غزوات ابن الأقطع تصل إلىٰ البحر الأسود، وقيل: إنه فتح مدينة سمسون علىٰ البحر الأسود وساءه أن يُوقِفَ البحر سيره، فأمَرَ بِضَرْبِهِ[1].

وفي سنة ٢٤٩هـ، التقىٰ جمع من المسلمين وخلق من الروم بالقرب من ملطية، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل الأمير ابن الأقطع وعلي بن يحيىٰ الأرمني.

ومنذ عهد المستعين بدأ الوهن يدب في أوصال الثغور الجزرية، ولم نعد نسمع عن أمراء لها يقومون بغزو الروم، بل أصبح أمر الدفاع في يد أهل الثغور، وأضحوا وجهاً لوجه أمام الروم الذين احتلوا مركز القوة زمن الإمبراطور «باسيل» فدخلوا زبطرة وسُمَيْساط وأشرفوا علىٰ مَلَطْيَةَ ولكن الثغور الشامية كانت أحسن من الثغور الجزرية، والفضل في هذا يعود إلىٰ مدينة طَرْسوس التي ظلت حامية للثغور متخذة موقف الهجوم في البر والبحر، وفي سنة ٢٦٤هـ سقط حِصْنُ لؤلؤة الحصين بيد الروم عندما عين عليه فتى تركي غرّ اسمه «أماجور بن طرخان» فأساء السيرة فيها، ومنع الناس عطاياهم، فكتبوا إلىٰ أهل طرسوس يشكون إليهم

---

(١) نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص٢٤.
ابن الأثير: التكامل في التاريخ جـ٧ حوادث ٢٦٣هـ.

حالهم، فجمعوا لهم مبلغاً من المال احتجبه أماجور لنفسه، وحرم أهل القلعة منه فلم يجدوا بدا من تسليمها إلىٰ الروم[1].

تسلم أحمد بن طولون زمام الثغور الشامية بأمر من الخليفة المعتمد سنة ٢٦٤هـ، وكانت نيته أن يواجه الروم، ولكنه بذل في قتال الأمراء المحليين من الجهد أكثر مما بذله في صراع الروم، ومع هذا فإننا نسمع عن انتصارات له علىٰ الروم، حتىٰ إن الإمبراطور «باسيل» قد بعث إليه يسأله الهدنة (يذكر صاحب المغرب أن ابن طولون قد رفض الهدنة، وطلب من عامله علىٰ الثغور أن يشيد حصوناً جديدة في الثغور، وأن يقويها لأن من الخسران المبين أن تكون مدة الهدنة مريحة للروم مخسرة للمسلمين)[2].

وقد تحدث التاريخ عن أبطال مثل: يا زمان الخادم، طغج بن جنى، وسيما الطويل، ومؤنس المظفر، وبشر الخادم.

وفي سنة ٣٠٢هـ[3] غزا بشر الخادم والي طرسوس بلاد الروم، ففتح فيها وغنم وسبىٰ وأسر مائة وخمسين بطريقاً.

وفي سنة ٣٠٣هـ[4] أغارت الروم علىٰ الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرىٰ علىٰ الناس أمر عظيم.

وفي سنة ٣٠٤هـ[5] سار مؤنس المظفر إلىٰ بلاد الروم، ففتح مؤنس حصوناً كثيرة من الروم، وعتب عليه أهل الثغور وقالوا: لو شاء لَفَعَلَ أكثر مِنْ هذا.

---

(١) نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص٢٤.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٧ حوادث سنة ٢٦٤هـ.
(٢) نصرت عبد الرحمٰن: الصراع مع الروم ص٢٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص٩٠.
(٤) المصدر نفسه جـ ٨ ص٩٥.
(٥) المصدر نفسه جـ ٨ ص١٠٦.

لقد أدىٰ تدخل الخلفاء العباسيين في الثغور الشامية إلىٰ إضعافها، وإنه لمن العجب العجاب أن يقوم الخليفة المعتضد بإحراق جميع المراكب الحربية، التي كان أهل طرسوس يغزون الروم بها.

يقول الطبري: «كان فيها نحواً من خمسين مركباً قد أُنفق عليها أموال جليلة لا يعمل مثلها في هذا الوقت، فأحرقت، فأضرّ ذلك بالمسلمين، فكسر في أعضادهم وقوىٰ بها الروم، وأمنوا أن يغزوا في البحر»[1].

وعندما أقبل القرن الرابع الهجري، كانت الثغور الجزرية في غاية الوهن، حتىٰ إن الإمبراطور قسطنطين السابع قد بعث إلىٰ أهلها يأمرهم بحمل الخراج إليه قائلاً لهم: «إنني صحّ عندي ضعف ولاتكم»[2] ولما لم ينفذوا ما أمر به، دخل ملطية سنة ٣١٤هـ فخربها وسبىٰ منها ونهب، وأقام فيها ستة عشر يوماً، وجاء أهلها إلىٰ بغداد يستنجدون الخليفة عليه، فلم يغاثوا.

وفي سنة ٣١٥هـ[3]، قصد الروم سُمَيْساط فدخلوها وغنموا جميع ما فيها من مال وسلاح، وضربوا في الجامع بالناقوس أوقات الصلاة، ثم إن المسلمين خرجوا في أثر الروم فغنموا منهم غنيمة عظيمة.

وفي سنة ٣١٦هـ أصبحت الثغور البكرية بأيدي الروم.

وفي سنة ٣١٧هـ[4] ضعفت الثغور الجزرية عن دفع الروم عنهم، فدخلوا «آرزن» و«مَلَطْيَةَ» و«ميافارقين» و«آمِد» وعزموا علىٰ طاعة ملك الروم والتسليم إليه لعجز الخليفة المقتدر عن نصرهم، وأرسلوا إلىٰ بغداد يستأذنون في التسليم ويذكرون عجزهم ويطلبون العساكر لتمنع عنهم، فلم يحصلوا علىٰ فائدة، بعد

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص٢٠٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص١٦٠.
(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص١٦٩.
(٤) المصدر نفسه جـ ٨ ص٢٩٦.

ذلك انسحب الروم بعد أن سلّم إليهم المنديل المقدس الموجود في إحدىٰ كنائس «الرها».

وفي سنة ٣٢٢هـ[1] سار الدُّمُسْتُقُ قرقاش في خمسين ألفاً من الروم فنزل ملطية وحاصرها مدة طويلة وهلك أكثر أهلها بالجوع وضرب خيمتين، علىٰ إحداهما صليب، وقال: من أراد النصرانية انحاز إلىٰ الخيمة التي عليها الصليب ليرد عليه أهله وماله، ومن أراد الإسلام انحاز إلىٰ الخيمة الأخرىٰ وله الأمان علىٰ نفسه، ونبلغه مأمنه، فانحاز أكثر المسلمين إلىٰ الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في أهليهم وأموالهم، وسيّر مع الباقين بطريقاً يبلغهم مأمنهم، وفتحها بالأمان.

في غمار هذه الهزائم المتلاحقة ظهر سيف الدولة الحمداني، فكأن القدر قد ساقه لنجدة الثغور المهيضة الجناح.

من هذا نرىٰ أنه قد ظهر في القرن الرابع الهجري شخصية إسلامية فذة أخذت علىٰ عاتقها الصراع مع الروم، هذه الشخصية هي «سيف الدولة الحمداني» الذي حمل حملات صادقة عليهم، وحط علىٰ البسفور، فسيف الدولة قد خبر الروم قبل أن يؤسس دولة بني حمدان في حلب سنة ٣٣٣هـ إذ قاتلهم سنة ٣٢٤هـ ولم يكن النجاح حليفه، وفي سنة ٣٢٦هـ استطاع الأمير الحمداني أن يهزم الروم، وفي سنة ٣٢٨هـ دخل بلاد الروم وهدم حصوناً كثيرة.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٨ ص١٦٩.

دور الدولة الحمدانية في الصراع مع الروم

قبل أن أبدأ الحديث عن المعارك التي خاضها سيف الدولة الحمداني ضد الروم البيزنطيين، لا بد لي أن أعرّج قليلاً علىٰ الحمدانيين الذين ينتسب إليهم الأمير المجاهد سيف الدولة الحمداني.

الحمدانيون

ظهر الحمدانيون في أواخر القرن الثالث الهجري، وفي القرن الرابع استطاعوا أنْ يُؤَسِّسوا دولةً احْتَلّتْ مكانةً مرموقةً في العالم الإسلامي آنذاك، وبخاصة في تلك الظروف التي أُبْعِدَ فيها العربَ عن الحكم، وأصبح الحكم الفعلي للأتراك والديلم والفرس، وقام بنو حمدان بدورهم البارز والمشرّف في الوقوف في وجه البيزنطيين، والحفاظ علىٰ البلاد الإسلامية من خطرهم الداهم.

وكان لهم دورهم في الحركة الأدبية والفكرية في تلك الفترة وبخاصة في بلاط الأمير سيف الدولة، وإذا كان هذا شأنهم فيجدر بنا قبل أن نلج في موضوعنا، أن نتعرف إلىٰ هذه الاسرة قبل أن تؤسّس ملكها، فمن هم الحمدانيون؟ وإلىٰ من ينتسبون؟ ومتىٰ ظهروا؟ وأين؟ وكيف وصلوا إلىٰ ما حدّثتنا عنه كتب الأدب والتاريخ؟

تنتسب هذه الأسرة إلىٰ قبيلة «تَغْلِب» تلك القبيلة التي كانت تُعَدّ من أكبر القبائل شأناً في بلاد العرب منذ الجاهلية، حتىٰ قالوا: (لو أبطأ الإسلام قليلاً، لأكلت بنو تغلب الناس)[1]، وكان بنو تغلب من نصارىٰ العرب في الجاهلية، وكان موطنهم في الجزيرة وديار ربيعة، ثم ارتحلوا مع هرقل إلىٰ بلاد الروم، ثم رجعوا إلىٰ بلادهم، وفرض عليهم عمر بن الخطاب الجزية، فقالوا: (يا

---

(١) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص١٧.

أمير المؤمنين: لا تذلنا بين العرب باسم الجزية، واجعلها صدقة مضاعفة، ففعل)[1].

كان منهم في الإسلام ثلاثة بيوت: آل عمر بن الخطاب العدوي، وآل المغمر، وآل حمدون بن الحدث بن لقمان بن أسد[2]، وقد ظلت تغلب تقوم بدور كبير في تاريخ الجزيرة طوال التاريخ الإسلامي، حتىٰ استطاع بنو حمدان أن ينشئوا دولتهم إبّان القرن الرابع الهجري.

ومن الجزيرة انتقل حمدان بن حمدون إلىٰ الموصل، وكان حمدان جدّ الأمراء الحمدانيّين ربّ قبيلة تنظر إليه بقية القبائل بالاحترام والإجلال.

أنجبت هذه الأسرة عدّة أولاد نشأوا نشأة عصامية وألقوا بأنفسهم في ميادين المغامرة والحرب، فانتصروا وخذلوا وكانت حياتهم تتصف بالعنف والقوة، ولا تعرف الهدوء والسلم إلا لماما، وقد رافقت نشأة الحمدانيين ضعف الدولة العباسية وغروب شمسها، وشهد الحمدانيون الأحداث التي هزّت الدولة العباسية هزّة انتهتْ إلىٰ انفراطِ عقدها وظهرت دويلات وإمارات مستقلة علىٰ يد الأتراك والفرس والكرد وبعض القبائل العربية.

شهد الحمدانيون تقلّص نفوذ العرب وذوبانه تحت سيطرة الأعاجم بشكل مُزْرٍ، فرأَوْا أن يقوموا بنصيبهم من حمل هذا العبء، وأن يصونوا التراث العربي الإسلامي وأن يذودوا ما استطاعوا هجمات الروم عن الثغور الإسلامية، فكان دفاعهم عن الإسلام مجيداً، لقد ورث الحمدانيون أمجادهم الأدبية والحربية عن تغلب، فاعتزّوا بنسبهم أشدّ الاعتزاز وتغنىٰ به شعراؤهم، فأبو فراس يفتخر بنسبه التغلبي مرّة والحمداني مرّات ومرّات، ويرىٰ عشيرته خير البريّة، يقول:

إنـي امـرؤ ببنـي حمـدان مفتخـر خيـر البـريـة أجـداداً وأسـلافـاً[3]

---

(١) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص١٧.

(٢) سامي الكيالي: سيف الدولة الحمداني وعصر الحمدانيين ص٣١.
أحمد صالح فاعور: الدولة الحمدانية في حلب ص٤.

(٣) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص١٩.

ويشير ثانية إلىٰ بني حمدان وانتمائهم إلىٰ عدنان في نسبهم فيقول:

وإذا فخرت فخرت بالشّمّ الأُلىٰ شادوا المكارم من بني حمدان
نحن الملوك بنو الملوك أولو العلا ومعادن السادات من عدنان[1]

أمّا حمدان بن حمدون جد هذه الأسرة العربية النجار فقد انحدر من هذه القبيلة، وكان أول ظهوره علىٰ مسرح الحرب والسياسة في أواخر القرن الثالث الهجري، عندما استولىٰ علىٰ قلعة ماردين وأعلن استقلاله بها سنة ٢٧٤هـ عن طريق التحالف مع الخوارج، ممثلين في هارون الشاري، وفي سنة ٢٨١هـ خرج المعتضد الخرجة الثانية لمعاقبة حمدان بن حمدون، فقد بلغه أنّ حمدان مال إلىٰ هارون الشاري ودعا له[2] فهرب حمدان تاركاً الأمر لابنه الحسين وفتح المعتضد القلعة وأمر بنقل ما فيها وهدمها، ثم وجه خلف حمدان فظفر به بعد عودته إلىٰ بغداد، حيث قصد حمدان خيمة إسحاق بن أيوب وهو مع المعتضد، مستجيراً، فأحضره هذا إلىٰ المعتضد حيث أمر بالاحتفاظ به، وبقي حمدانُ مقيداً إلىٰ أنْ تغلَّب ابنه الحسين علىٰ هارون وذلك أنه لمّا استفحل أمر هارون وغلب علىٰ الأعمال وهزم جيوش السلطان، أشير علىٰ الخليفة بإنفاذ الحسين بن حمدان للقضاء عليه، فتقدّم الحسين واستطاع أن يوقعَ بالشّاري ويقتل من رجاله ويأسره بعد حرب عظيمة كانت الدائرة فيها للحسين بن حمدان، فأتى به المعتضد أسيراً بغير أمان، فخلع المعتضد علىٰ الحسين خلعاً شرفه بها، وطوّقه بطوق من ذهب وخلع علىٰ جماعة من فرسانه ورؤساء أصحابه وأهله[3]، وقد حكّم الخليفة في ثلاث حوائج، فسأله الحسين إطلاق أبيه فأطلق، وإزالة الأتاوة علىٰ بني تغلب فأزيلت، وإثبات خمسمائة فارس منهم يضمّون إليه فأُثبتوا[4]، وقد تغنىٰ أبو فراس بعمل عمّه هذا حيث قال:

---

(١) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص٢٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٧ ص٤٦٦.
(٣) المصدر نفسه جـ٧ ص٤٧٧-٦٦٥.
(٤) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص٢٢.

وأقبلَ بالشّاري يقادُ أمامه وللقيد في كلتا يديه ضفائر[1]

وتعرضت البلاد آنذاك لغارات القرامطة الذين ملأوا البلاد رُعْباً وقلقاً يعيثون في الأرض فساداً، يسفكونَ الدماء ويستبيحونَ الحرمات، وينهبونَ الأموال، ويقفون في طريق الحجّ، فعجم الخليفة كنانته فلم يجد أمرّ من الحسين عوداً، فوجّهه لمحاربتهم، فاستطاع أن يكسر شوكتهم ويأسر الكثير من رؤسائهم، وهكذا استفادت دولة الخلافة من قيام بني حمدان قوة عربية إسلامية في هذه المنطقة للقضاء علىٰ المناوئين لها.

واشتهر الحسين بن حمدان في حروبه مع القرامطة، ففي سنة ٢٩١هـ يحدّثنا الطبري عن الوقعة بين أصحاب السلطة ومعهم الحسين بن حمدان ضدّ صاحب الشامة[2]، وفي سنة ٢٩٣هـ كتب إليه الخليفة بالعمل علىٰ اجتثاث أصولهم، وفي سنة ٢٩٤هـ كانت وقعة عظيمة بين أصحاب الحسين وجماعة من أصحاب (ذكرويه)[3] القرمطي، فأوقع بهم وقتل منهم وأسر.

ويفتخر أبو فراس بصنع عمه فيقول:

وشن علىٰ ذي الخال خيلاً تناهبت سماوة كلب بينها وعراعر
أضقن عليه البيد، وهي فضافض وأضللنه عن شبله وهو خابر[4]

وهكذا برز الحسين بن حمدان قائداً مغواراً، قوى الشكيمة، فارتفعت منزلته عند الخليفة وغيره من أولي الأمر، لِما أظهرَهُ من شجاعة فائقة وانتصارات عظيمة.

---

(١) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص٢٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ حوادث سنة ٢٩١.
ابن الاثير: الكامل في التاريخ جـ ٩ ص٥٣٠.

(٣) الطبري: تايخ الرسل والملوك جـ ٨ حوادث سنة ٢٩٤.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٩ ص٥٤٨-٥٤٩.

(٤) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص٢٢.

وبلغ الأمر بالحسين أن يتدخل في شؤون الخلافة، ففي سنة ٢٩٦هـ كان التدبير يقع مع الحسين علىٰ إزالة المقتدر بالله، وتنصيب عبد الله بن المعتز مكانه ولكن المحاولة باءت بالفشل، وهرب الحسين إلىٰ الموصل، ولكنه عاد إلىٰ بغداد، وولاه المقتدر ديار بكر وربيعة سنة ٢٩٨هـ، وفي سنة ٣٠١هـ غزا الحسين الروم فورد كتاب من طرسوس يذكر فيه أنه فتح حصوناً كثيرة، وقتل من الروم خلقاً كثيراً، ولا غرو في ذلك، فقد سجل حمدان والده صَفْحةً خالدةً في تاريخِهِ وتاريخِ قَوْمِه، حيث تصدّىٰ لغزو الروم، فقيل إنه بنىٰ سوراً علىٰ مَلَطْيَة، وأنفق عليه سبعين ألف ديناراً، قال أبو فراس، قال سيف الدولة: دخلت ملطية أنا وعمي أبو العلاء سنة ٣١٣هـ، أو ٣١٨هـ فقرأت اسم جدي علىٰ سورها[١].

وفي سنة ٣٠٣هـ خالف الحسين[٢] وخرج عن طاعة السلطان رافضاً دفع المال المقرر عليه مقابل توليه ديار ربيعة، فسار إليه مؤنس الخادم، واستطاع أن يأسره وجميع أهله، وحبس الحسين في دار السلطان، وفي سنة ٣٠٦هـ توفي الحسين وقيل قتل بعد أن كان معظماً في الدول، وبعد أن حارب الطولونية، ثم القرامطة أيام المقتدر، وبعد أن حارب الروم، وقتل خلقاً منهم ثم خالف وعصىٰ إلىٰ أن قتل في سجنه ببغداد.

أما أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان فقد ولي الموصل سنة ٢٩٣هـ فكانت أول إمارة بني حمدان هناك. لقد كانت ولاية محفوفة بالزعازع والانقلابات، أي لم تكن ولاية مستقرة آمنة.

في سنة ٣٠١هـ[٣] حاول أبو الهيجاء مخالفة الخليفة، فسير إليه مؤنساً فلما علم بذلك أبو الهيجاء، قصد مؤنساَ مستأمناً من تلقاء نفسه، فأعاده المقتدر إلىٰ ولايته.

---

(١) عبد الجليل عبد المهدي أبو فراس الحمداني ص٢١.

(٢) المرجع نفسه ص٢٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص٧٦.

وفي سنة ٣١٤هـ ضمن أبو الهيجاء أعمال الخراج والضياع بالموصل وأعمالها[١] وأناب عنه ابنه الحسن، فكان عبد الله بن حمدان يتولىٰ الجميع وهو ببغداد، وابنه الحسن (ناصر الدولة) بالموصل.

وفي سنة ٣١٧هـ جرّده الخليفة، ممّا دفعه إلىٰ الاشتراك في المؤامرة التي دبرت لخلع المقتدر وتقليد القاهر مكانه، ولكن المحاولة باءت بالفشل فأعيد المقتدر وقتل أبو الهيجاء (عبد الله بن حمدان).

وفي سنة ٣١٨هـ[٢] عُزل الحسن بن عبد الله بن حمدان (ناصر الدولة) عن الموصل، ووليها عماه سعيد ونصر، وولي الحسن ديار ربيعة ونصيبين وسنجار والخابور ورأس عين.

وفي سنة ٣٢٣هـ قتل ناصر الدولة عمه أبا العلاء سعيداً والد أبي فراس الحمداني الشاعر، فعظم قتله علىٰ الراضي وأمر ابن مُقْلَة بالمسير إلىٰ الموصل ففعل، ورحل ناصر الدولة عن الموصل، ثم عاد إليها عن طريق الحيلة، وكتب إلىٰ الخليفة يسأله الصفح وضمان البلاد، فأجيب إلىٰ ذلك، واستقرت البلاد عليه[٣].

لقد عدّ الدكتور مصطفىٰ الشكعة سنة ٣٢٣هـ هي البداية الحقيقية لقيام الدولة الحمدانية بالموصل، ذلك أنّ الفترة السابقة كانت فترة قلاقل لم تثبت فيها الموصل بيد الحمدانيين، ولكنني لا أميل إلىٰ هذا الرأي لأنّ الدولة الحمدانية في الموصل لم تهدأ ولم تستقر بل بقيت تتعرض للمؤامرات من قبل الأعاجم طيلة حكم الحمدانيين لها، وأرىٰ أن عام ٢٩٢هـ هو بداية تأسيس الدولة الحمدانية.

وفي سنة ٣٣٠هـ استطاع الحسن بن عبد الله أن يقتل ابن رائق ـ أمير الأمراء ـ وأرسل ابن حمدان إلىٰ المتقّىٰ يعلمه أنّ ابن رائق أراد أن يغتاله، ففعل به ما فعل،

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص١٦٢.

(٢) المصدر نفسه جـ ٨ ص٢١٧.

(٣) المصدر نفسه جـ ٨ ص٣١٠.

فرد عليه المُتّقي ردّاً جميلاً وأمره بالمسير إليه، فسار ابن حمدان إلىٰ الخليفة، فخلع عليه ولقّبه (ناصر الدولة) ولقّب أخاه علي بن عبد الله (سيف الدولة) لأنه طرد البريديين من بغداد[١] ثم جعل ناصر الدولة أميراً للأمراء.

وأخيراً تُوِّجَت علاقة الحمدانيين مع الخليفة المتّقي بالله بزواج ابن الخليفة أبي منصور من ابنة ناصر الدولة (علوية) سنة ٣٣١هـ[٢]. وقد عدّ الدكتور أحمد صالح فاعور هذا الزواج زواجاً سياسياً إذ كان الهدف منه تثبيت حكمهم عدا طمعهم بأن يكون أحد أحفادهم خليفة.

نرجع إلىٰ علي بن عبد الله (سيف الدولة) لقد كان سيف الدولة يحلم في تأسيس ملك، وكان ينظر إلىٰ بلاد الشام علىٰ أنها هي التي يجب أن تكون ذلك المكان، فذهب إلىٰ الموصل لمقابلة أخيه ناصر الدولة وشرح له ما عزم عليه وأخبره بأنه يريد مساعدته بالمال والرجال، وأعلمه أنّ ما يحققه من نصر أو فتح سيكون عزّة له، ولكن ناصر الدولة ردّ عليه رداً غير كريم، فحاول ثانية وكان جوابه أشدّ امتناعاً فطلب من زوجة أخيه التوسط لديه فطلبت منه التريّث قليلاً حتىٰ يهدأ لأنها تعرف زوجها بأنه عنيد ومن الصعب أنْ يتراجع، وطلبت من سيف الدولة الإقامة في الموصل بضعة أيام لعلها تستطيع إقناعه[٣]، ولم يقاطع سيف الدولة أخاه بل بقي يتردّد علىٰ مجلسه، لعله يستطيع أنْ يغيّر من موقف أخيه فيستجيب له، وفي يوم ورد علىٰ ناصر الدولة كتاب من بغداد، فلمّا قرأه تغيّرت ملامح وجهه وغضب غضباً شديداً فسأله سيف الدولة عن السبب، فأجاب بأن أبا عبد الله البريدي قتل أخاه أبا يوسف طمعاً في ماله، كما أنه استولىٰ علىٰ البصرة[٤].

---

(١) أحمد صالح فاعور: سيف الدولة الحمداني ص٥٢.

(٢) المرجع نفسه ص٥٢.

(٣) ماريوس كنار: نخب تاريخية وأدبية ص٤٠٦.

(٤) أحمد صالح فاعور: سيف الدولة الحمداني ص٦٢.
ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص٤٠٩.

فأصاب سيف الدولة الهلع خوفاً من أنّ أخاه يشكّ فيه أو أن يحصل له كما حصل لأبي يوسف، فقرر ترك الأمر إلىٰ فرصة أخرىٰ، وخرج مسرعاً من الحضرة متذرّعاً بألم قد أصابه، وعاد إلىٰ معسكره الذي كان خارج الموصل، لكنّ ناصر الدولة أدرك ما دار بخلد أخيه، فأتبعه بغلامه (دنحا) حاملاً له رسالة جاء فيها: «إنك جئتني تلتمس العون فصادفت مني ضجراً، وأجبتك بالرفض، ثم علمت أنَّ الصواب معك، فكنتُ منتظراً أنْ تعاودني في المسألة فخرجت من غير معاودة ولا توديع، والآن إن شئت فأقم بسنجار أو بنصيبين فإني منفذ إليك ما التمست من المال والرجال لتسير إلىٰ الشام[1].

لقد سُرّ سيف الدولة لاستجابة أخيه له، وتحقّق بأن النصر سيكون حليفاً له فزالت عنه أحزانه وآلامه.

أما نبيلة إبراهيم[2] فإنها تقول: «أرسل سيف الدولة لأخيه ناصر الدولة، كي يعينه علىٰ الاستيلاء علىٰ ولاية فقال له ناصر الدولة: «الشام أمامك، وما فيه من أحد أن يمنعك منه» فابتدأ سيف الدولة في تنفيذ خطّته ودار القتال بينه وبين الإخشيد، ثم بدأت المفاوضات وصالحه الإخشيد علىٰ أن يترك له حلب وحمص وأنطاكية، ولم يكن هذا التصرف عجزاً من الإخشيد، ولكن الأخشيد رأىٰ أنَّ تَرْكَ ذلك لن يعودَ عليه بالضرر إن لم يكن فيه نفع له، وذلك لأنَّ سوريا لم تكن طريقاً تجاريّاً يضُمّ مصر، ولأن سوريا كانت ملجأ للثورات الفاطمية والعراقيّة، ولأن سوريا كانت مقابلة للبيزنطيين، فرأىٰ الإخشيد أنْ يترك سوريا لسيف الدولة وبالفعل استطاع أن يكوّن الدولة الحمدانية وتحسّنت العلاقة بين الإخشيد وسيف الدولة حيث تزوّج سيف الدولة بابنة أخ الإخشيد، وهكذا حقّق سيف الدولة حلمه بتكوين الدولة الحمدانية في حلب سنة ٣٣٣هـ.

---

(١) أحمد صالح فاعور: سيف الدولة الحمداني ص٦٢.

(٢) نبيلة إبراهيم: روميات المتنبي ص٦٣.

درويش الجندي: الشعر في ظل سيف الدولة ص٥٥.

سيف الدولة الحمداني

وُلِدَ سيفُ الدولةِ علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان[1] سنة ٣٠٣هـ وفي رواية سنة ٣٠١هـ في (ميافارقين) أو مدينة الشهداء، أشهر مدن ديار بكر، وتشاء الأقدار أنْ تقترنَ ولادته بارتقاء أبيه إمارة الموصل وأرض الرافدين.

لم يكد سيف الدولة يبلغ العقد الأول من حياته حتىٰ أسلمه أبوه إلىٰ العلماء والحكماء يُدَرّبونه ويُلَقّنونه الحكمةَ وصنوفَ العلم، ويشبّ أميرنا ويصحب أخاه إلىٰ بعض الغزوات، ويظهر شجاعة نادرة، وإقداماً عظيماً، وصبراً علىٰ المكاره وإبلاء حسناً في خوض المعارك، ويذيع اسمه في الموصل وأطراف الجزيرة، ثم يسافر إلىٰ بغداد، وينعم بعطف الخليفة المقتدر بعد أن هزم البريديين سنة ٣٣٠هـ. وتزداد الأحاديث عن شجاعته ومغامرته ويشاهد عن كثب هذه الاضطرابات التي انتهت بقتل أبيه وخلع الخليفة المقتدر فيزداد حنقا وثورة ووثوقاً من نفسه وإيماناً بالله.

ولو أنّ غير سيف الدولة ولد في هذا العصر الذي كان يَعُجُّ بالدسائس والاضطرابات، وقد ضَرَبَت الفوضىٰ رِواقَها في كل بُقْعَةٍ إسلامية، وأصبح الخليفة ألعوبة بأيدي الأعاجم، ولو أنّ غير سيف الدولة جابه هذه الاضطرابات والأحداث لابتلعته وطوت اسمه، دون أن تفسحَ له الصُّحف ولو سطراً واحداً ولكن الأمير سيف الدولة عرف كيف يشُقّ لنفسه طريق المجد، وعرف كيف يقوىٰ علىٰ الاضطرابات، وكيف يوطّد دعائم حكمه.

لذلك ينصرف الذهن عند الحديث عن الحمدانيين إلىٰ سيف الدولة مباشرة؛ لشهرته التي ترجع لدوره البارز في التاريخ، فقد سطّر صفحات مجد خالدة في

---

(١) قال المتنبي في الديوان الجزء الأول ص٢٧٧:

وأنت أبو الهيجا ابنُ حمدانَ يابْنَهُ ... تشابَهَ مولودٌ كريمٌ ووالدُ
وحمدانُ حمدونُ وحمدونُ حارثٌ ... وحارِثُ لقمانٌ ولقمانُ راشدُ

وقوفه أمام الروم، وفي خلقه حركة أدبية عظيمة في حلب، التي أصبحت منارة إشعاع فكري وأدبي في القرن الرابع الهجري، حيث ضمّ بلاطه مشاهير الأدباء والشعراء والعلماء والفلاسفة، وبهذا تبوّأ مكانة يستحقّها في تاريخ الإسلام.

لقد ارتبط تاريخ حلب ارتباطاً وثيقاً بسيرته، وقد أحبّها، وكان يفخر بها فيقول: حلب معقلي، والمتنبي شاعري[1].

لقد كان سيف الدولة (المشهور بسيادة بني حمدان وهو واسطة قلادتهم وهو غُرّة الزمان وعماد الإسلام ومَنْ به سِداد الثُّغور وسداد الأمور، وكانت وقائعُه في عصاة العرب تَكِفُّ بأسسها وتَنْزَعُ لباسَها وتفلّ أنيابها وتَذِلُّ صعابها، وغزواته تُدْرك من طاغية الروم الثآر، وتَحْسم شرّهم المثار، وتُحْسِنُ في الإسلام الآثار، وكان حضرته مقصد الوفود ومطلع الجود وقبلة الآمال ومهبط الرجال وموسم الأدباء وحَلْبَةُ الشعراء[2].

ويقال: إنه لم يجتمع قَطّ بباب أحد من الملوك ـ بعد الخلفاء ـ ما اجتمع ببابه من شيوخ في الشعر ونجوم الدهر، وكان أديباً شاعراً محباً لمجيد لجيد الشعر، شديد الاهتزاز لما يمدح به.

إنّ سيف الدولة قد بنىٰ لنفسه مجداً عريضاً لا يفنىٰ علىٰ مرّ الغداة وكرّ العشيّ بتلك البطولة العارمة التي مجّدها شعراؤه، وسطرها التاريخ بمداد من الثناء والإعجاب، إذ قضىٰ ردحاً من الزمان يدفع عن العروبة وحوزة المسلمين شبح الروم البغيض، لم يثنه عن عزمه ما يمتاز به العدوّ العنيد من وفرة العدد، والعتاد وقعود سائر الإمارات العربية التي كانت تحت ظلّ الأعاجم من نصرة هذا الفتىٰ المجاهد العظيم، والوقوف إلىٰ جانبه في الذود عن الإسلام، كما بنىٰ ذلك المجد بتلك الأريحية السمحة التي وجد العِلْم والأدب في رحابها ظلاً ظليلاً ومقاماً كريماً.

---

(١) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص١٧.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص٢٧-٢٨.

يقول بروكلمان: «ولئن كان سيف الدولة يدين بما تمّ له من شهرة عريضة لنضاله الموفق ضد الروم، فليس من شك في أنه مدين بذلك في المحل الثاني لعطفه علىٰ العلوم والفنون ورعايته لها»[1].

لم تكن فروسية سيف الدولة وحبّه العميق للأدب فحسب موضع إعجاب المؤرّخين المسلمين، بل هزّت مناقبه وعبقريته المغامرة في الحرب مشاعر مؤرخي الإفرنج فرأىٰ فيه بعضهم البطل والقائد، فخصّوه بالكثير من بحوثهم.

فهذا المستشرق غوستاف سيشلمبرجر يقول: «شغل سيف الدولة أذهان المؤرخين والكتاب والشعراء في القرن العاشر الميلادي فما أن تقرأ صفحة لمؤرخ بيزنطي أو قطعة لكاتب من كتاب ذلك العصر أو قصيدة من قصائد شاعر من شعراء العرب أو اليونان حتىٰ يستهويك الوصف والحديث عن هذا العدو الجذاب، الذي حارب الإمبراطورية البيزنطية بفرسان كان نصفهم من شعراء البوادي، وكان نصفهم الآخر من أمراء الحواضر»[2].

لقد أقسم مؤرخ بيزنطي زار حلب في عصر سيف الدولة أن قصور الخلفاء في بغداد وقصور ملوك الروم في القسطنطينية كانت أقلّ بهاء من قصور سيف الدولة[3].

لقد احتلت الأسرة الحمدانية مكانة بارزة في التاريخ الإسلامي في الميدانين السياسي والأدبي علىٰ يد سيف الدولة، الذي سطّر صفحاتٍ خالدةً بوقوفه أمام الروم، وفي خَلْقِ حركة أدبية عظيمة في حلب، التي أصبحت منارة إشعاع فكري وأدبي في القرن الرابع الهجري.

والدولة الحمدانية بحلب كانت أول إمارة عربية صميمة تنشأ في عصر إسلامي، بعد أنْ تغلغلَ الأعاجم في الدولة الإسلامية وسيطروا علىٰ سياسة الدولة العباسية، وكان لهم الأمر والنهي، فكانت الدولة الحمدانية، والحال كذلك، دولة

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية جـ٢ ص٩١.

(٢) سامي الكيالي: سيف الدولة وعصر الحمدانيين ص٢٧.

(٣) المرجع نفسه ص٢٧.

غريبة في بابها، وحيدة من نوعها فبظهورها ظهر أول نفوذ للعرب بعد أنْ وُئِد هذا النفوذ منذ نهاية الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ[١].

ففي عهد سيف الدولة الحمداني قامت الدولة بنشاطات مختلفة، فقد كانت ذات نشاط حربي استطاع أن يعيدَ للدولة الإسلامية هيبتها ومركزها وسياستها علىٰ حدودها، وٱستطاعت أن تدقَّ أبواب العواصم والثغور الرومية دقاً عنيفاً متواصلاً في فترات متقاربة، ففزع الروم وأُصيبت دولتهم بالصداع، وزلزت أراضيهم تحت سنابك خيل المجاهدين.

لقد استطاع سيف الدولة أنْ يقيم دولة في حلب، واستطاع أنْ يوطد أركانها ويحولها إلىٰ سد منيع أمام خطرِ البيزنطيين، ومن ثم غزوهم في عقر دارهم، فقد رَوَتْ كتبُ التاريخ (أنَّ سيف الدولة غزاها ما يزيد علىٰ أربعين غزوة، كان النجاح حليفه في معظمها، وقد تغنىٰ بتلك الانتصارات والأمجاد الشعراء»)[٢].

إنّ شهرة سيف الدولة استندت إلىٰ مقارعة الروم وحماية الثغور وإذكاء روح الجهاد في سبيل الله لترفع راية الإسلام خفّاقة فَوقَ الثغور الإسلامية: يقول شوقي ضيف: «إن سيف الدولة أعظم بطل عربي تألق نجمه في سماء الحروب الرومية، إذْ تحولَ بجنوده إلىٰ ما يشبه سدّاً ضخماً يصدّ سيول الروم، بل قد تحول إلىٰ ما يشبه صخرة عاتية تتحطم عليها غاراتهم وحملاتهم، بل إنَّه حوّل ديارهم وأوديتهم إلىٰ حرائق تسيل من تحتها دماؤهم المسفوحة، وكأنما تجسدت في نفسه البطولة الإسلامية بكل أمجادها الحربية»[٣].

لم يكن نشاط الدولة الحمدانية في زمن هذا الأمير المجاهد نشاطاً سياسياً حربياً فحسب، بل كان نشاطها الأدبي رائعاً أيضاً، فقد ازدان بلاط سيف الدولة بنخبة ممتازة من رجال الأدب والفكر والفن، تكاد لا تباريها إلا حلقات خلفاء

---

(١) مصطفىٰ الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص١.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص٤٧.

(٣) شوقي ضيف: البطولة في الشعر العربي ص٧٠.

بغداد في أيام عزّهم، فقد ضمّت تلك الحلقات الفيلسوف الشهير البارع أبا نصر الفارابي، ومؤرخ الأدب العربي أبا الفرج الأصبهاني، والواعظ البليغ ابن نباتة، والعالم اللغوي ابن خالويه، والنحوي ابن جني، والشاعر الفارس أبا فراس وفوق هؤلاء الشاعر الأشهر أبا الطيب المتنبي وكان سيف الدولة واسطة قلادتهم وغرّة الزمان، ودعامة الإسلام، وكان به سداد الثغور وسداد الأمور[1].

لقد كان سيف الدولة بطلاً مظفّراً، وقائداً موهوباً متصفاً بالأخلاق العربية الكريمة، متّسماً بالجرأة والشجاعة، فالتقىٰ بالجيوش البيزنطية الكثيفة المجهّزة أحسن تجهيز، تحت قيادة أبرع وأعتىٰ القادة البيزنطيين من أمثال (برداس فوكاس) و(نيسفور أو نقفور فوكاس)، فكان يصدّهم وينتصر عليهم ويوقع بهم شر الهزائم، ولم يقف الأمر بسيف الدولة عند حد هذه الجيوش المعتدية الغازية وحسب، بل إنه نقل المعارك إلىٰ أرض الروم وأخذ يخرج للغزو مرتين أو أكثر كل عام، فيقتلع الحصون ويحتل المدن ويعود بالأسلاب والغنائم والسبايا، فأوقع الرعب في قلوب الروم، وأمّن حدود إمارته من ناحية وثبّت حدود الدولة الإسلامية من ناحية ثانية، وألقىٰ علىٰ مهاجمي ديار العرب دروساً قاسية بما أوقع بهم من هزائم، وبما قتل من جنودهم، وبما أسر من بطارقتهم وقادتهم، حتىٰ إن أحد قادتهم الكبار اضطر بعد معركة كبرىٰ هزم فيها عشرات الألوف من الجنود الذين جندهم من مختلف البلاد الأوروبية والآسيوية وهو (برداس فوكاس) أن يترهب ويدخل الدير نتيجة الهزائم المتوالية التي أوقعها به المجاهدون المسلمون تحت قيادة الأمير المجاهد سَيْف الدولة، الأمر الذي كان مادة طريفة لشعراء العرب فصوّروا تلك الحادثة تصويراً طريفاً.

لقد ذاع اسم سيف الدولة في العالم الإسلامي، لا علىٰ أنَّه أمير حلب فحسب، بل علىٰ أنه بطل الجهاد ضد البيزنطيين، وكان اسمه أبداً موصوفاً بأنه أقوىٰ خصم وأشرف بطل وقف أمام الجيوش البيزنطية.

---

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ص١٠٥.
فيليب حتي: تاريخ سورية جـ١ ص١٩٨.

لا نريد أنْ نؤرخَ بالتفصيل لتلك المعارك التي دارت رحاها بين سيف الدولة والدولة البيزنطية، ولكن كل ما نريد أن نبيّنه لا يعدو الإلمام بتلك المعارك بصورة عامة، لنرىٰ أثرها في شعر الجهاد عند المتنبي.

قسّم كنار أعمال سيف الدولة في حلب إلىٰ أقسام ثلاثة: حروبه للبيزنطيين، حروبه مع القبائل العربية، وحروبه لعمّاله الذين حاولوا الاستقلال[1].

أما حروبه مع الروم فيمكن تقسيمها إلىٰ أربع فترات:

الفترة الأولى: وقعت فيها غزوات كانت أولاها سنة ٣٢٤هـ[2] ولم يكن النجاح فيها حليفاً لسيف الدولة، حيث سار الدمستق بجيوش الروم إلىٰ آمد وسميساط في عهد الراضي، فسار سيف الدولة إلىٰ آمد وحاربه وانتهت الحرب بأن مَلَكَ الدمستق سميساط.

وكان ثانيها سنة ٣٢٦هـ[3] وفيها استطاع الأمير الحمداني أن يهزم الروم ويأسر منهم سبعين بطريقاً، وأن يأخذ سرير الدمستق وكرسيه.

وفي سنة ٣٢٨هـ[4] كان لسيف الدولة غزوة ثالثة، استطاع فيها أنْ يدخل بلاد الروم ويهدم لهم حصوناً كثيرة، ويفتح قلاعاً منيعة ويطأ مواطيء لم يطأها أحد من المسلمين قبله، فقد سار حتىٰ نزل قالونيا وأحرقَ رساتيقها، وسلب ضياعها وقتل من الروم مقتلة عظيمة.

الفترة الثانية: لقد كانت حروب سيف الدولة في هذه الفترة بعد قيام الدولة الحمدانية في حلب سنة ٣٣٣هـ، حيث كانت الإمبراطورية البيزنطية تغير علىٰ الأراضي الإسلامية من آن لآخر دون أنْ يتعرضَ لها أحد، وعندما وَطِئَتْ قدم الأمير سيف الدولة بحلب، شعرت الإمبراطورية البيزنطية بالخطر الذي قد يسببه

---

(١) مصطفىٰ الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص٧٤.

(٢) المرجع نفسه ص٧٥.

(٣) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس الحمداني ص٣١.

(٤) المرجع نفسه ص٣١.

هذا الأمير الطموح، ورأت أنَّ إنشاء دولة جديدة علىٰ حدودها سيكون له الأثر السيء، فبادرت بالهجوم علىٰ الثغور الإسلامية منتهزة حرب الأمير سيف الدولة مع الأخشيديين سنة ٣٣٣هـ، الذين جاؤوا لاسترداد حلب، فأبت نفس الأمير المجاهد سيف الدولة، وحرصه علىٰ سلامة الأرض الإسلامية إلا أنّ يسارعَ علىٰ رأس جيش كبير ـ علىٰ الرغم من خطر الأخشيديين عليه ـ ليصد ذلك الهجوم البيزنطي الذي تعرض لأهل (بغرس) و(مرعش) وأوقع بهم، وخلّص الأسرىٰ من أيديهم.

كانت هذه المعركة هي بداية توتر العلاقات بين الدولة الحمدانية في حلب والبيزنطيين، ومنذ ذلك التاريخ، أي منذ نشوء الدولة الحمدانية في حلب، بدأ موقفها يتحدّد تجاه البيزنطيين، فلا هوادة معهم، لأنهم يطمعون في الأرض الإسلامية، فلا بُدّ من الحروب والتصدّي لعدوانهم.

وقد زادت الحروب اشتعالاً بعد أنْ انتزعَ الأمير سيف الدولة اعترافاً بدولته من الأخشيديين، وباركَ الخليفةُ العباسي في بغداد جهوده فتحول بنظره إلىٰ اتخاذ موقف التصدي والتحدي، وتحرير الثغور التي استولىٰ عليها البيزنطيون من قبل.

لقد امتازت الحرب في عهد الأمير سيف الدولة بالإغارة والسلب والنهب والعودة إلىٰ داخل الحدود، وهذا ما يسمىٰ في المصطلح العسكري بحرب العصابات.

أما البيزنطيون، فقد كانوا كذلك يتصدَوْن لهجمات سيف الدولة ويغيرون علىٰ الأرض الإسلامية، ولم يفكروا في الاحتلال.

وفي سنة ٣٣٥هـ[1] رأىٰ سيف الدولة وقبل أن يدخُلَ في الحرب مع الروم أن يخلص الأسرىٰ الذين أخذهم البيزنطيون من الثغور ليكونوا عَوْناً له في حروبه المقبلة، وراسَلَ امبراطور البيزنطيين في ذلك فاستجابَ له وتمّ تبادل الأسرىٰ

---

(١) أحمد صالح فاعور: الدولة الحمدانية بحلب ص١٦٨.

حيث بلغ عددهم ألفيْنِ وأربعمائة وثمانين أسيراً، وفضل البيزنطيون علىٰ العرب مائتين وثلاثين أسيراً فداهم سيف الدولة من ماله الخاص.

أما الحديث عن معارك سنة ٣٣٦هـ إلىٰ سنة ٣٤٥هـ فموجود مفصلاً في الفصل الثالث من هذا البحث في «شعر الجهاد» ولا حاجة لسرده هنا.

الفترة الثالثة: معارك عام ٣٤٥هـ[١]: غزا سيف الدولة في سنة ٣٤٥هـ بلاد البيزنطيين، وكانت فرائص الروم لا تزال مرتعدة لما أوقعه بهم من هزائم، فوطىء من أرض الروم مَوْطِئاً لم يطأهُ المسلمون منذ ثلاثين سنة حيث قتل منهم نحو أربعة آلاف رجل، وغنم ما يفوق الإحصاء من الدواب والديباج، وعاد سالماً، وكان قائد الروم ابن الشمشقيق، وفي هذه الغزوة قال المتنبي قصيدته التي مطلعها:

الـرّأْيُ قَبْـلَ شَجَـاعَـةِ الشُّجْعَـان هُـوَ أَوّل وهـيَ المَحَـلُّ الثّـانـي[٢]

وفي عام ٣٤٦هـ حاول الروم القبض علىٰ سيف الدولة غدراً وخيانة عن طريق بعض غلمانه، ولكن محاولتهم باءت بالفشل، وفي سنة ٣٤٧هـ و٣٤٨هـ لم يسجّل سيف الدولة انتصارات كبيرة مظفرة علىٰ الروم.

وفي عام ٣٤٩هـ عاد سيف الدولة إلىٰ نشاطه الحربي بنفسه وأوغل في بلاد الروم وعاد محملاً بالغنائم والأسلاب، وفي الطريق تصّدى له قائد بيزنطي عُيِّن حديثاً «ليون فوكاس» الذي أخذَ المنافِذَ علىٰ الجيش العربي الإسلامي، فحلّت بسيف الدولة الهزيمة.

الفترة الرابعة: ويظهر في هذه الفترة أنّ الأمور قد بَدأَتْ تسيرُ في غير صالحه، ففي عام ٣٥١هـ فَزِعَ الرومُ من الهزائم المتوالية المتلاحقة التي أوقعها بهم

---

(١) عبد الجليل عبد المهدي: أبو فراس ص٣٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص٥١٧.
سامي الكيالي: سيف الدولة الحمداني وعصر الحمدانيين ص٢١٨.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٧٤.

الأمير سيف الدولة، ولقد أثار حفيظتهم أنّ أميراً لإحدىٰ المقاطعات الإسلامية يُنْزِلُ تلك الهزائم الكثيرة بأكبر إمبراطورية علىٰ وجه الأرض، فاستدعت أقْوىٰ قائدٍ في جيشها وأصلبهم عوداً، ونقلته من الجبهة الغربية إلىٰ الجبهة الشرقية، حتىٰ يحرز بعض النصر علىٰ الأمير سيف الدولة، فيحفظ علىٰ الإمبراطورية ماء وجهها أمام رعاياها، وهذا القائد هو «نقفور فوكاس».

ولي نقفور إمارة الجيش البيزنطي، ولم يكد يمضي علىٰ تعيينه في منصبه الجديد شهور، حتىٰ أعد نفسه للثأر من الأمير سيف الدولة واستفاد من كل إمكانات الإمبراطورية في تجهيز الجيش.

حاول سيف الدولة أنْ يلتقي بالجيش البيزنطي بعيداً عن حلب فخرج في أربعة آلاف جندي من الفرسان والرّجالة إلىٰ «عزاز» ولكنه تيقن أن لا طاقة له بمحاربة هذا العدد الضخم، فعاد إلىٰ عاصمته حلب وخيم بظاهرها، وأرسل غلامه «نجا» لملاقاتهم في الطريق علىٰ رأس جيش من ثلاثة آلاف مقاتل، ثم لم يصبر فانطلق يتبعه ولكنه عاد إلىٰ العاصمة مرة أخرىٰ، وفتح خزائن السلاح للرعيّة.

وفي الصباح أشرف العدو علىٰ المدينة في ثلاثين ألف فارس، وجرىٰ بين جيش الأمير والجيش الغازي قتال مرير غير متكافىء من ناحية العدد ومتكافىء من حيث المقدرة علىٰ القتال، وبالرغم من أنَّ جنود المسلمين لم يتجاوزوا ثلاثة آلاف مقاتل، فإنَّ جيش العدو طلب النجدة فأُنجدوا بأربعين ألفاً، وٱلتقىٰ الجيش الكبير المهاجم بالجيش الصغير المدافع، فانسحب سيف الدولة نحو «بالس» لينظّم صفوفه من جديد، إلاّ أنَّ ذلك فتَّ في عضد المسلمين فوقع فيهم كثير من القتلىٰ ولجأ بعضهم إلىٰ القلعة، وأخيراً دخل الروم المدينة عن طريق الغدر، فنزلوا البلدة وأعملوا الحرق والتخريب وأنقذوا أسراهم.

وكانت خسائر سيف الدولة فادحة سواء في الرجال أو في المال أو في العتاد، وهزيمة المسلمين في حلب، لم يكن سببهاً ضعف سيف الدولة أو تقاعسه،

فإن سيف الدولة كان يقول لأهل المدينة: أغلقوا أبواب المدينة واحفظوها، وأمضي أنا وأنظم جندي وأعود إليكم.

وفي سنة ٣٥١هـ[١] هاجم نقفور (عين زرية) فجأة بجيش يبلغ عدده ستين ألفاً، فطلب أهل (عين زرية) الأمان، ولكن الروم لا أمان لهم، فنكلوا بأهل البلدة، وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين، وأقام الدمستق في بلاد المسلمين واحداً وعشرين يوماً، وفتح حول (عين زرية) أربعة وخمسين حصناً للمسلمين، بعضها بالسيف والبعض الآخر بالأمان.

بعد خروج البيزنطيين من حلب عاد إليها الأمير سيف الدولة محطماً مريضاً من جراء ما أصاب رعيته من المآسي والآلام وما أصابهم من القتل والدمار، فأرسل حاجبه في جيش من أهل طرسوس إلىٰ بلاد البيزنطيين، ففتحوا وقتلوا وسبوا وعادوا إلا أنَّ البيزنطيين ردّوا علىٰ سيف الدولة باحتلال حصن «سيسية»[٢] فسيّر غلامه «نجا» في جيش عظيم إلىٰ حصن «زياد» فالتقىٰ بجيش البيزنطيين فهزمهم واستأمن إليه خمسمائة رجل منهم.

لقد سقطت هيبة سيف الدولة أمير حلب بسبب المرض علىٰ الرغم من الغزوات المتلاحقة التي كان يوجهّها بقيادة «نجا» وأحياناً بقيادته وهو محمول، كما أن نقفور أصابه الغرور بالانتصارات التي أحرزها، فلم يتأثر من الضربات التي يوجهها سيف الدولة، فلم تكن يده قوية كما كانت فقد أصابها الشلل.

وفي سنة ٣٥٢هـ[٣] خرج سيف الدولة وغلامه نجا إلىٰ الغزو فنزل سيف الدولة علىٰ «الدروب» بينما دخل «نجا» ملطية ـ فأحرق وقتل وأقام ثمانية عشر يوماً، ولكن نقفور رد عليه سنة ٣٥٢هـ أيضاً بهجمات عنيفة، حيث نزل بالقرب

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص٥٣٨-٥٤٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١١ ص٢٤٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٨ ص٥٤٧.

أحمد صالح الفاعور: الدولة الحمدانية بحلب ص١٩٤.

من «أذنة» فلقيه أهل طرسوس فهزمهم وقتل منهم أربعة آلاف وانهزم الباقون إلىٰ تل قريب من «أذنة» فأحاطوا بهم وقتلوهم، وهرب أهل أذنة إلىٰ المصيصة فحاصرها نقفور مدة، فلم يقدر عليها.

بعد أن أصاب سيف الدولة المرض سقطت هيبة الدولة الحمدانية، وتطور النزاع بين الدولة الحمدانية والبيزنطية إذ أخذ البيزنطيون يجوبون أرجاء الدولة دون أن يعترضهم أحد.

وفي سنة ٣٥٣هـ[١] بني نقفور مدينة بالقرب من قيسارية، وفي سنة ٣٥٤[٢] انقض نقفور علىٰ طرسوس والمصيصة، وقتل عدداً كثيراً.

وفي سنة ٣٥٥هـ[٣] شعر الأمير بقرب نهايته، فأراد أن يتوّج نهاية حياته بعمل عظيم، فرأىٰ أن يخلص الأسرىٰ المسلمين من الأسر مهما كلف الثمن، فأخذ يراسل الإمبراطور البيزنطي، فاستجاب له وتمّ تبادل الأسرىٰ علىٰ شاطىء الفرات في سميساط.

ولما لم يبق عند الأمير سيف الدولة من الأسرىٰ البيزنطيين من يفادي به اشترىٰ باقي الأسرىٰ كل نفس باثنين وسبعين ديناراً حتىٰ نفذ ما معه من المال، فاشترىٰ الباقين ورهن عليهم درعه المجوهرة المعدومة النظير.

إنَّ ما قام به الأمير سيف الدولة من فداء الأسرىٰ من البيزنطيين يدل علىٰ كرمه وسخائه في سبيل الإسلام والمسلمين وهذا ما كان له الأثر الكبير في نفوس المسلمين، فاحتفل أهل حلب وغيرها من البلدان بعودة أبنائهم من الأسر، ولكن لم يمض شهران علىٰ فداء الأسرىٰ حتىٰ قام نقفور فاجتاح الأراضي الإسلامية نهباً وأسراً، فخرج سيف الدولة للقائه فنزل «شيزر» ونزل نقفور «منبج» ثم سار إلىٰ «بالس» وأخذ منها ثلاثة آلاف أسير، ثم إلىٰ «قنسرين» ونزل علىٰ «تيزين» فاستولىٰ

---

(١) أحمد صالح الفاعور: الدولة الحمدانية بحلب ص١٩٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٨ ص٥٦٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٨ ص٥٧٢.

عليها وسبىٰ أهلها واستولىٰ علىٰ حصن «ارتاح» وعبر «بأنطاكية» وقاتله أهلها سبعة أيام ثم غادرها.

كان هذا آخر عمل قام به سيف الدولة، فاشتد عليه المرض وتوفي سنة ٣٥٦هـ في الخامس والعشرين من صفر.

وهكذا انتهت حياة هذا الأمير المجاهد بعد أن دوّخ الروم وحمل حملات صادقة عليهم.

بعد أن تعرفنا علىٰ المجاهد الأمير سيف الدولة تلك الشخصية الإسلامية التي أخذت علىٰ عاتقها الصراع الدموي مع الروم، لا بد لنا إلاّ أنْ نعرّج علىٰ شخصية إسلامية أخرىٰ عاشت في كنف هذا الأمير وأخذت علىٰ عاتقها الصراع الفكري مع الروم إلىٰ جانب الصراع الدموي، هذه الشخصية هي البطل الفارس، الشاعر المجاهد أبو الطيب المتنبي، وقبل أنْ أبدأ بشعره الجهادي لا بد إلا أن أتعرض لأمرين هما:

أولاً: عصر الشاعر.

ثانياً: حياة الشاعر.

* * *

أولاً: عصر أبي الطيب

كانت الدولة الإسلامية طوال القرن الثاني وفترة من القرن الثالث الهجري متماسكة الأطراف مترابطة الأمصار إلا في القليل النادر حيث تقوم ثورة هنا أو فتنة هناك، ثم لا تلبث أن تنتهي أو تخمد.

رافق المتنبي القرن الرابع للهجرة، منذ استهلّت أعوامه حيث تخطّىٰ نصفه الأول، فشهد في حياته زحمات الحوادث، وتغلّب السياسة، وتفرّق الأمصار والشعوب.

وفي مطلع القرن الثالث للهجرة، بدأ نفوذ الفرس يضعف، إذْ كان من سياسة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) أن يستكثر من الأتراك لضرب الفرس، وبذلك أشعل فتيل التنافس بين العناصر الثلاثة، العربي، الفارسي، التركي، وجرىٰ علىٰ نهجه من جاء من بعده، مما أدّىٰ إلىٰ استبداد الأتراك بالخلافة وسيطرتهم علىٰ مرافق الحياة العامة، وتجرّئهم علىٰ الخلافة، وإطاحتهم بهيبتها، وضربهم بسلطة الخليفة جانباً.

إن عصر المتنبي عصر مليء بالأحداث، حيث إنه يقع في حقبة حاسمة من التاريخ الإسلامي، تميزت بالصراع المشوب الأوار بين السلطة الرسمية ومعارضتها من الشيعة والقرامطة.

في هذا العصر يشهد الباحث بوضوح حياة القصور وما بها من إسراف وتبذير وشهوات ومؤامرات، استهدفت جعل الخلافة الإسلامية ألعوبة في أيدي الجيش تارة أو في قبضة الوزراء تارة أخرىٰ، أو وفق أهواء الحريم تارة ثالثة، ولا شك في أنّ أثر ذلك كلّه انعكس على دولة الخلافة، فمزق وحدتها مما شجع الكثير من الأمراء على الانفصال بولاياتهم عن جسم الخلافة وتأسيس الدويلات المستقلّة التي تخضع للخليفة بالمظهر فقط. وأدّىٰ ذلك إلىٰ وقوع أزمات اقتصادية حادّة مستعصية زعزعت إيمان العاملين بالمؤسسات الإدارية الرسمية في إيجاد الحلّ الصحيح والناجح لها.

إنّ هذا العصر قد شهد مآسي كثيرة، فقد امتاز بتطرف شديد في مختلف نواحي الحياة فبلغ فيه التفاوت بين الناس حدّ التناقض الحاد، بين الغني والفقير، والتدين والإلحاد والنزاهة والخيانة، ولا شك أنّ وجود مثل هذه الظواهر المتناقضة في مجتمع ما، تكفي لأن تفكّ عراه وتزعزع أركانه وتقوض أسسه.

إنّ الناظر إلىٰ خارطة الدولة الإسلامية في عصر أبي الطيب المتنبي يجد أوطاناً سياسية، ودويلات مشتّتة متباعدة الأهواء والاتجاهات، تتصارع مع بعضها سرّاً وعلانية من أجل البقاء، ففي تركستان دولة سامانية (٢٦١-٢٦٩هـ) وفي طبرستان دولة زيبارية (٣١٦-٣٤٤هـ) وفي أفغانستان والهند دولة غزنوية (٣٥١-٥٨٢هـ) في حين استقلّ البويهيّون بفارس ٣٢٠هـ والإخشيد بمصر عام ٢٢٣هـ، ثم تغلب البويهيّون على بغداد عاصمة الخلافة عام ٣٣٤هـ.

والبويهيّون يدينون بالمذهب الشيعي الزيدي، فأصبح الخطر يحدق بالخلفاء العباسيين من الأعاجم الجدد، لأنهم يؤمنون بأن الخلفاء العباسيين هم مغتصبو الخلافة من أصحابها الشرعيّين العلويين.

هذه الدولة العباسية الكبرى التي كانت تبسط سلطانها على العراق وفارس وما وراء النهر حتى حدود الهند شرقاً وبلاد الشام والجزيرة ومصر وجزءاً من شمال إفريقية غرباً، هذه الدولة الكبرى المكوّنة من أمصار عديدة، وأجناس شتّى، بدأت تتشعّب وتظهر فيها الدويلات المستقلة كما أسلفنا، يحدث كل ذلك والخلافة لا تحرك ساكناً، لا لأنَّ الأمر لا يعنيها ولكن لخوفها ورعبها وضعفها.

وإذن فقد كانت دولة الخلافة ممزّقة الأوصال وأقاليمها نهباً يتخاطفها القادة الأقوياء الذين لا يكتفون بما تحت أيديهم من ولايات، بل يستبدّ بهم الطمع حتى دقّوا أبواب بغداد واستولَوْا عليها.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ من ثورة الولاة واستقلالهم بل شاعت الفتن، وكثرت الاضطرابات في قصور الخلفاء الذين أصبحوا كالدُّمىٰ في أيدي الوزراء والقادة، فالوزير (العباس بن الحسن الجرجرائي) يغضب علىٰ الخليفة، المكتفي فيعزله ويولي مكانه صبياً لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ويلقبه بالمقتدر بالله،

ولم يكن هذا المقتدر الاّ الأخ الأصغر للخليفة المكتفي، ولكن خصوم الوزير ما يلبثون أن يتآمروا عليه ويزيحوه من كرسي الوزارة ثم يقتلوه، ويخلعوا الخليفة الصغير لكي يولوا مكانه الشاعر الأمير عبد الله المعتز الذي فتن بشعره الجميل المتأديون من سكان بغداد، ولكن الخليفة الشاعر لم يستقرّ على كرسي الخلافة إلاّ يوماً واحداً عزل ثم قتل بعد اثني عشر يوماً.

وهكذا نجد الخلافة غير مستقرّة وأعمار الخلفاء في كفّة القدر وكثيراً ما يموت خليفة فيتعذر تعيين خليفة مكانه، لذلك كان الاستقرار مفقوداً، والأمن ضائعاً، وكان طبيعياً أن تكثر الثورات والفتن في كل مكان.

ففي البصرة قامت (ثورة الزنج) علىٰ يد رجل فارسي اسمه (علي بن محمد) دعا العبيد إلىٰ الخروج علىٰ ساداتهم في وقت كان الرق فيه منتشراً، وقد لقيت دعوته نجاحاً سَرَت بين العبيد سريان النار في الهشيم، فتصدّت لهم جيوش الخليفة (الموفق) وقضي على هذه الثورة التي عاشت خمسة عشر عاماً، عاثت في البلاد فساداً.

ولا تكاد بلاد الخلافة تستريح من فظائع الزنج حتى تمنى بنكبة أشد وأعظم هي ثورة القرامطة.

والقرامطة جماعة مذهبها الدماء، وعقيدتها القتل، وقد نشأت فكرتهم في العراق في المنطقة المحيطة بواسط سنة ٢٧٧هـ، وقد اشتدّ صراع حركة القرامطة مع الخلافة العباسية في بغداد، وتعرّض القرامطة لقوافل الحجاج، ونكلوا بهم، وأباحوا دماءَهم وأموالهم وقاموا بقتلهم في بيت الله الحرام يوم التروية، ونقلوا الحجر الأسود من مكة المكرمة إلىٰ بلاد الإحساء (المنطقة الشرقية) وهاجموا الكوفة بلد المتنبي أكثر من مرّة وعاثوا فيها فساداً وشاهد شاعرنا ذلك بأم عينه.

ولم يقف الأمر عند ذلك من انحلال الروابط بين الأمصار الإسلامية وضعف الخلفاء، وقيام الثورات الداخلية، بل إن تلك الظواهر المعوقة قد شجعت الروم على أن يغيروا على الثغور وأن ينتقموا لأنفسهم ممّا قد أصابهم من هزائم على أيدي الخلفاء الأقوياء.

إن هذه الحالة التي كانت تعيشها دولة الخلافة العباسيّة والأوضاع السياسية في تلك الفترة حيث التمزّق والتفكّك والضعف تشبه إلى حد بعيد الوضع الحالي الذي يعيش فيه المسلمون هذه الأيام.

إن كل دولة من دول المنطقة العربية تعلم ما يخطّط الاستعمار للسيطرة علىٰ أراضيها وخيراتها والقضاء على الإسلام والمسلمين، وتعلم كل دولة أن إسرائيل ما هي إلا جسر أقامه الكافر المستعمر الغربي لكي يمر عنه للدخول إلى هذه البلاد والسيطرة عليها وتعلم كل دولة عربية أن هدف إسرائيل الاستيلاء علىٰ الأراضي العربية وتكوين دولة إسرائيل الكبرى الممتدة من الفرات إلىٰ النيل ومع هذا تقف هذه الأقطار وقفة المتفرج دون أن تحرك أي دولة من هذه الدول ساكناً وكأن الأمر لا يعنيها، بل علىٰ العكس إنّ كل قطر من هذه الأقطار يحوك المؤامرات ضد القطر الآخر وإسرائيل تتوسّع.

إن الهجمة الشرسة التي يقوم بها الكافر المستعمر هذه الأيام يشبه إلىٰ حد كبير الهجمة الشرسة التي كانت تقوم بها الدولة البيزنطية في القرن الرابع الهجري، إلا أنه في القرن الرابع وجد المسلمون من يذود عن حماهم وعنهم.

إذن كانت الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري مفكّكة الأوصال ضعيفة والأعاجم هم الذين يحكمون ولا همّ لهم إلاّ مصالحهم الشخصية لذلك لم يكن مستغرباً أن تكون تلك الفترة المهتزّة من تاريخ الدولة الإسلامية بمثابة إرهاص لظهور إمارة عربية صحيحة قوية تحفظ التوازن وتحمي الثغور وترد غارات الروم، فلم يمض وقت طويل حتى قامت الدولة الحمدانية التي أخذت على عاتقها صدّ غارات المعتدين ونشر الهلع والرعب في قلوب الروم.

في ضوء هذه الأحداث كلها عاش شاعرنا المتنبي فوعى الأحداث وأثر ذلك كله في نفسه ولذلك وقف يرفع صوته حاثّاً المسلمين أن يضعوا أيديهم في يده من أجل إرجاع الخلافة لتحكم وفق ما أنزل الله وتزيل حكم الأعاجم.

وفي ضوء دراسة عصر المتنبي وما ساده من ثورات وفتن وإمارات متحاربة لا بد لنا من أن ندرس حياة هذا الشاعر.

ثانياً: حياة أبي الطيب (المتنبي)

٣٠٣-٣٥٤هـ

أحمد بن الحسين بن عبد الجابر الجعفي[١].

أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي[٢].

أحمد بن محمد الحسن بن عبد الصمد الجعفي[٣].

هو أبو الطيب الملقب بالمتنبي، الشاعر المشهور، عربي صميم، لأب جعفي نسبة إلىٰ جعفي بن سعد العشيرة من مذحج من كهلان من قحطان، وأم همدانية يمنية.

وجدة المتنبي التي رعته وربته كانت همدانية صحيحة النسب وكانت من صلحاء النساء الكوفيات[٤].

أما أبوه فقد روىٰ الخطيب البغدادي[٥] عن أبي الحسن محمد بن يحيىٰ العلوي الزيدي قال: «كان المتنبي وهو صبيّ ينزل في جواري بالكوفة وكان يُعرف أبوه بعيدان السقّاء يسقي لنا ولأهل الحي».

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١، ص١٢٠.
ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان جـ١ ص١٥٩.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص١٦١.
ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص١٢٠.
الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ٤ ص١٠٢.

(٣) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص١٣.
عبد الغني الملاح: المتنبي يسترد أباه ص١٠.

(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ٤ ص١٠٣.

(٥) المصدر نفسه: تاريخ بغداد جـ٤ ص١٠٢.

أما ابن خلكان[1] فيقول: «يقال إنّ أبا المتنبي كان سقّاء بالكوفة» ويقول البديعي[2]: وكان والده الحسين يعرف بعيدان السقاء.

ويظهر كذلك من أبيات رواها الثعالبي في يتيمة الدهر أنّ أبا المتنبي كان سقّاء، فقد هجاه ابن لنكك البصري[3] حين سمع بقدومه بغداد راجعاً من مصر.

قال ابن لنكك:

لكن بغداد جاءَ الغَيْثَ ساكنُها نعالها في قفا السَّقَّاء يَزْدَحمُ

وقال أيضاً:

متنبيكم ابن سقاء كوفان ويوحي من الكنيف إليه
كان من فيه يسلح الشعر حتى سلحت فقحة الزمان عليه

وقد ذكر بعض خصومه أن والد المتنبي كان سقّاء وأضاف بعضهم أن اسمه (عبدان) وكان لقبه الذي يلقّب به هو (عيدان السقاء).

وفي تاج العروس يقول الزبيدي[4] وعيدان السقاء بالكسر والد الإمام أبي الطيب (أحمد بن الحسين بن عبد الصمد المتنبي الكوفي الشاعر المشهور. وهكذا ضبطه الصاغاني، قال الحافظ وهكذا ضبطه ابن ماكولا.

فإذا دقق الإنسان في الروايات السابقة لم يجد فيها خبراً مجزوماً، لا يجد إلا أقوالاً يصحّ أن يشك فيها الإنسان، ويزيد الإنسان تشكيكاً أن سقاء بالكوفة لا يحظى عادة بوضع ولده في مكاتب الأشراف[5].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص١٢٠.

(٢) يوسف البديعي: الصبح المنبى ص٢٠.

(٣) ابن لنكك: هو أبو الحسن المعروف بابن لنكك البصري الشاعر الأديب، كان فرد البصرة وصدر أدبائها في زمانه، ولكن المتنبي أخمل ذكره، لذلك كثر شعره في هجائه (البديعي: الصبح المنبي ص١٤٤).

(٤) محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس جـ٢ ص٤٤٠ مادة عود.

(٥) أنيس المقدي: أمراء الشعر العربي ص٣٤٩.

وفي خزانة الأدب[1] «اختلف إلىٰ كتّاب فيه أشراف العلويين فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً».

وبعيد أن ينتظم في سلك هؤلاء الأبناء وأبوه سقاء يحمل الماء لأهل الحي القاطن به ورواية ابن خلكان فيها تشكيك حيث يقول: يقال إنّ أبا المتنبي كان سقاء بالكوفة فإذا كان ابن خلكان هو أقرب الناس إلىٰ عهد المتنبي يشك في أن يكون والد المتنبي سقّاء، فما بالك بالروايات التي جاءت متأخرة. ومعروف لنا بأنه كان للمتنبي حساد وأعداء أرادوا أن يجرحوه.

يقول شوقي ضيف[2]: «إن كل ما يقال من أن أباه كان سقّاء يبيع الماء بالكوفة من وضع خصومه ليثبتوا عليه أنه ينحدر من رجل حقير لا شأن له».

وهذا الكلام ينقض نقضاً واضحاً ما أكده الرواة من أنه كان يختلف في صباه إلىٰ كتّاب فيه أولاد أشراف العلويين، وهذا يدل على أن أباه كان يحظىٰ بشيء من متع الحياة، أتاح له ألا يكلف ابنه شيئاً من عنائها، ليفرغ للدرس وليعكف علىٰ التعلم والتثقف باللغة والشعر. فالقول بأن أباه كان سقّاء إنما هو قول بعض حساد المتنبي وشانئيه ليغضّوا من قدره.

وفي تاج العروس[3] قال: وعيدان السقاء بالكسر لقب والد الإمام أبي الطيب. ويبدو أن كلمة «إمام» التي ذكرها الزبيدي ووصف بها الشاعر لم تأت عفواً لأنه من المعلوم أن كلمة إمام لا تطلق جزافاً في قاموس لغوي، أعد في عصر لا يمكن أن يوصف شخص بها ما لم يكن ذا صلة حقيقية بمدلولها.

ولم يعرف عن المتنبي في حياته كلّها أنه كان إماماً لمسجد أو جامع أو إماماً يأتم به الناس عند الصلاة، أو مجتهداً في فقه أو حديث أو تفسير، مما يجعل الإنسان يميل إلىٰ أنّ المتنبي كان من عائلة عريقة النسب وهذا ما أكّده محمود

---

(١) عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب جـ١ ص٣٨٢.

(٢) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده ص٧٥.

(٣) محمد مرتضي الزبيدي: تاج العروس جـ٢ ص٤٤٠ مادة عود.

شاكر[1] نقلاً عن ابن العديم أنّ المتنبي ينتسب إلىٰ العلويين حيث أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله فيقول: «إنّ علاقة المتنبي بالعلويين لم تقتصر على تعلمه في كتّاب فيه أولاد أشراف العلويين بالكوفة، بل ارتفعت علاقته إلىٰ أخوة الرضاع فقد ذكر ابن العديم ٥٨٨-٦٦٠هـ أن المتنبي أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله وأسنده فقال أخبرني صديقنا أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومي مولىٰ الحموي البغدادي قال: رأيت ديوان أبي الطيب المتنبي بخط أبي الحسن علي بن عيسىٰ الربعي قال في أوله الذي أعرفه من نسب أبي الطيب بأنه أحمد بن الحسين.

مولد المتنبي:

يقول عبد القادر البعدادي[2] إن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف بكندة فيها ثلاثة آلاف بيت من بين روّاء ونساج لذلك نرى الباحث محمود شاكر[3] يعلق على هذا الخبر فيقول: ومن هذه الرواية ترى مبالغة عجيبة، أكان جل أهل اليمن النازلين بالجانب الشرقي من الكوفة وهو خير جوانبها، ما بين سقاء ونسّاج، وهذا عجيب أن يكون ذلك كذلك، فإذا كان السقاؤون والنساجون وحدهم قد شغلوا من دور أهل اليمن بالكوفة ثم بمحلة كندة وحدها ثلاثة آلاف دار، فكم شغل من بقي من أهل اليمن من أصحاب الصناعات، ومن لف لفهم من التجار وأصحاب الأرضين، ثم ما يبقى من حي أهل اليمن لرجالات اليمن وأشرافها وفرسانها وعلمائها وشعرائها وأدبائها وهم كثر فهذه المبالغة وجه من وجوه إسقاط هذه الرواية.

ولد أبو الطّيّب سنة ٣٠٣هـ بالكوفة بمحلّة تعرف بكندة، وفي الكوفة نشأ النشأة الأولى وكان يتردّد بين البادية والحضر[4] فاكتسب من الأولىٰ صلابتها ونزعتها البدوية ومن الثانية علومها وثقافتها.

---

(١) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص٢٨.

(٢) عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب جـ١ ص٣٨٢-٣٨٣.

(٣) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص١٨.

(٤) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص١٦١.

وقد ذكر الثعالبي[1] الذي ولد قبل المتنبي بأربع سنوات: أن أباه سلّمه إلىٰ المكاتب وردّده في القبائل فنشأ المتنبي في خير حاضرة. «والكوفة أرض ذات طبيعة جميلة حببت إلىٰ كثير من المسلمين البقاء بها فآثروها علىٰ غيرها، اتخذها أمير المؤمنين على كرم الله وجهه قاعدة أمره.

ولد الشاعر من أسرة شيعية، وتلقىٰ تعليمه الأول بمسقط رأسه الكوفة في كتّاب لأولاد الشيعة العلويين.

لقد عرف تعليم الصبيان في الكتاب منذ فترة مبكرة وانتشرت الكتاتيب من القرن الثاني للهجرة في المدن والقرى حتى أصبح لكل قرية كتّاب أو أكثر، وكانت الكتاتيب ملحقة بالمساجد أو مستقلّة عنها حتى إن أحد الكتاتيب كان يضم ثلاثة آلاف تلميذ»[2].

إن وجود مثل هذه المدارس يتفق إلى حد كبير مع طبيعة الحياة الاجتماعية والحياة المذهبية للكوفة، هذا بالإضافة إلى أن الكوفة كانت مهداً للتشيع.

وقد قامت على هذه المدارس شخصيات أفاض التاريخ في الحديث عنها[3] فمنهم علماء وفقهاء وأدباء.

قلت إن المتنبي ولد في أسرة شيعية علوية وهذه الأسرة وجّهته توجيهاً دينياً خاصاً حين ألحقته بمدرسة أشراف العلويين، فتلقى مبادىء دينية خاصة فرضها وضع هذه المدرسة، وقد كان القرآن الكريم المادة الأساسية في ثقافته وقد تضافرت عوامل متعددة وجهته لدراسة القرآن الكريم فنشأة الشاعر المبكرة في الكوفة هيّأت له هذه العلاقة المبكرة بكتاب الله العظيم، وطبيعة تكوينه الفكري بوصفه شاعراً وهب نفسه لفنّ النظم وجهتـه لتمثل أرقىٰ نمط بلاغي في الأساليب العربية.

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص١٦٢.

(٢) أحمد شلبي: تاريخ التربية في الإسلام ص٤٣.

(٣) بلاشير: أبو الطيب المتنبي ص٤٢-٤٣.

وقد كان اهتمامه بالنحو واللغة العربية دافعاً لحفظ أجزاء كبيرة من القرآن الكريم، كان الشاعر يستند إليها في المناقشات التي دارت بينه وبين من أملىٰ عليهم ديوانه.

ولذلك نراه يستشهد بالقرآن الكريم، وكان من الطبيعي ممّن حفظ القرآن أو أجزاء كثيرة منه أن تتسلل إلىٰ شعره بعض آثار هذا الأطلاع.

فقد تعرّض إلىٰ قصة نوح والطوفان وقصة قميص يوسف:

لو كُنْتَ بَحْراً لم يَكُنْ لك ساحِلٌ ... أو كُنْتَ غَيْثاً ضاق عَنْك اللُّوحُ
وخَشِيتُ مِنْكَ علىٰ البلادِ وأهْلها ... ما كانَ أَنْذَرَ قَوْمَ نُوحٍ نُوحُ[1]

فهذا مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١].

كأنَّ كُلَّ سُؤالٍ في مَسَامِعِه ... قميصُ يوسفَ في أَجْفانِ يعقوبِ[2]

وقال مشيراً إلىٰ النصارىٰ الذين يؤمنون بعقيدة التثليث التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

أرىٰ المُسْلمينَ مَعَ المشركيـ ... ـنَ إمّا لِعَجْزٍ وإمَّا رَهَبْ
وأنتَ مَعَ اللهِ في جَانِبٍ ... قليلُ الرُّقادِ كثيرُ التَّعبْ
كأنَّكَ وَحْدَكَ وَحَّدْتَهُ ... ودان البريّةُ بابن وأبْ[3]

واتخذ من شعره معرضاً لبعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالحدود:

تَعجَّلُ فيَّ وُجُوبُ الحدودِ ... وحدّي قَبْلَ وُجُوبِ السُّجودِ
وكُنْ فارِقاً بين دَعْوىٰ أرَدْتُ ... ودعوىٰ فَعَلْتُ بشأوٍ بعيدِ
فمَا لَكَ تقبلُ زُورَ الكلامِ ... وقَدْرُ الشَّهادةِ قَدْرُ الشُّهودِ[4]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٥٤.
(٢) المصدر نفسه جـ١ ص١٧٢.
(٣) المصدر نفسه جـ١ ص١٠٤.
(٤) المصدر نفسه جـ١ ص٣٤٦-٣٤٧.

والمتنبي شهد كثيراً من المعارك التي نشبت بين المسلمين والروم وهو في حاشية سيف الدولة فوصف الحرب وبرع في هذا الفن براعة تفوّق بها علىٰ الشعراء، حيث كان يقول الشعر متأثراً بما يرىٰ قبل كل شيء ومن هنا نفهم السبب الذي تحسّه حين تقرأ جهادياته، إنك تحسُّ بأنك أمام الجيش الإسلامي المظفر يقوده البطل المقدام ويعلن البشائر بعد كل نصر.

هنيئـاً لأَهْـلِ الثَّغْـرِ رأْيُـكَ فيهِـمُ وأنكَ حِزْبُ اللهِ صِرْتَ لَهُم حِزْبا[1]

بالرغم من كل هذا فإن طه حسين[2] شك في نسب الشاعر ولذلك فهو يقول: وليس من شك عندي في أن المتنبي لمّا تقدمت به السن قليلاً، قد عرف من أمر نفسه، ومن أسرته ما أنكره وما لم يستطع أن يقيم معه في الكوفة فآثر الرحيل.

ويقول طه حسين[3] في مكان آخر: إن مولد المتنبي كان شاذاً، وإنّ المتنبي أدرك هذا الشذوذ، وتأثّر به في سيرته كلّها، ولم يستطع أنْ يلائم بين نفسه الشاذّة، وبيم البيئة الكوفية التي كان يراد له أن يعيش فيها.

من هذا نرىٰ أنّ طه حسين يتّهم المتنبي بأنه ابن غير شرعي فنسب إليه الشذوذ، والشذوذ الذي نسبه طه حسين إلىٰ المتنبي الصبي لا يعدّ شذوذاً بل يُعَدّ امتيازاً وتفوقاً.

يقول شوقي ضيف[4]: «لقد شكّوا في نسب المتنبي لأنه ليس في أشعاره أي إشارة لأبيه وأمه وهذه مقدمة لا تحتّم النتيجة، إذْ يشرك المتنبي في ذلك كثير من الشعراء العباسيين الذين لا يشكّ في نسبهم العربي أمثال البحتريّ حيث إن ديوانه

---

(١) الديوان: جـ١ ص٦٢.

(٢) طه حسين: مع المتنبي ص١٨.

(٣) المرجع نفسه ص٢٥.

(٤) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده ص٧٣.

يخلو من الحديث عن أبيه ويخلو من ذكر أمه، فهل ترتّب علىٰ ذلك أنه كان متّهماً في نسبه».

أخذ المتنبي أكثر علمه من ملازمة الورّاقين فكان علمه من دفاترهم وكان المتنبيّ من المكثرين من نقل اللغة والمطّلعين علىٰ غريبها وحوشيها، ولا يسأل عن شيء إلاّ واستشهد فيه بكلام العرب من النّظم والنّثر حتىٰ قيل: إن الشيخ أبا علي الفارسي[1] صاحب الإيضاح والتكملة قال له يوماً كم لنا من الجموع علىٰ وزن فِعْلى؟ فقال المتنبي: حِجلى وظربى[2].

قال الشيخ أبو علي: طالعت كتب اللغة ثلاث ليال علّي أن أجد لهذين الجمعين ثالث فلم أجد.

ومما يذكر في سرعة جوابه وقوة استحضاره أنه حضر مجلس الوزير ابن حنزابة وفيه أبو علي الآمدي الأديب المشهور فأنشده المتنبي أبياتاً جاء فيها، إنما التهنئات.

فقال أبو علي: التهنئة مصدر والمصدر لا يجمع.

فقال المتنبي لآخر بجنبه: أمسلم هو؟ فقال: سبحان الله هذا أستاذ الجماعة!!

فقال المتنبي: إذا صلّىٰ المسلم وتشهد أليس يقول التحيات.

قال: فخجل أبو علي وقام[3].

---

(١) أبو علي الفارسي: أبو علي علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي، كان من أكابر النحويين، أخذ عن أبي بكر السراج، وأبي إسحاق الزجاج، فضله كثير من النحويين على أبي العباس المبرد، دخل بغداد، خدم الملوك، حظي عند عضد الدولة فكان يقول عضد الدولة أنا غلام أبي علي في النحو، كان متهماً بالاعتزال، أقام بحلب عند سيف الدولة.
المصادر: نزهة الأدباء في طبقات الأدباء ص٣١٥-٣١٧.
الأعلام للزركلي جـ٢ ص١٩٣.
البداية والنهاية جـ١ ص٣٠٦.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص١٢٠.

(٣) ابن حجر العسقلاني. لسان العرب جـ١ ص١٥٩-١٦٠.

كان محباً للعلم فلم يترك باباً من أبواب الكتب إلاّ قرأه كالأدب واللغة والفلسفة والمنطق ولقي الكثير من أكابر العلماء كالزّجّاج، وابن السّرّاج، والأخفش، وابن دريد، وأبو علي الفارسي وابن جنى وغيرهم[١].

وكان أبو الطيب متورّعاً في خلقه لا يخرج عن حدود الوقار، متزمّتاً لا يلين للشهوات، ولا يلقي لها مقادة، مترفّعاً عن سفساف الأخلاق متمسّكاً بمعاليها، أخذ نفسه بالجد الذي لا يفتر وكان لا يقرب التهم ولا يدانيها[٢].

قال علي بن حمزة[٣]: «بلوت من أبي الطيب بثلاث خصال حميدة وتلك أنه ما كذب ولا زنا ولا لاط»[٤].

خالف الأدباء والشعراء من أهل عصره، فما شرب الخمر، ولا حمل وزرها وكان منصرفاً للعلم، قارئاً، محقّقاً لدقائقه، طويل النظر والتدبر فيما يمرّ به من أحداث الزمان، كثير الاهتمام بأمر الأمة التي هو منها، لا يفوته مغمز ينتقده، وخلق يستيقظه وكان أهل العصر علىٰ خلاف له في ذلك، وخاصة من انتسب إلىٰ الأدب.

«إنك حين تتصفّح حياة المتنبي وتدرس أخلاقه وتستقري كبرياءه في شعره وفيما روىٰ عنه فيما كان بينه وبين سيف الدولة وبين كافور أو عضد الدولة وغيرهم من الذين اتصل بهم، لا تجد أثراً للكبرياء التي تحط من قدر صاحبها وتُلحقه بالمغرورين، وإنما تجد عظمة أدبية واعتداداً بالنفس وصوناً لكرامة الأدب والأديب من الصعلكة والمهانة في مجالس الملوك والأمراء فقد عرف المتنبي قيمة رسالته الفنية[٥].

---

(١) أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي ص٣٢٨.

(٢) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص١١٣.

(٣) علي بن حمزة: كان من أئمة العربية مات في رمضان سنة ٣٧٥هـ بصقلية إنما دخل المتنبي في داره وقرأ عليه شعره محمود شاكر ص٣٩ جـ١ المتنبي.

(٤) شاكر المتنبي جـ١ ص١١٤.

(٥) طاهر الطناجي: روز اليوسف ١٥/٨/١٩٣٥.

إنك تقرأ المتنبي فتحس أنه يخاطب كل نفس بأسرارها ويكشف لكل سريرة أخبارها، وكثيراً ما حدثنا عن خلجات كنا نحس بها[١].

أما علي أدهم[٢] فيقول: إن المتنبي أقرب شعراء العربية إلىٰ التمثيل العام لعبقرية الشعر العربي، ولذلك انعقد عليه الإجماع، وعمرت بذكره المجالس وتغنت بأخباره السير.

وهذا عبد الرحمٰن صدقي[٣] يعطي رأيه فيه فيقول: «لقد كان المتنبي في الحقّ أشعر شعراء زمانه وأغزرهم أدباً وأقواهم خلقاً وطبعاً».

حاول المتنبي في أول حياته أن يثور ضد نظام الحكم علّه يحقق أحلامه السياسية، غير أنه أخفق، فقد قضىٰ علىٰ ثورته لؤلؤ والي حمص، وزج في السجن، وظل فيه عامين ثم استتابه الوالي وأطلق سراحه، وفي هذه المرحلة نظم شعره الذي كان يدعو فيه إلىٰ إعادة الحكم العربي الإسلامي من العجم، وفي هذه المرحلة تحدىٰ الأمراء والملوك، وتعرّض لهجائهم فاعتبرهم أرانب لهم جسم البغال وأحلام العصافير.

وَدَهْرٌ ناسُهُ ناسٌ صغارٌ ... وإنْ كانَتْ لَهُم جُثَثٌ ضِخامُ
وما أنا منهمُ بالعيشِ فيهم ... ولكنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغامُ
أرانبُ غيرَ أنَّهمُ ملوكٌ ... مُفَتَّحَةٌ عيونُهم نيامُ[٤]

ويصف ما وصلت إليه الأمة العربية الإسلامية، تحت حكم الأعاجم، لذلك نراه يدعو إلىٰ تعرية الحكام المتسلطين علىٰ مصائر الأمة الإسلامية بالطريق الذي يحقق مصيرهم المنتظر، الطريق الذي يؤكّد ضرورة اجتماع كلمة الأمة وعودة سلطانهم، وإعادة الخلافة العربية الإسلامية وطرد الأعاجم.

---

(١) علي الجارم: روز اليوسف ١٥/٨/١٩٣٥.
(٢) علي أدهم: روز اليوسف ١٥/٨/١٩٣٥.
(٣) عبد الرحمٰن صدقي: روز اليوسف ١٥/٨/١٩٣٥.
(٤) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٧٠.

وإنمـــا النـــاسُ بـــالملـــوك ومـــا تُفْلـــحُ عُـــرْبٌ ملـــوكُهـــا عَجَـــمُ
لا أدبٌ عنـــدهُـــمُ ولا حَسَـــبٌ ولا عهـــودٌ لهُـــمْ ولا ذِمَـــمُ[1]

وكان الشاعر يؤمن بمبدأ القوة منذ صباه وبقي ملازماً له حتىٰ نهاية حياته، بالرغم من بعض التغيرات التي طرأت عليه، لقد وجد المتنبي بلاد الشام مسرحاً لمد وجزر بين الإخشيديّين وبين ولاة الخلافة العباسية وأنصارها من الجنود، فتارة تصبح هذه المدينة أو تلك تابعة للإخشيد وتارة تصبح تابعة للخلافة والناس يفرض عليهم من الخنوع والبؤس والشقاء ما لا يطيقون فيحثهم الشاعر علىٰ الثورة ولكن دون جدوىٰ.

لقد كان أشد ما يغيظه أن يجد المسلمين من حوله متواكلين مستسلمين لحكامهم فأخذ ينفخ فيهم ويحثهم علىٰ ثورة لا تبقىٰ ولا تذر.

أرىٰ أُنـاسـاً ومحصـولـي علـىٰ غَنَـمٍ وذكر جودٍ ومحصولي علىٰ الكَلِمِ
سيصحبُ النَّصلُ مني مثل مضربَه ويَنْجلـي خَبَـري عـن صِمَّـة الصَمَّـمِ
لأتـركـنَّ وجـوهَ الخيـل سـاهمـةً والحربُ أقومُ من ساقٍ علىٰ قدم
شَيْخ يرىٰ الصلواتِ الخمسَ نافِلَةً ويستحـلُّ دمَ الحجّـاجِ فـي الحـرمِ
بكُـلِّ مُنصَلِـتٍ مـا زال مُنْتظـري حتىٰ أدَلْتُ لـه مـن دولـةِ الخـدمِ[2]

واستمر المتنبي باستنهاض المقاتلين ودفعهم إلىٰ محاربة الأعداء الذين استلبوا حقهم، ولذلك فإنك ترىٰ في شعره ملامح تدعو إلىٰ ثورة حقيقية.

ولا تحسبـنَّ المَجْـدَ زِقّـاً وقَيْنَـةً فما المَجْدُ إلا السَّيفُ والفِتكَةُ البَكْرُ
وتضـريـبُ أعنـاقِ الملـوكِ وأنْ تـرىٰ لك الهبواتُ السّودُ والعَسْكَرُ المَجْرُ
ومن ينفق الساعاتِ في جمع مالِهِ مخـافـةَ فَقْـرٍ فـالـذي فَعَـل الفَقْـرُ[3]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٥٩.
(٢) المصدر نفسه جـ٤ ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢.
(٣) المصدر نفسه جـ٢ ١٤٩، ١٥٠.

بعد ذلك أعلن أنه سيطلب حقه وحق المسلمين جميعاً بنفسه:

سأطلب حقّي بالقَنا ومشايخٍ ... كأنُهمُ من طولِ ما التثمُوا مُرْدُ
أذُمُّ إلىٰ هذا الزمان أُهَيْلَهُ ... فاعلمُهمْ فَدْم[1] وأجزمهمَ وغْدُ
وأكرمُهُمْ كَلْبٌ وأبصرُهُمْ عَمٍ ... وأسهَدُهُم فَهْدٌ وأشجعُهُمْ قِرْدُ[2]

بعد هذه المرحلة اتصل الشاعر بسيف الدولة ٣٣٧-٣٤٦هـ وفي هذه المرحلة قال أعظم شعر في الحرب، فلقد سجل كل ما وقعت عليه عينه، لذلك كان شعره في هذا الدور من حياته صورة لوجدانه وآماله وتجسيداً للبطولة المتمثلة في الجماعة المقاتلة.

لقد كان المتنبي في هذا الدور المؤرخ الحقيقي للمعارك التي خاضها سيف الدولة ضد البيزنطيين، فلقد كان الشاعر أشبه ما يكون مراسلاً حربياً حسب لغة اليوم، فالعربية لم تعرف في القديم والحديث كأبي الطيب براعة في تصوير شعر الجهاد.

بقي المتنبي عند سيف الدولة حتىٰ عام ٣٤٦هـ بعدها غادرهُ خلسة نتيجة حسد الحاسدين كأبي فراس الحمداني[3] وابن خالويه[4] الذين غيروا قلب سيف الدولة عليه، واتجه إلىٰ كافور ليمدحه وكان يرجو أن ينال من كافور إمارة أو ولاية ولكنه لم يحصل علىٰ ذلك وبقي عنده حتىٰ عام ٣٥٠هـ عندها فارقه دون

---

(١) الفدم: الغبي من الرجال.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٧٣-٣٧٤.

(٣) أبو فراس الحمداني: الحارث بن سعيد بن حمدان من أسرة بني حمدان وابن عم سيف الدولة وكان فريد عصره في الأدب والكرم والشجاعة قال الصاحب ابن عباد بُدىء الشعر بملك وختم بملك.

(٤) ابن خالويه هو عبد الله بن خالويه النحوي اللغوي من همدان دخل بغداد فأدرك أفاضل العلماء وانتقل إلىٰ الشام واستوطن حلب وصار بها أحد أفراد الدهر في فنون الأدب توفي سنة ٣٧٠هـ.

إذن إلىٰ الكوفة مَسقط رأسه ثم صعد إلىٰ بغداد، فلم يجد الأمور علىٰ ما يشتهي واتفق أن كتب إليه ابن العميد[1] من أرجان يستزيره فذهب إليه ومدحه ثم كتب إليه عضد الدولة بن بويه من شيراز يستزيره فسار إليه ومدحه وفي هذا العام ٣٥٤هـ استأذن المتنبي عضد الدولة لزيارة الكوفة، وفي الطريق عرض له فاتك الأسدي ومعه جماعة وقتله سنة ٣٥٤هـ قرب النعمانية عند دير العاقول.

ويقال إن عضد الدولة دسّ له جماعة لقتله وذلك لأنه قال عندما سأله أحد الناس رأيه في عضد الدولة وعطاياه ومن أفضل هو أم سيف الدولة، فقال: إن سيف الدولة يعطي من طابعه أما عضد الدولة فيعطي تطبعاً.

(١) ابن العميد: الأستاذ الرئيس كاتب المشرق ووزير بني بويه توفي سنة ٣٨٥هـ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

أ ـ ثقافة المتنبي العربية الإسلامية.

ب ـ تنبؤ المتنبي.

جـ ـ القرامطة ـ هل كان المتنبي قرمطياً؟

د ـ اتصال المتنبي ببلاط سيف الدولة الحمداني.

الفصل الثاني

ثقافة المتنبي العربية الإسلامية

قبل أن أخوضَ في البحث في ثقافة المتنبي، أرىٰ مِن الواجب عليّ لأستكمل الموضوع، أنْ أتعرضَ إلىٰ نشأته العلمية، ثم إلىٰ البيئات التي عاش فيها، وما كان لها من تأثير عليه في ثقافته العربية الإسلامية.

نشأة المتنبي العلمية:

إنّ الحديثَ عَنْ ثقافةِ أيّ شاعر أو أديب يحمل الباحث علىٰ تتبع حياة من يدرسه في مختلف مراحلها لكَيْ يلمّ بكافة العوامل التي تضافرت لخلق هذه الثقافة.

لقد تلقّىٰ المتنبي تعليمه الأول بمسقط رأسه الكوفة، يقول البغدادي[1]: «اختلف المتنبي إلىٰ كتّاب فيه أشراف العلويين، فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً، لقد عرف تعليم الصبيان في الكتّاب منذ فترة مبكرة، وأنتشرت الكتاتيب من القرن الثاني الهجري في المدن والقرىٰ، حتىٰ أصبح لكل قرية كتّاب أَوْ أكثر، وكانت الكتاتيب ملحقةً بالمساجد أو مستقلة عنها، ويبدو مدىٰ هذا الازدهار واضحاً حين تعلم أنّ أحد الكتاتيب كان يضم ثلاثة آلاف تلميذ»[2].

يقول يوسف خليف[3]: «إن وجود هذه الكتاتيب يتفق إلىٰ حد كبير مع طبيعة الحياة الاجتماعية والمذهبية للكوفة، فقد ترك النظام القبلي الذي قامت علىٰ أساسه هذه المدينة آثاراً واضحةً في تخطيط المدينة وطبيعة الحياة فيها. إذْ كانت

---

(١) البغدادي، خزانة الأدب جـ١ ص٣٨٢.

(٢) أحمد شلبي: تاريخ التربية في الإسلام ط٢ ص٥٢-٥٣.

(٣) يوسف خليف: حياة الشعر في الكوفة ص٣٢-٤٠.

للقبائل وبطونها أحياء خاصة ومساجد وشوارع وساحات عرفت بأسماء القبائل والبطون.

وكانت الكوفة مهداً للتشيع ومعْقلاً لشيعة علي وأولاده. «أما المادة العلمية التي يمكن أنْ يقدمها هذا الكتّاب بالإضافة إلىٰ تعليم القراءة والكتابة فهي النحو لِكي يحمي المتعلم من مزالق اللحن، والأخبار والأمثال والحساب وكتابة الإنشاء وقراءة كتب البلغاء»[1].

وقد قامت علىٰ هذه المدارس شخصيات أفاض التاريخ في الحديث عنها فمنهم علماء وبلغاء وفقهاء وخطّاطون وأدباء، وقد أحتلّ بعضهم مراكز رفيعة في السياسة والقضاء أمثال أحمد بن سهل البلخي سنة ٣٢٢هـ[2].

إن الكتاتيب أُنشئت لتوجيه الصبيان دينياً وعلمياً، فكان علىٰ الطالب أن يحفظَ القرآن الكريم وأنْ يُلم بالفقه وباللغة والنحو وكان شاعرنا المتنبي ممن حفظوا القرآن الكريم أو حفظوا أجزاء كبيرة منه، ودرس علوم العربية شعراً ولغة وإعراباً.

شيوخ المتنبي:

أجمعَ الرواةُ علىٰ أن المتنبي وُلِد بالكوفة وبها نشأ وتأدب، ولما اشتد ساعده هاجر إلىٰ العلماء ولقي أصحاب المبرد أبي العباس محمد بن يزيد فقرأ علىٰ أكابرهم منهم: أبو إسحاق الزجّاج، وأبو بكر بن السراج، وأبو الحسن الأخفش.

ولقي أصحاب أبي العباس أحمد بن يحيىٰ ثعلب فقرأَ علىٰ أبي موسىٰ الحامض وأبي عمر الزاهد وأبي نصير.

ولقي أصحاب أبي سعيد السّكري فقرأَ علىٰ نفطويه وابن درستويه. ثم لقي خاتم الأدباء وبغية النجباء، عالم عصره، أبا بكر محمد بن دريد فقرأ عليه ولزمه،

---

(١) أحمد شلبي: تاريخ التربية في الإسلام ص٥٦.

(٢) المرجع السابق ص٥٤.

ولقي بعده أكابر أصحابه منهم أبو علي الفارسي وأبو القاسم عمر بن سيف البغدادي وأبو عمران موسىٰ[1]، وقد ناقش عزّام في مؤلفه ما ورد بالرواية السابقة فقال: هذه الرواية عن شيوخ المتنبي تحتمل الصدق في جملتها لا في تفصيلها ومن المرجّح أنَّ المتنبي أخذ عن ابن دريد في آخر حياته، وأما الفارسي فقد التقىٰ به الشاعر في حلب وفي شيراز في بلاط عضد الدولة[2].

ولعل إغفال المصادر ذكر شيوخ المتنبي وأساتذته الذين تتلمذ علىٰ أيديهم المتنبي هي التي دفعت طه حسين إلىٰ القول بأن الشاعر «تعلم علىٰ غير معلم ولم يأخذ ثقافته وأدبه عن الأساتذة والنقاد وإنما أخذها عن الكتب والصحف»[3].

البيئات التي عاش فيها الشاعر:

١ ـ الكوفة:

ولد المتنبي بالكوفة، وتعلّم بكتّابها، وعاش في أرجائها متنقّلاً بين مجالسها المختلفة في المساجد، ودكاكين الوراقين، وفي مَسْقَط رأْسه تفتحت موهبته الشعرية، وذلك لأنها كانت بيئة لغة وشعر وأدب. فنشأ مؤهلاً بحكم ظروف موطنه.

إن ملازمة المتنبي لدكاكين الوراقين مكنته من الاطلاع علىٰ كثير من نوادر المؤلفات، وهَيّأت له سبيل الاتصال بكثير من المثقفين. فلم تكن مهمة دكاكين الوراقين بيع الكتب بل امتدت إلىٰ تهيئة جو علمي يلتقي فيه العلماء فيستفيد منهم، وقد حفلت قائمة أسماء الوراقين، بشخصيات لامعة كابن النديم، وابن كوجك[4].

---

(١) ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام: د. عبد الوهاب عزام ص٤٠-٤١.
المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث: د. محمد عبد الرحمٰن شعيب ص١٥.
ثقافة المتنبي وأثرها في شعره: هدىٰ الأرناؤوطي ص٢٥.

(٢) ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام: د. عبد الوهاب عزام ص٤١.

(٣) مع المتنبي: طه حسين ص١١٣.

(٤) أحمد شلبي: تاريخ التربية في الإسلام ط٤ ص٦٣.

يقول البديعي[1]: إن المتنبي تعلم القراءةَ والكتابةَ وأنه أخذ علمه من ملازمة الوراقين فكان علمه من دفاترهم، قال محمد بن يحيىٰ العلوي: أخبرني ورّاق، قال: ما رَأَيْتُ أحفظ من ابن عيدان، فقلت له: كيف ذلك؟

فقال: كان اليوم عندي ابن عيدان، وقد أحضر رجل كتاباً نحو ثلاثين ورقة ليبيعه، فأخذ ابن عيدان ينظر فيه طويلاً.

فقال له الرجل: يا هذا أُريد بيعه وقد قطعتني عن ذلك! فإنْ كنت تريد حفظه فهذا يكون بعد شهر.

قال له ابن عيدان، فإن كنت حفظته في هذه الفترة فمالي عليك؟

قال: أهب لك الكتاب.

قال: فأخذت الكتاب من يده، فأقبل يتلوه حتىٰ انتهىٰ إلىٰ آخره.

٢ ـ البادية:

نقل البديعي عن أبي الحسن العلوي أنَّ المتنبي[2] «صحب الأعراب في البادية وجاء بعد سنتين بدوياً قحّاً» فرحيله إلىٰ البادية وإقامته فيها لم يكن إلاّ ليلقي الأعراب الخلَّص، ويسمع عنهم، وهذا دليل علىٰ غرامه وحبّه للغة، فرحلته إلىٰ البادية والتطواف بين أرجائها أكسبته ثروةً لغويةً وفصاحةً في التعبير، كانت عدته فيها أهل نفسَه لقول الشعر ومن محاورة أهل العلم والأدب.

٣ ـ حلب:

عاش المتنبي في بلاط الأمير سيف الدولة منذ عام سبعة وثلاثين وثلاثمائة ٣٣٧هـ إلىٰ عام خمسة وأربعين وثلاثمائة ٣٤٥هـ أي ما يقارب ثماني سنوات، كان ينهل فيها من معين الثقافات التي عرفت في هذه البيئة من علمية وأدبية.

---

(١) يوسف البديعي: الصبح المنبي ص٢١.

(٢) الأنباري: نزهة الألباء ص٢٩٥.

وقد استطاع سيف الدولة أن يجذب إليها كوكبة من العلماء والأدباء قلما تراه في بلاط أمير مثله.

لقد كان الأمير سيف الدولة الذي عاش الشاعر في كنفه رجلاً مثقفاً تتلمذ علىٰ ابن خالويه.

كان الأمير يجمع العلماءَ والأدباءَ في مجلسه كلّ ليلة فيتباحثون في شؤون العلم والأدب، وتدور بينهم المناظرات والمساجلات.

قال الخالديان[1]: «إن المتنبي كان كثير الرواية جيد النقد» وقد عاصرا المتنبي واجتمعا به في حلب وفي بلاط سيف الدولة، وتوثيق شهادتهما يأتينا ممثلاً بالمحاورة التالية التي جرت بين المتنبي وسيف الدولة.

استنشد سيف الدولة يوماً المتنبي قصيدته التي أولها:

علىٰ قَدْر أهل العزم تأتي العزائمُ

وكان مُعْجباً بها، كثير الاستعادة لها، فاندفع المتنبي ينشدها فلما بلغ قوله فيها:

وَقَفْتُ وما في الموتِ شَكٌّ لواقِفٍ كأنك في جفْنِ الرّدى وهو نائِمُ
تمرُ بكَ الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً ووجهك وضّاحٌ وثغرك باسِمُ

قال: لقد انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتقد على امرىء القيس بيتاه:

كأني لم أركب جواداً للذّة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزّق الروى ولم أقل لخيلي كرّى كرة بعد أجفال

وبيتاك لم يلتئم شطراهما كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين، وكان ينبغي لامرىء القيس أن يقولَ:

كأني لم أركب جواداً ولم أقُل لخيلي كرى كرة بعد أجفال
ولم أسبأ الزّق الروى للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

(١) مجلة المورد، العدد الثالث، ١٩٧٧ ص٢٥.

فقال المتنبي[1]: «أيّد الله مولانا، إنْ صحّ الذي استدرك علىٰ أمرىء القيس هذا كان أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولاي يعلم أنّ الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك، لأنَّ البزازَ يعرفُ جملته، والحائكُ يعرف جملته وتفاريقه، وإنما قرن امرؤ القيس لذّة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن الشجاعة في منازلة الأعداء بالسماحة في شراء الخمر للأضياف، وأنا لما ذكرت الموت في أولِ البيت اتبعته بذكر الرّدىٰ في آخره ليكون أحسن تلاؤماً، ولما كان وجه الجريح المنهزم عبوساً وعينه باكية قلت: وجهك وضاح وثغرك باسم لأجمع بين الأضداد في المعنىٰ وإنْ لم يتسع اللفظ لجميعها» فدفاع أبي الطيب عن نفسه وعن أمرىء القيس، وردّ تهمة عدم الملائمة بين الشطرين عند كل منهما تستند إلىٰ وعي نقدي عميق بالمعنىٰ الذي تناوله كل منهما وتجاوز عن المقابلة الشكلية التي تتراءىٰ للقارىء غير المتمرس ينقد الشعر أو نظمه والتعمق في معانيه والمسألة قال: «فإن حائك الثوب غير بائعه».

حقاً إنّ المتنبي كان يتمتع بثقافة لغوية واسعة بغريبها ونادرها وهذه الثروة مزية يتمتع بها كبار الشعراء.

ووقع جدال بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه في اللغة، بحضرة سيف الدولة، قال الأمير: ألا تتكلم يا أبا الطيب؟ فتكلم فيها بما قوّىٰ حجة أبي الطيب اللغوي، وضعّف قول ابن خالويه، فأخرج ابن خالويه مفتاحاً حديداً ليكلم به المتنبي، فقال له: اسكت، ويحك، فإنك أعجميّ وأصلك خوزي، فما لك وللعربية؟ فضرب ابن خالويه وجه المتنبي بالمفتاح فأسال دمه علىٰ وجهه وثيابه فغضب المتنبي لذلك ـ إذ لم ينتصر له سيف الدولة قولاً أو فعلاً.

في هذا الوسط عاش شاعرنا، وشارك بشعره وعلمه في هذه النهضة العظيمة، في هذا الوسط كان شاعرنا حريصاً علىٰ إحراز المكانة اللائقة بين خصومه.

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص٢٢.

٤ ـ مصر:

بعد أن رحل المتنبي عن حلب توجه إلىٰ مصر فوجد فيها بلداً ذا حضارة عريقة، نشطت فيها الحياة الفكرية وزخرت بكل ما عرف القرن الرابع الهجري من معارف وآراء.

عاش المتنبي في بلاط كافور الذي جمع إلىٰ دهائه السياسي لماماً باللغة والأدب جعل كافور من مجلسه ندوة تُسمع فيها السير وأخبار الدول ويلتقي فيها الشعراء فيتناشدون الأشعار، ويدور بينهم النقاش في مختلف المسائل، ووجدت هذه المجالس في قصور وزرائه من أفاضل العصر كالوزير جعفر بن الفرات المعروف بابن حَنْزابة الذي عرف بطول باعه في علوم الحديث، وٱمتدت هذه المجالس إلىٰ المساجد في مصر التي ضمّت بين أرجائها حلقات علمية كانت مقصد رواد العلم وطلاب المعرفة في كل مكان.

يقول ابن حجر العسقلاني[1]: «ومما يذكر في سرعة جواب المتنبي وقوة استحضاره أنه حضر مجلس الوزير ابن حنزابة وفيه أبو علي الآمدي الأديب المشهور فأنشده المتنبي أبياتاً جاء فيها التهنئات».

فقال له أبو علي: التهنئة مصدر والمصدر لا يجمع.

فقال المتنبي لآخر بجانبه: أمسلم هو؟

فقال: سبحان الله! هذا أستاذ الجماعة.

فقال المتنبي: إذا صلّىٰ المسلم وتشهد أليس يقول: التحيات؟ قال: فخجل أبو علي وقام.

٥ ـ بغداد:

قصد المتنبي بغداد في صباه لينهل من معين المعارف التي حفلت بها وذلك قبل سنة ٣٢١هـ علىٰ أرجح الأقوال.

---

(١) ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان جـ١ ص١٥٩-١٦٠.

وقد اتصل الشاعر بعلماء بغداد كأبي بكر بن دريد، ونفطويه، وأبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه. ولكن قِصَر المدة التي قضاها الشاعر ببغداد جعلت استفادته قليلة[1].

وبعد مغادرة مصر اتجه المتنبي إلىٰ بغداد مرة ثانية بعد أنْ ذاع صيتُه في الآفاق، ولكن بغداد لم تفتح صدرها للشاعر.

وفي بغداد اجتمع المتنبي بنخبة من علماء العربية كالسيرافي والرماني ومحمد بن جعفر المراغي وعلي بن حمزة، وابن جنى، والأصفهاني والحاتمي ومن الشعراء علي بن محمد بن البقال، وحسين بن أحمد بن الحجاج ومحمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمي[2].

ثقافة المتنبي

كان المتنبي مثقفاً ثقافةً عربيةً إسلاميةً واسعةً بكل ما عُرف لعصره من معارفَ وآراء، فقد اتجه بشعره إلىٰ أن يستوعبَ أساليب هذه المعارف والآراء، وأن يمثل عناصره المتنوعة حتىٰ ينالَ إعجاب العلماء المثقفين لعصره.

إن مصادر ثقافة المتنبي كانت من العلماء والأدباء وحوانيت الوراقين وهي مصادر الثقافة العظمىٰ في ذلك العصر لأنّ بائعي الكتب لم يكونوا مجردَ تجار ينشدون الربح وإنما كانوا في أغلب الأحايين أدباء ذوي ثقافة يسعون للذَّة العقلية من وراء هذه الحرفة التي كانت تتيح لهم القراءة والاطلاع، وتجذب لدكاكينهم العلماء والأدباء[3].

---

(١) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي وأثرها في شعره ص٤٥.

(٢) المرجع نفسه ص٤٥-٤٦.

(٣) أحمد شلبي: تاريخ التربية في الإسلام ص٦٣.

وقد كان المتنبي حريصاً علىٰ قراءة دواوين الشعراء، فقد ذكر أبـو القاسم عبد الله بن عبد الرحمٰن الأصفهاني، أنّه قيل للمتنبي: معنىٰ بيتك هذا، أخذتَه من الطائي، فأجاب المتنبي، الشعر جادة وربما وقع حافر علىٰ حافر[١].

كان المتنبي يحفظ ديوانيْ الطائييْن ويستصحبهما في أسفاره[٢].

إن جمهور المتأدبين يعرف أبا الطيب شاعراً واسع المعرفة باللغة ولكنهم لا يعرفونه إماماً من أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري، يقول الخطيب البغدادي[٣] «طلب العلم وعلم العربية، ونظر في أيام الناس، وتعاطي قول الشعر منذ حداثته حتىٰ بلغ فيه الغاية التي فاق فيها أهل عصره وعلا شعراء وقته».

من هذا نرىٰ أنّ أبا الطيب بلغ من العلم باللغة وغريبها وشواهدها منزلة عظيمة قلّ أن يصل إليها أحد.

يقول البديعي: «كان المتنبي من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين علىٰ غريبها، ولا يُسأل عن شيء إلاّ استشهد بكلام العرب من النظم والنثر حتىٰ قيل إنّ الشيخ أبا علي الفارسي. قال له يوماً: كم لنا من الجموع علىٰ وزن فِعْلىٰ؟ فقال له في الحال: «حِجْلىٰ[٤] وظِرْبى»[٥].

قال الشيخ أبو علي: طالعت كتب اللغة ثلاث ليالٍ علىٰ أن أجد لها ثالثاً فلم أجد[٦].

---

(١) محمد عبد الرحمٰن شعيب المتنبي بين ناقديه ص١٦.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ١ ص١٠٣-١٠٥.
ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص١٠٦.
البغدادي: خزانة الأدب جـ١ ص٣٨٣.
بلاشير: أبو الطيب المتنبي ص٥٥ حاشية رقم ٤.

(٤) حِجْلىٰ: جمع حجلة وهي طائر يسمىٰ القبجة.

(٥) ظِرْبى: دويبة منتنه الرائحة.

(٦) يوسف البديعي: الصبح المنبي ص١٤٣.

وحسبك من يقول مثلُ أبي علي في حقه ذلك.

قال الخالديان: «كان أبو الطيب كثير الرواية جيد النقد[1]، وكان من المكثرين في نقل اللغة والمطلَّعين علىٰ غريبها».

كان أبو الطيب شغوفاً بالقراءة والاطلاع، وقد وجه لعلوم النحو واللغة اهتماماً كبيراً وهذا مما جعله إماماً من أئمة اللغة مما حدا ابن خلكان أن يقول: «بأنه كان من المكثرين من نقل اللغة»[2].

كما أن علي بن حمزة راوية المتنبي أشار إلىٰ اطّلاع الشاعر علىٰ كتاب المنقوص والممدود لابن ولاّد. وقد قرىء هذا الكتاب علىٰ الشاعر في مصر سنة ٣٤٧هـ وله عليه «ملاحظاته[3]»، وذكر ابن الدّهان فقال: إنّ المتنبي كان يحفظ كتاب الحدود في النحو للفراء[4].

لقد حَظيت الدراسات اللغوية والنحوية باهتمام كبير في البيئات التي عاش فيها المتنبي والتي سبق أن تحدثنا عنها.

فقد التقىٰ شاعرُنا بأعلام اللغة كابن خالويه، والتقىٰ أبا علي الفارسي في الشام وعند عضد الدولة، كما التقىٰ ابن جنّي وقرأ ديوانه عليه، أما علي بن حمزة فقد كان راوية شعره.

أما ثقافة المتنبي الدينية فقد عاش شاعرُنا في الكوفة مسقط رأسه، ومصدر التشيع لآل علي وأولاده، ودخل كتّاباً فيه أشراف أبناء العلويين وهناك درس اللغة والنحو والشعر، وقد تضافرت عواملُ متعددة وجَّهته لدراسة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف والفقه والتصوف.

---

(١) مجلة المورد، العدد الثالث ١٩٧٧ ص٢٥.

(٢) عبد الوهاب العزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٢٢٥.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص١٠٤.

(٤) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي في شعره ص٥٧.

إن نشأة الشاعر الدينية بالكوفة هيأت له علاقة مبكرة بكتاب الله، وطبيعة تكوينه الفكري بوصفه شاعراً وهب نفسه لقرض الشعر وجَّهتْه ليمثل أرقىٰ نمط بلاغي في الأساليب العربية.

وقد كان اهتمام المتنبي بالنحو واللغة دافعاً لحفظ القرآن الكريم، أو أجزاءً كبيرةً منه، كان الشاعر يستند إليها في المناقشات التي دارت بينه وبين من أملىٰ عليهم ديوانَه.

إن شاعرنا ذو ثقافةٍ عربيةٍ إسلاميةٍ واسعة، وكان محباً للعلم فلم يترك باباً من أبواب الكتب إلا قرأه كاللغة والأدب والفلسفة والمنطق.

ثقافة المتنبي اللغوية:

لقد كانت ثقافة أبي الطيب المتنبي اللغوية واسعةً وإليك بعضَ الأمثلة التي تثبت ذلك، فقد انتُقد المتنبي لقوله:

أُحَادٌ أمْ سُداسٌ في أُحَادِ لُيَيْلَتُنا المنوطةُ بالتّنادِ[1]

قال أبو الطيب: يقال أُحاد وثُناء وثُلاث ورُباع إلىٰ عُشار في المذكر والمؤنث غير المصروف، والفراء يصرفها، إذ جعلها نكرات، وكل ما لا يتصرّف من الأسماء يصرف في الشعر، لأنَّ الصرف الأصل، وهذا الذي نسب إليه في العدد، فيقال ثنائي وثلاثي ورباعي وخماسي إلىٰ عشاري[2].

قال أبو النجم:

فوق الخماسي قليلاً يفضله أدرك عقلاً والرهان عليه

وأنشد:

ضربت خماس ضربة عَبْشَمي أدارَ سُداسَ إلاّ يستقيما

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٥٣.

(٢) عبد الوهاب عزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٢٢٦.

وقد احتج الشاعر لاستعماله «سُداس» بقوله: إنّه قد جاء عن العرب خُماسَ وسُداسَ إلىٰ عَشار. ذكره أبو حاتم في كتاب الإبل، وقد زعم أبو عبيدة في المجاز أنّه لا يعلمهم قالوا فوق «رباع» وقال: كان أبو حاتم تبِعَ أبا عبيد في قوله في كتاب المذكر والمؤنث، ورباع رباع ولا نعلمهم قالوا فوق ذلك... ثم رجع عنه فقال في كتاب الإبل ورباع إلىٰ العشرة[1].

قال أبو الطيب: وأما لُيَيْلَتُنا فتصغير تعظيم[2].

لقد كان المتنبي يستعين لإيضاح المعنىٰ، بحصيلته اللغوية الوفيرة فيذكر للّفظ عدة مترادفات كقوله:

يهابُهُ أَبْسَأُ الرِّجال به وتَتّقي حدَّ سيْفِهِ البُهَمُ[3]

بسئت به: أي أنست به، وكذلك بسأت وبهأت. وأنشد:

فقد بهأت بالجاهلات إخالها وسيفٍ كريمٍ ما يزالُ يصوعُها[4]

ثم قال:

يصوغُ عنوقَها أحوىٰ زنيم له ظاب كما صَخِبَ الغريمُ[5]

فقد أورد الشاعر مرادفاً للفظ الذي أورده في بيته وعزّز رأيه بشاهد شعري وعندما لمح في الشاهد لفظاً قد يُبْهم المعنىٰ معه قام بشرحه.

وفي شرح البيت التالي:

إذا عَرَضَتْ حاجٌ إليه فنفسُهُ إلىٰ نَفْسِه فيها شفيعٌ مُشَفَّعُ[6]

---

(١) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي في شعره ص٥٨.

(٢) عزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٢٢٦.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٦٠.

(٤) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي في شعره ص٦٤.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢٤٣.

قال أبو الطيب يقال حاجة وحاج وحاجات وحوج وعلىٰ غير القياس حوائج. وتقول العرب في نفسي منه حوجاء إلىٰ حاجة وأنشد:

ألا ليتَ سوقاً بالكُنانة لم يَكُنْ إليها لحاج المسلمين طريق

وقال آخر:

لقد طال ما ثبطتني عن صحابتي وعن حِوَج قِضّاؤها من شفائيا

وأنشد لامرىء القيس: لنقضي حاجات الفؤاد المعذب.

وأنشد الفراء:

نهار المرء أمثلُ حين يقضي حوائجَه من الليل الطويل

وزعم الأصمعي أنّ حوائج مولده. قال أبو الطيب: «وهي كثيرة علىٰ ألسن العرب خرجت عن القياس». قال علي بن حمزة وأنشدني أبو الطيب للشماخ:

تقطّع بيننا الحاجات إلا حوائجَ يعتسفن مع الجرى

قال حوائج جمع حائجة علىٰ القياس وهو صحيح[1].

وحين سُئل عن ضبط لفظتي الحضارة والبداوة في قوله:

حُسْنُ الحضارةِ مَجْلوبٌ بِتطْرِيَةٍ وفي البَداوَةِ حُسْنٌ غيرُ مجلوبِ[2]

ذكر رأي الأصمعي وأبي زيد قال أبو زيد البَداوة والحضارة وسمع الحضارة والبداوة من العرب وأنشد الأصمعي:

فمن تكن الحضارة أعْجبتْه فأيُّ رجالِ باديةٍ ترانا[3]

وهذا مما يدل علىٰ سعة اطلاع الشاعر واستقصائه لأقوال العلماء وقد يستشهد ببعض القراءات القرآنية كما قال في تسويغ حذفه لتنوين «علي» في بيته.

---

(١) عبد الوهاب عزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٢٢٧.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص١٦٨.

(٣) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي في شعره ص٧٠.

في رُتْبةٍ حَجَبَ الوَرَىٰ عن نَيْلِها وعلا فَسَمَّوْهُ عليَّ الحاجِبَا[1]

تبع في ذلك قراءة من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

ويورد في بعض الأحيان شواهدَ من الحديث الشريف مثل ما ذكر في قوله:

إذا عذلوا فيها أَجبْتُ بأنَّةٍ حُبِّبتا قلباً فؤاداً هيا جُمْلُ[2]

فقد أجاب حين سئل عن تصغير «حبيبة» بأنّه صغرها للتقريب كقول النبي ﷺ: «قدّموا أصحابي أصَيْحابي»[3].

وهذه بعض الأمثلة التي تدلّ علىٰ سَعة ثقافة الشاعر اللغوية وفيها يظهر لنا أنّه كان حقاً إماماً من أئمة اللغة لا يسأل عن شيء إلا واستشهد به بكلام العرب من النظم أو النثر أو القرآن أو الحديث.

ثقافة المتنبي الأدبية:

إن ثقافة الشاعر الأدبية هي حصيلةُ الشاعر من التراث الشعري الذي تناهىٰ إليه عبر القرون، وهذا الجانب أكثر أهميةً من غيره، إذْ ليس لشاعر غِنىً عنه.

لم يكن المتنبي ليغفل عن أهمية التراث الأدبي في حياة أي شاعر، ومن ثم فقد أشار المتنبي إلىٰ بعض الجوانب المهمة في عملية الإبداع الفني، أي دور الخيال في عملية النظم، ومدىٰ استفادته مما حفظه ليستمد منه الصور والمعاني التي يوردها في شعره، ومن الأمثلة علىٰ ثقافته الأدبية الواسعة قوله:

تَركْتَ جماجِمَهُم في النّقا وما يتخلّصْن للنّاخِلِ[4]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص١٢٨.

(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٨٢.

(٣) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي في شعره ص٧١.

(٤) النقا: الكثيب من الرمل.

الناخل: من نخل ينخلُ أي تركت جماجم أصحاب الخارجي وقد فارقت أجسامها في الرّمل أوقعت بها من الضرب حتىٰ اختلطت بالرّمل فلم يتخلص لناخلها.

العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣١.

فقد قدّم الشاعر في هذا البيت صورةً لجماجم القتلىٰ التي تركها الممدوح في أرض المعركة وقد اختلطت أجزاؤها في الرمال لوقع حوافر خيله القوية عليها حتىٰ لو نخل الرمل الذي قتلتهم به فلم يحصل من رؤوسهم شيء لشدة اختلاطها بأرض المعركة.

لقد وصف المتنبي كثرة القتلىٰ واختلاط أجسادهم بأحجارها في قصيدة أخرىٰ قال فيها:

أحْجارُ ناسٍ فَوْقَ أرضٍ مِنْ دَمٍ ونجومُ بَيْضٍ[1] في سماءِ قَتام[2]

أي مكان الحجارة ناس قتلىٰ فوق تلك الأرض، والأرض دماء، وصارت البيضُ نجوماً لامعة في سماء من الغبار.

تقول هدىٰ الأرناؤوطي[3] إنّ قول المتنبي (أحجارُ ناسٍ فوقَ أرضٍ من دمٍ) استمد هذا التشبيه من قول البحتري:

نثرت علىٰ الخليج الهام حتّىٰ كأنّ حصا الخليج طلىٰ وهامُ[4]

قال المتنبي:

أغركمُ طولُ الجيوشِ وعرضُها! عليٌّ شروبٌ للجيوش أكولُ
إذا لم تَكُنْ لليْثِ إلا فريسةً غذاهُ ولم يَنْفَعْكَ أنكَ فيلُ[5]

أي إن سيف الدولة يُقبل علىٰ الجيوش مهما عظمت كما يقبل علىٰ طعامه وشرابه مثله في ذلك كمثل الفيل مع الأسد، إذ إنّ ضخامة الفيل وعظم خلقه لا تحول دون فتك الأسد به.

---

(١) البيض: المغافر.
(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٣.
(٣) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي في شعره ص١١٩.
(٤) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٠٧.
(٥) المصدر السابق.

تقول الأرناؤوطي[1]: «ذكر الأكل والشرب علىٰ سبيل الاستعارة سيراً علىٰ هدي أبي تمام في قوله:

في مكر للروع كنت أكيلا للمنايا في ظله وشريبا

عاش الشاعر في بلاط الحمدانيين، وكان شعره معبراً عن آمال سيف الدولة وأمانيه، ومهللاً لانتصارات ذلك الأمير، وبالرغم من أن الحمدانيين شيعة إلاّ أن صوت الشعر الشيعي خافت مثل قوله:

نَصَرْتَ علياً يا ابنه ببواتِرٍ من الفِعْل لا فَلّ لها من المضارِبِ
وأبْهرُ آياتِ التّهاميِّ أنَّهُ أبوكَ وأجدىٰ ما لَكُمْ مِنْ مَناقِبِ[2]

أي مدح العلويين بانتسابهم إلىٰ الرسول ﷺ، وقد ذكر أبناء فاطمة رضي الله عنها:

كَذَا الفاطميُّونَ النَّدىٰ في بَنانِهِمْ أعزُّ امّحاءً مِن خُطوطِ الرّواجِبِ[3]

القرآن الكريم:

لقد استشهد شاعرنا بالقرآن في شرحه لبعض المفردات التي أوردها في شعره واحتج ببعض الآيات في ملاحظاته النقدية التي وجهها الشعر غيره مثل قوله في بيت الأعشىٰ:

وهل تنكر الشمسُ شمسُ النُّها والقمرُ الواضحُ الأبرصُ

إذ عاب علىٰ الأعشىٰ لفظَ الأبرص قائلاً: لو كانت لفظة الأبرص في كتاب الله لكدّرت شرب بلاغته. ولما أراد الله تعالىٰ كنىٰ عنه بقوله: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢].

وقال مشيراً إلىٰ ادعاء النبوة الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

---

(١) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي في شعره ص١٢٥.
(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص١٥٤.
(٣) المصدر نفسه جـ١ ص١٥٢.

أرىٰ المسلميـــنَ مـــع المشـــركيـ ـــنَ إمّـــا لعَجْـــزٍ وإمـــا رَهَـــبْ
وأنـــتَ مـــعَ اللهِ فـــي جـــانـــبٍ قليـــلُ الـــرقـــادِ كثيـــرُ التَّعَـــبْ
كـــأنـــكَ وحـــدَكَ وحَّـــدْتَـــهُ ودانَ البـــريـــةُ بـــابْـــنٍ وأَبْ[1]

التصوف:

عاصر المتنبي فترة مزدهرة من تاريخ التصوف الإسلامي في أوائل القرن الرابع الهجري حيث انتشرت الصوفية في أنحاء العالم الإسلامي وانتظموا طوائف وجماعات وأصبح لهم مريدون وأنصار واستطاع كثير منهم التعبير عن تأملاتهم ومواجيدهم في أشعارهم التي تعد من دواعي ازدهار التصوف وانتشاره.

لقد كان للتصوّف أثرٌ في شعْر المتنبي، ولدىٰ قراءة الإنسان لديوان الشاعر يجد أنّ ديوانه يَسْتَوْعِبُ حيّزاً واسعاً من خواطره وأفكاره. اقرأ هذه الأبيات التي يقولها في بعض ممدوحيه:

ذا السِّـراجُ المنيـرُ هـذا النّقِـيُّ الجـ ـيْـــبِ هـــذا بقيـــةُ الأبْـــدالِ[2]
فخُـذا مـاءَ رِجْلِـهِ وانْضحـا فـي الـ ـمُـدْنِ تـأمَـنْ بـوائِـقَ الـزَّلْـزالِ
وامسحـا ثـوبَـهُ البقيـرَ علـىٰ دا ئِكُمـا تُشْفَيـا مـن الأعـلال[3]

عند قراءة الأبيات السابقة تحس بأنَّك أمام شاعرٍ صوفي، يصوغ معانيه صياغةً صوفية، فهو يمدح صاحبه كما تمدح الصوفية أقطابهم فيجعلَ بقية الأبدال وهم من أوْلياءِ الصوفيةِ المصطَفين، ومن الكرامات التي أضْفاها عليه بركته التي

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص١٠٤.

(٢) النقي الجيب: الطاهر من العيب.
الأبدال: العُبّاد وسموا أبدالاً لأنهم أبدال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقيل: إذا مات أحدهم أبدل الله مكانه آخر، منهم لا ينقصون حتىٰ تقوم الساعة وعددهم ٤٠ رجلاً.

(٣) البقير: ثوب لا كم له.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٩٦-١٩٧.

تمنع الخراب والدّمار الذي يحدثه الزلزال، ومعالجته المرضىٰ بمس ثوبه الطاهر المبارك، وعلىٰ هذا النمط الصوفي تراه يذكر الخضر:

إذا ما ذَكَرْنا جُودَه كان حاضراً نأىٰ أو دنا يسعىٰ علىٰ قَدَمِ الخِضْرِ[1]

يقول شوقي ضيف[2]: «إن المتنبي كان ينزع بشعره منزعاً صوفياً يحاولُ به أن يجدّدَ في فنّه ولكنه تجديدٌ غريب».

تجلّىٰ لنا فأَضأْنا به كأنّا نجومٌ لقينا سُعودا[3]

فهو يصنع فكرة التّجلّي التي يُؤمنُ بها الصوفية، وإذا استعرضنا مصطلحات الصوفية التي تسربت إلىٰ أسلوبِ المتنبي ترىٰ فيها:

١ ـ مصطلح الكشف:

ولمّا فَقَدْنا مِثْلَهُ دامَ كَشْفُنا عليه فدامَ الفَقْدُ وانكشَفَ الكَشْفُ[4]

٢ ـ مصطلح الحال:

ولكن تفوقُ النّاسَ رأياً وحكمةً كما فُقْتَهُمُ حالاً ونَفْساً ومَحْتِدا[5]

٣ ـ مصطلح اليقين:

نَفَتِ التَّوهمَ عَنه حِدّةُ ذِهْنِهِ فَقَضىٰ علىٰ غيْبِ الأمور تيقُّنا[6]

الفقه:

يُعَدُّ الفقه من آثار الثقافة الدينية التي ظهرت في شعر الشاعر حيث اتخذ المتنبي من شعره معرضاً لبعض الأحكام الفقهية، وقد ظهر ذلك عليه مبكراً.

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ ٢ ص١٣٧.
(٢) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه ص٣١٤.
(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٦٦.
(٤) المصدر نفسه جـ٢ ص٢٨٧.
(٥) المصدر نفسه جـ١ ص٢٨٩.
(٦) المصدر نفسه جـ٤ ص١٩٩.

قال أبو الطيب:

أيـــا خـــدّدَ الله وَرْدَ الخُـــدودِ وقـــدَّ قـــدودَ الحِســـانِ القُـــدودِ
تَعَجَّـــلُ فـــيَّ وُجُـــوبُ الحُـــدُودِ وحَـــدّي قَبْـــل وُجُـــوبِ السُّجـــودِ
فمـــا لَـــكَ تَقْبَـــلُ زُورَ الكـــلامِ وقَـــدْرُ الشَّهـــادَةِ قَـــدْرُ الشُّهـــودِ
فـــلا تَسْمَعَـــنَّ مِـــنَ الكـــاشِحيـــنَ ولا تَعْبَـــأَنَّ بِمَحْـــكِ اليَهُـــودِ
وكُـــنْ فـــارِقـــاً بيـــنَ دَعْـــوىٰ أرَدْتُ ودَعْـــوىٰ فَعَلْـــتُ بِشَـــأْوٍ بعَيـــدِ[1]

ومن أقواله التي يبدو فيها الأثر الفقهي واضحاً قوله:

وزارَكَ بـــي دونَ الملـــوكِ تحـــرّجـــي إذا عَنَّ بحرٌ لم يُجز لي التيممُ[2]

ثقافة المتنبي الفلسفية:

تضافرت عدة عوامل هيأت للمتنبي ثمار الفلسفة التي نضجت في القرن الرابع الهجري منذ نشأته بمدينة الكوفة، حيث زخرت المساجد بألوان الجدل بين مختلف الفرق الإسلامية، وقد التقىٰ الشاعر بأحد أعلام الفلسفة البارزين أبي نصر الفارابي، الذي عاش في كنف الأمير سيف الدولة الحمداني أثناء وجود الشاعر بحلب ووجود مثل هذه الشخصية في بلاط سيف الدولة، أضفت علىٰ مجالسها شيئاً من ألوان الجَدل الفلسفي.

يقول شوقي ضيف[3]: «لقد نقل المتنبي كثيراً من الأفكار والعبادات الفلسفية إلىٰ الشعراء ولكنه لم يحولها عن حقيقتها، ولعل أول ما يقابلنا عن ذلك حكمه الكثيرة التي شاعت في شعره وعرف بها عند القدماء والمحدثين»، ويقول شوقي ضيف[4] أيضاً: «من يقرأ في ديوان المتنبي يحس إحساساً واضحاً بأن الشعر كان

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٤١-٣٤٧.
(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص٩١.
(٣) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر الحديث ص٣٢٤.
(٤) المرجع نفسه ص٣٢٦.

يعتمد عنده علىٰ العقل المتفلسف والصياغة الفلسفية» ومن الأمثلة علىٰ ذلك ما قاله في مسألة فلسفية تتعلق بأصل الإنسان.

نحن بنو الموتىٰ فما بالُنا نَعافُ ما لا بُدّ مِنْ شُرْبِهِ
تَبْخَلُ أيدينا بأرواحِنا علىٰ زمانٍ هيَ من كَسْبه
فهذه الأرواحُ من جوِّه وهذه الأجسامُ من تُرْبه[1]

ونظراً لسعة ثقافته الفلسفية انظر إليه كيف يحتال ٱحتيالاً شديداً علىٰ شارات التعبير الفلسفي وسماته يدخلها في نماذجه الشعرية.

الجيشُ جَيْشُك غير أنكَ جيشُهُ في قَلْبِهِ ويمينهِ وشمالِهِ[2]

وقوله:

فتىً يشتهي طولَ البلادِ ووَقْتُهُ تضيقُ به أوقاتُهُ والمقاصِدُ[3]

أمّا ثقافته بتاريخ الجاهلية والإسلام فكانت واسعةً أيضاً، اسمعه كيف يبيّنُ عواقب الشقاق.

وإذا كان في الأنابيبِ خُلْفٌ وقع الطيشُ في صُدورِ الصِّعادِ[4]

جعل الأنابيب مثلاً للأتباع والصدور مثلاً للرؤساء.

يقول: إذا اختلفت الخدم جرىٰ بين السادة التنازع والتحارب كالرماح إذا اختلفت أنابيبها لم تستقم صدورها.

أشْمَتَ الخلفُ بالشُّراةِ عِداها وشفىٰ ربَّ فارسٍ من إيادِ[5]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢١١-٢١٢
(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص٦٤.
(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٢٧٥.
(٤) المصدر نفسه ٢/ ٣٤.
(٥) الشراة: الخوارج.
ربّ فارس: سابور ذو الأكتاف.

وتولىٰ بني البريديّ بالبصرةِ حتىٰ تمزقُوا في البلادِ
وملوكاً كأمْسِ في القرب منّا وكَطَسْمٍ وأُخْتِها في البعاد[1]

فتراه يذكر في الأبيات السابقة انقسام الخوارج ووقعة ملك الفرس وقبيلة إياد وما أصاب بني البريديّ وطسم وأختها جديس.

ولم يفت المتنبي أنْ يشير إلىٰ بعض المعتقدات التي عرفها العرب أو مَنْ اتصل بهم من الأمم كالفرس والهنود، وقد أشار إليهم القرآن الكريم بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

وإلىٰ هذه الديانة أشارَ المتنبي في قصيدة مدح بها سيف الدولة:

وكيف تُقَصِّرُ عن غايةٍ وأمُّكَ مِنْ لَيْثِها مُشْبِلُ[2]
وقد ولَدَتْكَ فقال الورىٰ ألَمْ تكُنِ الشَّمْسُ لا تَنْجُلُ[3]
فَتَبًّا[4] لدين عبيدِ النجومِ ومَنْ يدَّعي أنَّها تَعْقِلُ
وقد عَرَفَتْكَ فما بالُها تراكَ تَراها فلا تنْزلُ
ولو بِتُّما عند قدرَيْكُما لَبِتُّ وأعلاكُما الأسْفَلُ[5]

وقال مشيراً إلىٰ خلود النّجوم في مُعْتَقَد الصابئة:

وقد زعمُوا أنّ النُّجومَ خوالدٌ ولو حارَبَتْهُ ناحَ فيها الثَّواكلُ[6]

وذكَرَ عبادةَ المجوسِ للنّار:

---

(١) طسم وأختها: قبيلتان من عاد.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٣٤.
(٢) مشبل: الأنثىٰ من السباع.
(٣) النجل: النسل.
(٤) التب: الهلاك.
(٥) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٧٢-٧٣.
(٦) المصدر نفسه جـ٣ ص١١٩.

أو كـــان للنِّيـــران ضـــوْءُ جبينِـــهِ عُبِدَتْ، فصارَ العالمونَ مجوساً[1]

كذلك أشار إلىٰ إباحة المجوس للزواج بالبنات والأخوات.

لِهـوىٰ النُّفـوس سـريـرةٌ لا تُعْلَـمُ عَـرَضـاً نَظـرْتُ وخِلْـتُ أنـي أسْلَـمُ
يا أُخْتَ مُعْتَنِقِ الفوارسِ في الوغىٰ لأخـوكِ ثَـمَّ أرقُّ مِنْـكِ وأَرْحَـمُ
يـرنـو إليْـكِ مـع العَفـافِ وعنـدَهُ أنّ المجوسَ تُصيبُ فيما تحكُمُ[2]

ونتيجة لثقافته الواسعة أيضاً كان مُلِماً ببعض آراء السوفسطائية مثل:

هـوّنْ علـىٰ بصـرٍ مـا شـقَّ منظـرهُ فـإنّمـا يقظـاتُ العيـنِ كـالحُلُـمِ[3]

وكان علىٰ معرفة بآراءِ الدهريين:

وكـمْ لظـلام اللّيْـلِ عنـدك مِـنْ يـدٍ تُخَبّـرُ أنَّ المـانـويـةَ تكـذبُ[4]

وأشار إلىٰ مذهب القائلين بتناسخ الأرواح:

تمتـــعْ مِـــنْ سهـــادٍ أو رُقـــادٍ ولا تـأمُـلْ كـرىً تحـتَ الـرِّجـام
فـإنَّ لثـالـث الحـاليْـنِ معنـىً سـوىٰ مَعْنـىٰ انتبـاهِـكَ والمنـام[5]

من هذا كله ندرك أنّ المتنبي كان علىٰ ثقافة عربيةٍ إسلاميةٍ واسعةٍ وكان علىٰ ثقافة واسعة بالأديان الأخرىٰ.

روىٰ البديعي أنّه كان يطالع الكتب كل ليلة قبل أنْ يهجعَ، كما أنّه كان يحمل كتبه معه في أسْفاره ويحرص عليها وكان قد حلّها قراءة وتصحيحاً.

وقد أعرب عن شغفه بالقراءة وأنسه بالكتب في قوله:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنىٰ سَرْجُ سابحٍ وخَيْرُ جليسٍ في الزَّمـان كتـابُ[6]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص١٩٩.
(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص١٢١-١٢٢.
(٣) المصدر نفسه جـ٤ ص١٦٢.
(٤) المصدر نفسه جـ١ ص١٧٨.
(٥) المصدر نفسه جـ٤ ص١٤٩.
(٦) المصدر نفسه جـ١ ص١٩٣.

تنبؤ المتنبي

غادر المتنبي الكوفة إلىٰ بغداد، ثم خرج لوقته ميمّماً وجهه شطر الشام، فنزل بدمشق وأعمالها وما يدانيها، بعلبك/ طرابس/ حمص، ثم كره الأرض التي نزلها، ثم صَعَّد سنته إلىٰ منبج وحلب واللاذقية وأنطاكية ثم اعتقل بحمص سنة ٣٢١هـ، لمّا قالوا به من ادعائه العلوية ثم النّبوّة ثم العلوية.

إن القول الذي لا يتطرّق إليه الشك، أنّ المتنبي سيق إلىٰ السجن، وأحاطت به جدرانه وذاق فيه ما يذوقه أمثاله من المضاضة والذّل والتعب والجوع والحرمان.

إن كثيراً من المؤرخين يؤوّلون ذلك السجن تأويلاً، فهم يزعمون أن أحمد أبا الطيب حينما شعر بالتفاف أعراب البادية حوله، وإقبالهم عليه، أراد لنفسه تمكّناً في قلوبهم وسلطاناً أوسع، وجاهاً أعلىٰ فادّعىٰ النبوة، وظاهرة ادّعاء النّبوّة حيّرت القدماء والمحدثين واستسهل البعض بسببها قبول ادّعاء المتنبي النّبوّة وقد تصفحت كثيراً من كتب من كتبوا عنه فوجدت أنهم ينتسبون إلىٰ عدة فئات.

أولاً: موقف القدماء:

الفئة **الأولىٰ**: هذه الفئة قبلت ادّعاء النّبوّة كالبغدادي[١] وابن خلّكان[٢] والسمعاني[٣] والبديعي[٤] والخطيب البغدادي[٥] وغيرهم.

الفئة الثانية: وهذه فئة متحفّظة لم تستبعدها كالثعالبي[٦] الذي ذكر أمر تنبّئه كرواية لا يتحمل مسؤوليتها، وأورد قصة خروجه طمعاً في السلطان.

---

(١) البغدادي: خزانة الأدب ص٣٨٢.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ص١٢٢.
(٣) السمعاني: الأنساب ص١٠٦.
(٤) البديعي: الصبح المنبي ص٥٢-٥٥.
(٥) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ٤ ص١٠٢-١٠٥.
(٦) الثعالبي: يتيمة الدهر ص١٦١.

الفئة الثالثة: وهي فئة معارضة تنكر علىٰ المتنبي أمر تنبئه ومنهم المعرّي[١].

ثانياً: موقف المحدثين:

الفئة الأولىٰ: وهذه الفئة قبلت ادّعاء النّبوّة ومن أعلام هذه الفئة سعيد الأفغاني[٢].

الفئة الثانية: وهي فئة متحفظة، ومن أعلام هذه الفئة العقاد[٣].

الفئة الثالثة: وهي فئة معارضة تنكر علىٰ أبي الطيب أنّه ادّعىٰ النبوة ومن أعلام هذه الفئة طه حسين[٤]، محمود شاكر[٥]، عبد الوهاب عزام[٦]، محمد عبد الرحمٰن شعيب[٧]، عبد الغني الملاح[٨]، هادي نهر[٩] وغيرهم.

ثالثاً: موقف المستشرقين:

إن المستشرقين أمثال بلاشير[١٠]، بروكلمان[١١] وماسينيون[١٢] ينكرون ادّعاء المتنبي للنّبوّة وينسبون إليه القرمطة.

أما الجناية التي سجن من أجلها شاعرنا فيخالف فيها شاعرنا رواة سيرته ويختلف الرواة فيما بينهم.

---

(١) أبو العلاء المعري: رسالة الغفران ص٢٨١-٢٨٩.
(٢) سعيد الأفغاني: مجلة الرسالة.
(٣) العقاد: مطالعات في الكتب والحياة ص١٧٤-١٧٥.
(٤) طه حسين: مع المتنبي ص٩٩.
(٥) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص٧٨-٩٢.
(٦) عبد الوهاب عزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٥-٦.
(٧) محمد عبد الرحمٰن شعيب: المتنبي بين ناقديه ص٢٣-٢٤.
(٨) عبد الغني الملاح: المتنبي يسترد أباه ص٨٠-٨١.
(٩) هادي نهر: مع المتنبي في شعره الحربي ص٢٨٨.
(١٠) بلاشير: أبو الطيب المتنبي ص١٢٢-١٢٥.
(١١) بروكلمان: تاريخ الحضارة الإسلامية ص٢٤٣-٢٤٤.
(١٢) ماسينيون: مجلة المورد العدد الثالث ١٩٧٧م.

في تاريخ الخطيب البغدادي[1] روايتان هما أصل لمعظم الروايات التي رويت في هذه القصة:

الرواية الأولى: إنّ أبا الطيب «لمّا خرج إلىٰ كلب وأقام فيهم ادّعىٰ أنه علوي حسني، ثم ادّعىٰ بعد ذلك النبوة، ثم عاد يدعي أنه علوي، إلىٰ أنْ أشهد عليه بالشام بالكذب في الدعويين، وحبس دهراً طويلاً، وأشرف علىٰ القتل ثم استتيب وأُشهد عليه بالتوبة وأطلق».

الرواية الثانية: «اخبرنا التنوخي، حدّثني أبي قال: حدثني أبو علي ابن أبي حامد، قال: سمعت خَلْقاً بحلب يحكون وأبو الطيب بها إذ ذاك، أنّه تنبأ في بادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية فقاتله وأسره، وشردَّ من كان اجتمع عليه من كَلْب وكلاب وغيرها من القبائل، وحبسه في السجن طويلاً، فاعتلّ وكاد أنْ يتلفَ حتى سُئل في أمره فاستتابه، وكتب عليه وثيقة، أشهدَ عليه فيها ببطلان ما ٱدّعاه، ورجوعه إلى الإسلام، وأنه تائب منه، ولا يعاود مثله وأطلقه».

أما ابن خَلِّكان فيقول[2]: «قيل له المتنبي لأنه ادّعى البنوة في بادية السماوة وتبعه خلق كثير مِن بني كلب وغيرهم، فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيدية فأسره وحبسه طويلاً، ثم استتابه وأَطلقه، وقيل غير ذلك، وقيل: إنه قال: أنا أوّل من تنبّأ في الشعر».

وفي الصبح المنبي[3] وهو أجمع الكتب لأخبار المتنبي رواية عن رجل اسمه «أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل» قدم عليه المتنبي فأكرم وفادته، وأعجب بفصاحته وقال له: والله إنك لشابّ خطير تصلح لمنادمة ملك كبير، فأجابه المتنبي

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ص١٠٢-١٠٥.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ص١٢٢.

(٣) يوسف البديعي: الصبح المنبي ص٥٢-٥٥.

مستنكراً، ويحك أتدري ما تقول؟ أنا نبيّ مرسل ثم تلا عليه جملة من قرآنه وهو مائة وأربع عشرة عبرة. ومن كلامه الذي كان يزعم أنه قرآن أنزل عليه: (والنّجم السّيار، والفلك الدّوار، والليل والنهار، أن الكافرين لفي أخطار) ثمّ إن المتنبي أرى اللاذقي معجزة فمنع المطر عن بقعة وقف فيها فأصاب المطر ما حولها، ولم تصبها قطرة فبايعه معاذ وعمّت بيعته كل مدينة في الشام، ثم أوصىٰ المتنبي معاذ بالسر وعدم إذاعة النبأ.

أما رواية الثعالبي[1] ويكاد يكون معاصراً أبا الطيب فإنه يقول: «وبلغ من كبر نفسه وبعد همته أنه دعا قوماً من رائشي نبله علىٰ الحداثة من سنّه، والغضاضة من عوده، وحين كاد يتم أمر دعوته تأدى خبره إلىٰ والي البلده، ورُفع إليه ما هَمَّ به من الخروج فأمر بحبسه، وتقييده، وَيُحْكىٰ أنه تنبّأ في صباه وفتن شرذمةً لقوة أدبه وحسن كلامه».

أما المعرّي[2] وهو قريب من المعاصرين لأبي الطيب فقد سأله ابن القارح عن حقيقة ما ينسب إلىٰ المتنبي من ادعاء النبوة فقال في ردِّه الذي ألحقه برسالة الغفران: «حدثت أنه كان إذا سُئل عن حقيقة هذا اللّقب قال هو من النبوّة، أي المرتفع من الأرض».

تلك بعض الروايات التي ألصقت بأبي الطيب دعوىٰ النبوّة، وتلك الروايات تجعلنا نحار مع الحائرين وتدفعنا إلىٰ أن نسأل السؤال التالي:

هل تنبأ أبو الطيب أم لم يفعلها؟

إذا رجعنا إلىٰ الروايات السابقة نجد ما يلي:

إن رواية الخطيب البغدادي الأولىٰ نجد منها دعوىٰ النبوة مسبوقة وملحوقة بدعوى العلوية، وإنّ غموض الرواية يكشف الشيء الكثير، فادعّاء العلويّة المجرّد

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص١٦١.

(٢) المعري: رسالة الغفران ص٢٨١-٢٨٩.

لا يسوّغ السجن إذ لم يصحبه دعوىٰ بسبب مهم، وحشر كلمة النّبوّة بين المطالبة بالعلوية مرتين يفضح التزوير في كلمة النّبوّة، فدعوىٰ النّبوّة مقحمة إقحاماً، فكأنما صحّ في ذهن جمهرة الرواة أنّه تنبّأ، فجعلوا في رواياتهم مصداق ما سمعوه وصح في أذهانِهم.

أما الرواية الثانية فهي رواية عن خلق يتحدثون، وهذه مقطوع ببطلانها مقضيّ بكذبها، لأن أحاديث الخلق دائماً مزوّقة الجوانب، موشاة الحواشي بالكذب القصصي الشيّق، وأمْر آخر فقد ٱقتصر أبو حامد في هذه الرواية علىٰ ذكر النبوة وحدها وما يأتيه التوهين إلاّ من قبل غرابته عمّا جرت عليه الأحكام في شأن من يدّعون النّبوّة.

يقول أبو علي: إنَّ لؤلؤاً أمير حمص استتابه وكتب عليه وثيقة أشهد عليه ببطلان ما ادّعاه ورجوعه إلىٰ الإسلام. أما أن يستتيبه ويشهد عليه أنّه تائب فهذا لا غبار عليه وهو الحكم مع كل من يدّعي النبوة، أما أن يكتب عليه وثيقة ببطلان نبوّته، فهذا أمر لا معنى له، لأن الوثيقة إنّما تُكْتب فيما يخاف من قبله معاودة الدعوى فتكون إقراراً مشهوداً عليه بالبطلان من المدعي نفسه. فتكون الوثيقة حُجّة عليه إذا عاد ليحاجّ النّاس فيما ادّعاه بعد الإقرار علىٰ نفسه بالكذب في الدعوى الأولىٰ.

أما النّبوّة فالأمر فيها على غير ذلك، فإنَّ الرّجل إذا ادّعى النبوة ثم رجع بعد ذلك فادّعاها يكون جزاؤه القتل من غير إنذار ولا استتابة، فالوثيقة لا تعدو أنْ تكون قد أخذت عليه في دعوى العلويّة لا دعوى النّبوّة.

أما رواية ابن خَلِّكان فقد بدأها بفعل مجهول وهذا دليل على أنه يشكُّ فيها ولا يصدق ذلك وروايـة الثعالبي التي ارتضاها وهي أنه أراد أن يخرج على السلطان فرواية التنبؤ ذيّل بها الكلام تذييلاً قائلاً (ويُحْكى) وهو فعل مجهول، وكانت رواية التنبؤ، فرية تحكى في الجملة ولم يكن الرواة أيدوها بالمعجزات والقرآ ن.

أما رواية معاذ فيقول شعيب[1]: «نحن لا نعرف شيئاً عن أبي عبد الله هذا، ولا نعرف مدى نزاهته في نقل الأخبار ورواية الأنباء. كما أننا لم نفهم سبباً لوصية المتنبي له بالأسرار وعدم إذاعة النبأ، إلا إذا كان المتنبي مرسلاً إليه وحده، أم أن الدعوى لم يحن بعد زمن الجهر بها؟ وكأنه هو وحده المؤتمن عليها وعلىٰ حاملها».

أما محمود شاكر[2] فقد فنّد رواية اللاذقي بحديث طويل أثبت به كذبه. حيث قال: «لقد ادّعىٰ معاذ أن دعوة المتنبي قد عمّت كل مدينة بالشام وبويع له بها كيف يكون هذا؟ والشام إذ ذاك منزل من منازل أئمة الدين والعلم وكان أكثر أهلها لا يتخلفون عن صلاة، ولا يزال بين ظهرانيهم عالم يقرأ في مجلسه، أو واعظ يعظ في حلقته، أو خطيب يخطب من منبره ثم يؤمنون بدعوىٰ رجل لا تؤيده معجزة بيانية، ولا خارقة كونية، وإن زعمنا أن معاذاً قد آمن بالمتنبي لصدحة المطر، أفتؤمن له كل مدينة بالشام وتبايعه لهذه الضلالة، أو هذه الأكذوبة التي لا تعقل؟».

أما رواية المعري، فإن أبا العلاء يقف موقف الشاكّ المتردّد في قبول ما نسب إلىٰ أبي الطيب من دعوة النّبوّة، لذلك تراه يقول إنّ دعوىٰ المتنبي من النَّبوة.

من هذا نرىٰ أن الذين نسبوا ادعاء النّبوّة للمتنبي أكثرهم من خصومه وحسّاده الحانقين عليه أو من ملفقي الأحاديث التي ينقض بعضُها بعضاً.

إنه لم يثبت من إرهاصات هذه النّبوّة التي وسم بها أبو الطّيّب شيء، غير أنه حبس في صباه.

وإذا عدنا إلىٰ موقف المحدثين فإننا نرىٰ أن العقّاد[3] لا يستبعد دعوىٰ النّبوّة علىٰ المتنبيّ لذلك فإنه يقول: «غير أني والحق يقال لا أستبعد دعوىٰ النّبوّة علىٰ

---

(١) محمد عبد الرحمٰن شعيب: المتنبي بين ناقديه ص٢٢-٢٤.

(٢) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص٨٧-٩١.

(٣) العقاد: مطالعات في الكتب والحياة ص١٧٤-١٨١.

المتنبي ولا أجدها غريبة منه، ولو أنها ثبتت عليه، لما رأيت في ذلك ما يدعو إلىٰ دهشة أو غرابة ويحمل علىٰ حيطة أو زيادة تنقيب، والمتنبي في هذه القضية من المتهمين الذين يكفي لتسجيل التهمة عليهم أنْ يسمعَ القاضي شاهداً أو شاهديْنِ ثم يصرفُ بقية الشهود اكتفاء بما سمع واختصاراً للوقت، فالتهمة لاصقة لافقة، ولئن كانت باطلة لا أساس لها ولا نار لدخانها ليكونن الذي رماه بها من شياطين المفترين الذين يعرفون كيف يتخيّرون التُّهم لأربابهم، ويحوكون الأقاويل علىٰ قدر لابسيها وما كان هؤلاء قليلين في ذلك العصر المضطرب الخبيث الذي صار فيه نشر الدعوة فنّاً والتقوّل علىٰ الخصوم سلاحاً مذرباً، ولستُ أظن في المتنبي هذا الظن لأنه قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه.

أضف إلىٰ ذلك أن المتنبي لم يكن يصلّي ولا يصوم ولا يقرأ القرآن ولا يؤدّي زكاة بعد أن أثرى، ولم يكن متورّعاً وثيق الإيمان.

ثم يسأل العقاد نفسه فيقول: «هل حصل أن ادّعىٰ المتنبي النّبوّة؟ فيجيب قائلاً: «أما هذا فلا سبيل إلىٰ البتّ فيه برأي قاطع وأننا بين قولين: أنّ أرجحهما أنه فعل وادّعىٰ، والمرجوح منها أنّ الرجل نبز بهذا النبز، وإني أرجح القول الأول ترجيحاً قوياً، حتىٰ أكاد أرفض الاحتمال الثاني لأول نظرة»، ثم يقول: «فقد ثبت أن الرجل حبس فإن كان حبسه في فتنة أثارها فقد بقي علىٰ الذين يجزمون ببراءته من دعوىٰ النبوة أن يبينوا لنا كيف أطاعه بنو كلب وكيف استطاع أن يحركَهم إلىٰ الفتنة»، ويقول أيضاً: «لو كان المتنبي يستشعر قلبه للدّين رهبة ولمقام الأنبياء حُرمة لما جرىٰ علىٰ لسانه الغلو الشنيع الذي لا يسوغه دين ولا عقل»[1].

ويبدو لي أن العقاد قد نسي قول علي بن حمزة: «بلوت من المتنبي بثلاث خصال أنه ما زنا ولا سرق ولا لاط»، أما قوله لم يقرأ القرآن فهذا أعجب من العجب فالمتنبي حفظ القرآن أو أجزاء كبيرة منه، وقد ظهر أثر ذلك بشعره المسجل بديوانه، أما تشبيه المتنبي نفسه بالأنبياء كقوله:

---

(١) العقاد: مطالعات في الكتب والحياة ص١٧٤-١٨١.

مـــا مُقـــامـــي بـــأرض نخلـــةَ إلاّ كمُقـــام المسيـــح بيـــن اليهـــودِ
أنـــا فـــي أُمـــة تـــداركهـــا اللهُ غـــريـــبٌ كصـــالـــحٍ فـــي ثَمـــودِ[1]

فالشاعر لم يشبه نفسه بالسيد المسيح ولا بصالح عليهما أفضل السلام، وإنّما أحس الشاعر بصورة من صور الاغتراب التي أحسّها كل من عيسىٰ وصالح عليهما السلام وذلك لأنه كان يعيش في مجتمع أكثره من العبيد الذين لم يعُوا عصرهم المضطرب، ولم يدركوا جسامة الأخطار التي تنخر في أوصال أمّتهم، وربما يوحي بما لاقاه الشاعر من عنت وإجحاف من الذين عايشهم.

ومن الذين ينكرون ادعاء المتنبي للنبوّة طه حسين[2]، حيث يقول: «وأنا لا أتردّد في رفض ما يروىٰ من أنه ادعىٰ النبوة وأحدث المعجزات أو زعمَ إحداثها وضلّل فريقاً من خاصّتهم وعامّتهم فبايعوه واتّبعوه».

أما عبد الغني الملاح[3] فإنه يقول: «إن الذي ادّعىٰ النبوة هو أحمد بن عبد الرحيم الأصبهاني ويعود الفضل في إثبات ذلك إلىٰ الدكتورة بنت الشاطىء خلال تحقيقها رسالة الغفران للمعري وقد جاء في ذلك ما نصه «حكىٰ القطربلي وابن أبي الأزهر: كتاب اجتمع علىٰ تصنيفه أهل بغداد، وأهل مصر يزعمون أنه لم يصنف في معناه مثله لصغر حجمه وكبر علمه، يحكيان فيه أن المتنبي أخرج ببغداد من الحبس إلىٰ مجلس ابن الحسن علي بن عيسىٰ الوزير رحمه الله فقال له: أنت أحمد المتنبي؟».

فقال: أنا أحمد النبي، وكشف عن بطنه، وأراه سلعة فيه، وقال: هذا طابع نبوّتي، وعلامة رسالتي.

ولكن الدكتورة بنت الشاطىء وجدت في النسخة التيموريّة لرسالة الغفران وهي نسخة محفوظة بخط الناسخ وبمداد أحمر حاشية هذا نصها في جزء من

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الجيوان جـ١ ص٣١٩، ٣٢٤.

(٢) طه حسين: مع المتنبي ص٩٩.

(٣) عبد الغني الملاح: المتنبي يسترد ابله ص٨٠-٨١.

تذكرة ابن العديم ما نصه «وهذا عجيب فإن المتنبي ولد سنة ٣٠٣هـ علىٰ ما رواه ابن سربال وغيره من الرواة، فكيف تصح هذه الحكاية قبل مولده فعلىٰ كل حال لا يصح ما نقله ابن أبي الأزهر وأبو محمد. . أو يكون هذا المتنبي غير أبي الطيب المتنبي والله أعلم» ثم ذيلت الحاشية بما نصه «صحّ بعد ذلك أنه غير أبي الطيب».

هذه النصوص تنفي نفياً قاطعاً الرواية التي قالت بنبوة المتنبي علىٰ الأقل في دار السلام ـ بغداد ـ وتجعل تلك الروايات في مصاف الخرافات التي استغلها خصوم الشاعر.

أما محمود شاكر[1] فإنه يقول: «إن المتنبي أظهر أمره بأنه علوي الأصل شريف النسب أثناء وجوده في بني عدي وبني كلب ففشا ذكره بينهم وبايعوه علىٰ العون له في الدعوة إلىٰ رد الحكومة إلىٰ العرب دون الأعاجم ولذلك سجن».

إن الروايات التي سجلناها تُجمع علىٰ أن الرجل قد دعا إلىٰ أمر وسجن فيه، بعد ذلك تختلف الروايات في أنها دعوىٰ النبوة أو غيرها. لذلك لا بد لنا أن نرجع إلىٰ ديوان الشاعر نفسه لنرىٰ ماذا قال في القصيدة التي كتبها وهو في السجن يستعطف الوالي لنبيّن كنه هذه التهمة من الشاعر نفسه، وبالرجوع إلىٰ ديوان أبي الطيب بشرح أبي البقاء العكبري المسمىٰ بالتبيان في شرح الديوان جـ١ ص ٣٤١ وجدنا ما يلي:

ووشىٰ به قوم إلىٰ السلطان فحبسه فكتب إليه من السجن:

أيـــا خـــدَّدَ اللهُ وَرْدَ الخُـــدودِ ... وقَـــدّ قُـــدود الحِســـانِ القُـــدودِ
فَهُـــنَّ أسَلْـــنَ دَمـــا مُقْلَتِـــي ... وعَـــذَّبْـــنَ قَلْبـــي بطـــولِ الصُّـــدودِ
وكَـــمْ للهَـــوَىٰ مِـــن فَتـــىً مُـــدنَـــفٍ ... وكَـــمْ للنَّـــوَىٰ مِـــنْ قَتيـــلٍ شهيـــدِ
فَـــواحَسْـــرتـــا مـــا أمـــرَّ الفِـــراق ... وأَعلـــقَ نيـــرانَـــهُ بـــالكُبُـــودِ
وأغـــرىٰ الصَّبـــابَـــةَ بـــالعـــاشِقيَـــن ... وأفتلَهـــا للمحِـــب العَميـــدِ

(١) محمود شاكر: المتنبي ص١٠٢.

وألهَجَ نَفْسي بغَيْرِ الخَنَا ... بِحُبِّ ذواتِ اللَّمى والنُّهُودِ
فكانَتْ وكُنَّ فِداءَ الأميرِ ... ولا زالَ مِن نِعْمةٍ في مَزيدِ
لقد حال بالسَّيْفِ دونَ الوعيدِ ... وحالت عطاياهُ دونَ الوُعودِ
فأنجُمُ أَموالِهِ في النُّحُوسِ ... وأنجُمُ سُؤَالِه في السُّعودِ
وَلَوْ لَمْ أَخَفْ غَيْرَ أعدائِهِ ... عَلَيْه لَبَشَّرْتُهُ بالخُلُودِ
رَمى حَلَباً بنواصي الخُيُول ... وسُمْرٍ يُرِقْنَ دَما في الصَّعيدِ
وبيضٍ مسافِرَةٍ ما يُقِمْـ ... ـنَ لا في الرّقابِ ولا في الغُمُودِ
يَقُدْنَ الفناء غداةَ اللّقاءِ ... إلى كُلِّ جَيْشٍ كَثيرِ العَديدِ
فولّى بأشْياعِهِ الخَرْشَنِيُّ ... كَشاءٍ أحسَّ بِزَأْرِ الأُسُودِ
يُرَوْنَ من الذُّعْرِ صَوْتَ الرِّياحِ ... صَهيلَ الجيادِ وخَفْقِ البُنُودِ
فَمَنْ كالأميرِ ابنِ بِنْتِ الأميرِ ... أوْ مَنْ كآبائِهِ والجُدُودِ
سَعَوا للمعالي وهُم صِبْيَةٌ ... وسادُوا وجادُوا وَهُمْ في المُهُودِ
أمالكَ رِقّي ومَنْ شَأْنُهُ ... هِباتُ اللُّجين وعِتْقُ العبيدِ
دَعوتُكَ عِنْدَ انقطاعِ الرجا ... ءِ والموْتُ منّي كحبل الوريدِ
دعوتك لمّا براني البلى ... وأوهن رجليّ ثِقْلُ الحديدِ
وقد كان مَشْيُهُما في النِّعالِ ... وقد صار مشيُهُما في القُيُود
وكُنْتُ من النّاس في مَحْفَلٍ ... وها أنا في محفِلٍ مِنْ قرودِ
تعجّل فيَّ وجوبُ الحدودِ ... وحدّىٰ قبل وُجوب السُّجودِ
وقيلَ عدوت علىٰ العالمين بين ... وِلادي وبين القُعودِ
فما لَكَ تَقْبلُ زورَ الكلامِ ... وقَدْرُ الشّهادةِ قَدْرُ الشُّهودِ
فلا تَسْمَعَنَّ من الكاشِحينَ ... ولا تعبأنَّ بِمَحْكِ اليَهُودِ
وكن فارقاً بين دَعْوىٰ أردْتُ ... ودَعْوىٰ فَعَلْتُ بِشَأْو بعيدِ
وفي جود كَفّيْكَ ما جُدْتَ لي ... بِنَفْسي ولَوْ كُنْتُ أشْقىٰ ثَمُودِ[1]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٤١-٣٤٧.

والقول الذي لا يتطرق إليه الشك أن المتنبي سيق إلىٰ السجن ولكن ليس بتهمة دعوىٰ النبوة، وإنما لأنه ذاع أمْره ببني عدي وبين كلب أنه علوي الأصل[1] شريف النسب، فالتفّوا حوله عن قناعة بصحة نسبه، وهذا ما لا يتفق ووجود الحكام والأمراء في مراكزهم وخاصة أنه كان قد مَلأ البلاد بشعره الثوري، ضد حكام بغداد الأعاجم وعن رأيه في الدولة العباسية التي ملك زمامها العجم والديلم والترك من خدم الخلفاء، وعن رأيه في الخليفة الضعيف الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً، ثم يعد في نظر أمته خليفة تعطي له المقادة، وتصرف إليه الطاعة بالإذعان والتسليم، وما ينجلي في كلماته من إرادة التغلّب والثورة علىٰ الدّولة عربها وعجمها، كل ذلك لا شكّ جلب علىٰ شاعرنا علىٰ الرغم من صغره واهتمام القائمين بأمر الدولة من الولاة والدعاة من العرب والعجم والترك والديلم، وشعره الثوري التخوّف منه ممّا جعل أعداءه يسعون إلىٰ الوالي من أجل سجنه.

ويروي محمود شاكر[2]: «أن الفاطميين والعلويين هم الذين سَعَوْا في إيقاعه في السجن وأن والي الشام نفسه ظنّ أن بني حمدان في حلب كانوا وراءه في مطالبته بحقه لأسباب سياسية، وخاصة أن المتنبي مدح سيف الدولة سنة ٣٢١هـ فأبقاه الأمير الإخشيدي في سجنه حتىٰ سنة ٣٢٣هـ، وقد أدرك المتنبي هذه التوقّعات، فكتب قصيدته السابقة الذكر وكانت السبب المباشر لإطلاق سراحه، بالإضافة إلىٰ احتمال توسط التنوخيين له».

إن القصيدة السالفة الذكر كتبها أبو الطيب إلىٰ محمد بن طغج الإخشيدي التركي في آخر سنة ٣٢٣هـ أو أوائل سنة ٣٢٣هـ، وقد ذكر في القصيدة (حلبا والخرشني) وسبب الذكر كما يقول محمود شاكر: «إنه في جمادىٰ الآخرة سنة ٣٢٢هـ سار الدمستُق «قرقاش» في خمسين ألفاً من الروم فنزل ملطيّة وحاصرها

---

(١) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص٤٥.

(٢) المرجع نفسه جـ١ ص١٠٦.

مدة طويلة، حتىٰ هلك أكثر أهلها بالجوع، ثم فتحها وهدم سورها وقصورها وضرب خيمتين علىٰ إحداهما صليب وقال[1]: «من أراد النصرانية انحاز إلىٰ خيمة الصليب لنرد عليه أهله وماله، ومن أراد الإسلام، انحاز إلىٰ الخيمة الأخرىٰ وله الأمان في نفسه، ونبلغه مأمنه، فانحاز أكثر المسلمين إلىٰ الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في أهليهم وأموالهم، وسير مع الباقين بطريقاً يبلغهم مأمنهم، وفتحها بالأمان، ثم ملكوا سُميساط، وخربوا الأعمال وأكثروا القتل، وقد فعلوا الأفاعيل الشنيعة، وصار أكثر البلاد في أيديهم، وكان إذ ذاك والي الشام محمد بن طفج، فردّه عن التوّغل، وانقلب الدُّمُستُق هارباً، ولم يدخلها، لذلك جعل شاكر تلك الحادثة تاريخ القصيدة آخر سنة ٣٢٢هـ.

ومن تحليل القصيدة نلاحظ ما يلي:

١ ـ يفتتح القصيدة افتتاحاً غزلياً عجيباً بالدعاء علىٰ الجميلات خدوداً وقدوداً، وتأكيد عفته.

٢ ـ يمدح الأمير بمدح تقليدي حين يصفه بالشجاعة والحزم وإتلاف المال، ثم يذكر إحدىٰ معاركه مع الخرشني ويمجد نصره.

٣ ـ إن الصور الشعرية التي في القصيدة ليست في المستوىٰ الذي عليه شعر المتنبي من ضخامة الجرس وجزالة اللفظ ومتانة الأسلوب وقوة الخيال وبلاغة العبارة، مما يدل علىٰ أن الرجل كان في حداثة سنه، وأن شعره لم تتكامل له القوة، أو تتوافر له المتانة أو تتوفر له الثروة البيانية التي أتاحها الله له فيما بعد، وربما كان من المؤكد أن المتنبي كان في هذا الوقت دون سن البلوغ بدليل قوله:

تَعَجَّلُ فيَّ وجوبُ الحدودِ وحدّىٰ قَبْلَ وُجُوبِ السجودِ

يقصد أنه صغير لم تجب عليه الصلاة فكيف يجب عليه الحدّ، فالمتنبي يحاول في هذا البيت أن يدخل فيما يشبه الحوار الفقهي مع الوالي، ويشير فيه إلىٰ

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٢٢-٣٢٣، جـ ٨ ص٢٩٦.

الشروط التي يجب توفرها في إقامته الحدود والبلوغ من الشروط الأولىٰ لإقامة الحد، فإذا كان البلوغ بعيداً عن سنّ الشاعر فأي سند شرعي لإقامة الحد عليه وبهذا الادعاء يغمز معرفة الوالي وأهليته للقضاء، إن المفروض في من يتولىٰ هذا المنصب الخطير أن يكون مُلمّاً بالفقه الإسلامي إلماماً يتناسب مع السلطة القضائية التي خوّلت في جملة ما خوّل له، وإذا كان الوالي يجهل أبسط هذه الشروط لإقامة الحدود فأي حق له في الولاية والتصرف بأرواح الناس.

٤ ـ لم نر المتنبي يشكو وراء القضبان وذلّ القيود، وعناء الحبس، ومضاضة الحرمان وهذا يدل علىٰ استخفاف الشاعر بالسجن، في أول أمره، والدليل علىٰ ذلك ما رَوَوْا[1] من أن أبا دلف بن كنداح سجّان المتنبي أهدىٰ إليه هدية وهو معتقل بحمص فكتب إليه المتنبي يقول:

أهْـوِن بطـول الثَّـواءِ والتَّلَـفِ ... والسِّجْـنِ والقَيْـدِ يـا أبـا دُلَـفِ
غَيْـرَ اختيـارٍ قبلـتُ بِـرَّكَ بـي ... والجـوعُ يُـرضـي الأُسـودَ بـالجِيَـفِ
كُـنْ أيها السِّجـنُ كيفَ شِئْتَ فقـد ... وطَّنْـتُ للمـوتِ نَفْـسَ مُعْتَـرِفِ
لـو كـان سُكْنـايَ فيـكَ مَنْقَصَـةٌ ... لـم يَكُـنْ الـدُّرُّ سـاكـنَ الصَّـدَفِ[2]

ففي الأبيات السالفة ما يدل علىٰ كبريائه، وأن عذاب السجن وشقاءه لم ينالا منه شيئاً.

٥ ـ لو كان المتنبي مأخوذاً إلىٰ السجن بتهمة ادّعاء النبوة لركز جهوده في التّنصُّل مِنْ هذه التهمة ولباعد بينه وبينها بكل وسيلة مشروعة، ولا يوجد في القصيدة ما يشير إلىٰ أنّ التهمة ادّعاء النبوّة.

٦ ـ حين يذكر ما اتّهم به يقول: العدوان علىٰ العالمين، وهذه عبارة غامضة لا توحي بشيء من التنبّؤ بل توحي بالعصيان وإثارة الفتن والقلاقل.

وقيـلَ عَـدَوْتُ علـىٰ العـالميـن ... بَيْـن وِلادي وبَيْـن القُعُـودِ

---

(١) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص١٠٤.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢٨٠-٢٨١.

أي أنهم اتّهموه بالعدوان علىٰ العالمين في حالة الطفولة قبل أنْ يستطيع القعود ومن هنا علىٰ الإنسان أن يلاحظ نوع التهمة، فهي منحصرة في الخروج علىٰ السلطان ولو كانت ادّعاء النبوة لما قال عدوت علىٰ العالمين.

٧ ـ يقول أبو الطيب إنَّ الذين وَشَوْا به هم سَفَلة الناس فشهادتهم مردودة لعدم تورّعهم عن الكذب يقول محمود شاكر[١]: «إنه يخاطب محمد بن طفج فيقول له: مالي أراك تقبل في أعدائك وأعداء مواليك العباسيين، وكان أولىٰ بك أن تزن أقوالهم بما تزنهم به (فقدر الشهادة قدر الشهود) فلا تسمح لهؤلاء الذين يضمرون العداوة (الكاشحين) ويقصد بذلك الفاطميين ويزعمون أن جدّهم كان يهودياً وأسلم ليدخل علىٰ الإسلام العقائد الفاسدة.

فما لَكَ تقبلُ زورَ الكلام وقَدْرُ الشهادة قَدْرُ الشّهودِ
فلا تسْمَعَنَّ من الكاشحينَ ولا تعْبأَنَّ بِمَحْكِ اليهود

٨ ـ يهيب الشاعر بالحاكم أن يفرق بين إرادة الفعل والفعل فربما يكون قد وَصلَهُ أنه رغب وأراد، ولكنه لم يصله عنه أنّه فعل، لذلك فهو بريء وأنَّ التنبؤ جريمة وكفر عند المسلمين، ولو لم يخرج مدّعيه بشكل عملي، وهذا يدل علىٰ أنَّ الوشاية به لم تتّهمه بادّعاء النبوة، بل التّهمة بأمور أخرىٰ، وبمطامع أخرىٰ لعلّها أي شيء آخر إلاّ التنبّؤ.

وما أقبح اعتذار المتنبي لو أن التهمة الموجّهة إليه كانت التنبّؤ، إذ يلصق بنفسه عار الرغبة في ادّعاء النبوّة، ولا ينقذه من هذا العار تأكيده بأنه لم يخرج رغبته المستهجنة هذه إلىٰ نطاق التحقيق العقلي.

وكُنْ فارِقاً بينَ دَعْوىٰ أردتُ ودعْوىٰ فعلتُ بشأوٍ بعيد

فإذا قلبت الدعويين، دعوىٰ أردت، ودعوىٰ فعلت علىٰ معنىٰ النبوّة لم يتم ذلك تساوق المعاني.

---

(١) محمود شاكر: المتنبي ص١٠٨.

٩ ـ في البيت الأخير حين يحتاج إلىٰ العفو مهما كانت جريمته لا يشبه نفسه علىٰ فرض إقدامه علىٰ ما اتهم به، بمدّعي النبوة المعروفين في التاريخ الإسلامي كمسيلمة بل يعتبر رمز الجريمة أحمر ثمود، وأحمر ثمود لم يدّعِ النّبوّة، بل أنكر نبوّة صالح وعقر الناقة فتسبَّب في إهلاك قومه بعد أن غرّر بهم وهذا يدل علىٰ أن التهمة كانت الخروج علىٰ السلطان.

وفي جود كفيك ما جدت لي بنفسي ولو كنت أشقىٰ ثمود

إن القصيدة التي حللناها قالها في صباه، قبل أن يناصبه العداء أحد من المنافسين له والحانقين عليه، والشعر الذي ذكر لم يتضمن شيئاً من الإشارة إلىٰ دعوىٰ النبوّة ولا يمكن أن تفهم منه بحال، فلو كان قال هذه القصيدة في أيام شهرته، وانتشار ذكره لقلنا أنه جمجم[1] فيها ودارىٰ نفسه، ولكنه قالها في صباه، وهي من أوائل شعره بلا نزاع في الاعتماد عليها وصحة الاستشهاد بها.

يقول عبد الله كنون[2]: «بل نحن نسلم جدلاً أنه ادّعىٰ النبوة وبسببها سجن فكيف يصحّ قوله حينئذ:

وكُنْ فارقاً بينَ دعوىٰ أردتُ ودعوىٰ فعلتُ بشأوٍ بعيد

وهل من يريد ادّعاء النبوّة متنبّىء بالفعل؟ وهل هذه الإرادة مما يمكن الاطلاع عليه قبل إظهارها حتىٰ تنأىٰ الوشاية به؟ وذلك بخلاف الخروج فإن بوادره تظهر للناس قبيل الإقدام عليه، لأنه لا بد له من دعاوىٰ كبيرة، إذ أن الفرد لا يمكن أن يرفع وحده علم الثورة في وجه الدولة.

ومع تأكيدنا أن الذين وَشَوْا به لم يتّهموه إلاّ بالخروج علىٰ السلطان لا نستبعد أنهم هم الذين لمزوه بذلك اللقب المشنوء لمّا رأَوْا تعاليه عليهم، والأهم من هذا كله أن يكون التأكيد علىٰ وجود دعويين، واحدة ادّعاها وهي المطالبة بالنسب والثانية لُفّقت ضده، فأخذ بها إلىٰ السجن وهي الثورة ضد السلطان.

---

(١) جمجم: إذا لم يبين كلامه مادة جمجم مختار الصحاح ص٧٢.

(٢) عبد الله كنون: مجلة الرسالة عدد ١٢٧/ ٣٠ رقم ٢٠٥٠-٢٠٥٢، ٢٠٩٣-٢٠٩٥ سنة ١٩٣٥.

وأثناء وجود الشاعر في السجن اعتلّ، وكاد يتلف حتىٰ سئل في أمره فاستتابه الوالي وكتب عليه وثيقة وأشهد عليه أهل الشام ببطلان ما ادّعاه ورجوعه إلىٰ الإسلام، وأنه تائب منه ولا يعاود مثله وأطلقه.

وهنا لا بد لي أن أسأل السؤال التالي:

لماذا سمي شاعرنا بالمتنبي إن كان لم يتنبأ؟

١ ـ حكى أبو الفتح عثمان بن جني[١] قال: سمعت أبا الطيب يقول لُقِبْتُ المتنبي لقولي[٢]:

أنا تِرْبُ النَّدىٰ، وربُّ القوافي ... وسِمامُ العدا، وغَيْظُ الحسودِ
أنا في أمةٍ تداركَها اللهُ ... غريبٌ كصالحٍ في ثَمودِ[٣]

٢ ـ روىٰ ياقوت رواية عن الناشيء الشاعر تدل علىٰ أنه لم يلقب بالمتنبي وقت سجنه ولا في السنة التي سجن فيها قال: «وحدّث الخالع قال حدّثني أبو الحسين الناشيء قال: كنت في الكوفة سنة ٣٢٥هـ، وأنا أملي شعري في المسجد الجامع بها، والناس يكتبونه عني وكان المتنبي، إذ ذاك يحضر معهم وهو بَعْدُ لم يُعرف بالمتنبي[٤].

---

(١) ابن جني: هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي كان من حذاق أهل الأدب وأعلمهم بعلم النحو والتصريف، أخذ عن أبي علي الفارسي وصحبه أربعين سنة وهو صاحب التصانيف القائمة المتداولة في النحو واللغة كان عبداً رومياً لسليمان بن فهد الأزدي.
نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص٣٣٢.
البداية والنهاية جـ١١ ص٣٣١.
بغية الوعاة جـ٢ ص١٣٢.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر جـ١ ص١٦٣.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٢٣-٣٢٤.

(٤) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص٣٦-١١٦.

٣ ـ سئل المتنبي نفسه علىٰ من تنبّأ؟ فقال علىٰ الشعراء، فقيل له إنّ لكلّ نبيّ معجزة فما معجزتك؟ فقال: معجزتي هذا البيت[١].

ومِنْ نكَدِ الدُّنيا علىٰ الحُرّ أنْ يَرىٰ عَـدُوّاً لـه مـا مـن صـداقَتِـه بُـدُّ[٢]

٤ ـ يقول أبو العلاء المعري في رسالة الغفران: «وحدثت أنه إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال: هو من النبوة أي المرتفع من الأرض، ومعنىٰ هذا أنّ أحمد أبا الطيب لقّب بهذا اللقب لترفّعه عن الناس كما تنبو الأرض المرتفعة»[٣].

٥ ـ يقول هادي نهر[٤]: «سمي بالمتنبيّ بسبب لقبه الغريب الذي لصق به علىٰ كره منه، وقد أرجعه نفسه إلىٰ النبوة أي المكان المرتفع، لأنه كان فطناً نابغاً، أما عدم خلوّ عصره ممن ادّعىٰ النّبوّة وشوّه الحقائق الدينية فلا يعني بالفرض أن يكون المتنبي بالذات مدّعياً لهذه النّبوّة».

٦ ـ رأىٰ الشعراء المعاصرون لأبي الطيب أنه لم يدّعِ النّبوّة، وإنما كان في نفسه كبرياء وعظمة فهذا أبو القاسم المظفر الطبسي يقول في رثائه[٥].

كـان مـن نفسـه الكبيـرة فـي جيـش وفـــي كبـــريـــاه فـــي سلطـــان
مـــا رأىٰ النـــاس ثـــانـــي المتنبـــي أي ثـــان يـــرىٰ لبكـــر الـــزمـــانِ
هـــو فـــي شعـــره نبـــي ولكـــن ظهـرت معجـزاتـه فـي المعـانـي

٧ ـ رأىٰ عبد الكريم النَهْشلي أن أبا الطيب إنما سمي متنبّئاً لفطنته، وقال غيره: «بل قال: أنا أول من تنبّأ بالشعر»[٦].

---

(١) يوسف البديعي: الصبح المنبي ص٦٥.
(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٧٥.
(٣) أبو العلاء المعري: رسالة الغفران ص٢٨١-٢٨٩.
(٤) هادي نهر: مع المتنبي في شعره الحربي ٢٨٦-٢٨٧.
(٥) بلاشير: أبو الطيب المتنبي حاشية رقم ١ ص١١٨.
(٦) ابن رشيق القيرواني: العمدة ص٧٥.
علي شلق: المتنبي ص١٠.

٨ ـ روىٰ الخطيب عن أبي علي بن حامد قال: «كان المتنبي إذا شوغب في مجلس سيف الدولة ونحن إذ ذاك في حلب نذكر له هذا القرآن وأمثاله مما كان يحكىٰ عنه فينكره ويجحده»[١].

٩ ـ قال له ابن خالويه النحوي يوماً في مجلس سيف الدولة: «لولا أن الآخر جاهل لما رضي أن يدعي المتنبي لأن «متنبي» معناه كاذب ومن رضي أن يدعى كاذِباً فهو جاهل، فقال له: أنا لست أرضىٰ أن أدعى بهذا وإنما يدعوني به من يريد الغضّ بي، ولست أقدِرُ علىٰ الامتناع»[٢].

١٠ـ تعاليه علىٰ الأقران وزعمه في نفسه أنَّ الله قد ميّزه عن المعاصرين له، وخصّه بشيءٍ من الفضل علىٰ سواه، واعتقاده أنّ شعره آياتٌ محكمات يرويها الدهر، ويحفظها التاريخ ويزدانُ بها جيد الزّمن، وتنتشي برحيقها الدنيا، وأثر هذا الترفع واضح في شعره حيث يقول:

ما نالَ أَهْلُ الجَاهِليّةِ كُلُّهُمْ ... شِعْرى ولا سَمِعَت بسحْرِيَ بابِلُ

وإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتي مِنْ نَاقِصٍ ... فَهِيَ الشّهادةُ لي بأنيَ كامِلُ[٣]

وقوله:

أنا ابنُ مَنْ بَعْضُهُ يفوقُ أبا الـ ... ـباحثِ والنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجلَه[٤]

وقوله:

أَذُمُّ إلىٰ هذا الزمانِ أُهَيْلَهُ ... فأعلمُهُم فَدْمٌ وأحزمُهُم وَغْدُ[٥]

وقوله:

سَيَعْلَمُ الجَمْعُ ممّن ضَمّ مَجْلِسُنا ... بأنني خَيْرُ مَنْ تَسْعىٰ بهِ قَدَم[٦]

---

(١) الأنباري: نزهة الألباء ص٢٩٧.

(٢) المصدر نفسه ص٢٩٧.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٢٥٩-٢٦٠.

(٤) المصدر نفسه جـ٣ ص٢٦٦.

(٥) المصدر نفسه جـ١ ص٣٧٤.

(٦) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ص٣٤٢٠.

١١ـ روىٰ الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨هـ إذ يقول متبعاً ابن جني في شرحه لبيت المتنبي:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود[١]

بهذا البيت لُقّب بالمتنبي لتشبيهه نفسه بعيسىٰ عليه السلام.

١٢ـ قال الربعي: «وقال لي المتنبي: كنت أحبّ البطالة وصحبة البادية، وكان يذم أهل الكوفة لأنهم يضيقون علىٰ أنفسهم في كل شيء حتىٰ في الأسماء فيتداعَوْن بالألقاب، ولما لقّبْتُ بالمتنبي، ثقل عليّ ذلك زماناً ثم ألفته[٢].

١٣ـ خصوم المتنبي الألدّاء الذين كانوا لا يغفلون عن مناوأته، ولا يسكتون عن محاربته ولا ينامون عن الكيد له، والعمل علىٰ تشويه محاسنه، وانتحال العيوب له، فقد عاش عمره كله يعاني منهم ويحتمل من شرورهم ويشكو أذاهم كابن كروس الأعور الالكن، وابن لِنكك.

فقد هجاه ابن لِنكك[٣] البصري حينما سمع بقدومه بغداد راجعاً من مصر وكان ابنُ لنكك حاسداً له، طاعناً عليه، هاجياً زاعماً أن أباه كان سقاء يسقي الماء بالكوفة فشمت به وقال:

قولاً لأهلِ زمان لا خلاقَ لهم ضلوا عن الرشدِ من جهل بهم وعَمُوا
أعطيتمُ المتنبي فوق مُنْيَتِه فزوجّوه برغم أمهاتكمُ
لكن بغداد جاد الغيث ساكنها نعالهم في قفا السّقّاء تزدحمُ

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣١٩.

(٢) محمود شاكر: المتنبي ص٢٥٣-٢٥٤.

(٣) ابن لنكك: هو أبو الحسن الشاعر الأديب كان فرد البصرة وصدر أدبائها في زمانه ولكن المتنبي أخْملَ ذكره، لذلك كثر شعره في هجائه وفي شكوىٰ الزمان، ولد في البصرة وتوفي فيها في أواخر القرن الرابع الهجري.
البديعي: حاشية رقم ٨ ص١٤٤.
بغية الوعاة ص٤٤. يتيمة الدهر ص٦٠.

وقال أيضاً:

مستنبيكمُ ابن سقاءَ كوفا ... نيّ ويوحىٰ من الكنيف إليه
كان من فيه يسلحُ الشّعْر حتىٰ ... سلحتْ فقحة الزمان عليه

وقال أيضاً:

ما أوقَحَ المتنبي ... فيما حكىٰ وادّعاه
أبيح مالاً عظيماً ... لما أباحَ قفاه
يا سائلي عن غناه ... من ذاك كان غناه
إنْ كان ذاك نبياً ... فالجاثليق إله[1]

وهجا ابن الحجاج[2] أبا الطيب لمّا دخل بغداد وقال:

يا ديمة الصَّفح هبي ... علىٰ قفا المتنبي
ويا قفاه تقدم ... تعال واجلس بجنبي
ويا يدي فاصفعيه ... بالنّعل حتىٰ تربي
إنْ كان هذا نبياً ... فالقرد لا شكَّ ربي

ثم إنّ الصاحب بن عباد[3] كتب المجلدات في نقده والوزير

---

(١) الجثاليق: رئيس الأساقفة يكون تحت يد بطريق أنطاكية.
يوسف البديعي: الصبح المنبي ص١٤٥.

(٢) ابن الحجاج: هو الحسن بن أحمد بن محمد بن الحجاج المتوفي في بغداد سنة ٣٩١هـ وكان أكثر قوله في الفحش.

(٣) الصاحب بن عباد: هو الصاحب إسماعيل بن عباد كاتب المشرق ووزير آل بويه توفي سنة ٣٨٥هـ وزر لمؤيد الدولة وكان من العلم والفضيلة والبراعة والكرم والإحسان بالعلماء والفقراء إلىٰ جانب عظيم، أخذ عن ابن فارس وابن العميد.
المصادر: الأعلام: جـ١ ص٣١٢.
البداية والنهاية: جـ١١ ص٣١٤-٣١٧.
يغية الوعاة: جـ١ ص٤٤٩-٤٥١.

المهلبي[1] سخّر القاضي التنوخي[2] لحبك الروايات الكاذبة عليه.

إن المتنبي نفى عن نفسه التهمة ولا يرضىٰ عنها: «قال له بعض الأكابر في مدينة السلام: أخبرني مَنْ أثق به أنك قلت: أنا نبيّ، فقال: الذي قلته أنا أحْمَدُ النبي»[3].

ومن هنا ومن خلال هذا كلّه جاز لنا أن ننكر إنكاراً صريحاً تنبّؤ المتنبي صاحب ذلك العقل الجبار الذي لو صحّ تنبؤه لكان ذريعة إلىٰ اتهامه في سلامة الإدراك، وكما أنني أرفض مع الرافضين ما يروىٰ فيه أنه ادّعىٰ النبوة وأحدث المعجزات أو زعم إحداثها، وأنني لا أتردد في رفض هذا السخف الذي يشير إلى أن المتنبي زعم بأن قرآناً نزل عليه، وأن بعض الناس حفظ هذا القرآن لسبب بسيط جداً هو أن شعر المتنبي أعلىٰ مستوىٰ من ذلك القرآن الذي زعموا أنه أُنزل عليه من رب العالمين، وهل يصح أن يكون كلام المخلوق أعلىٰ من مستوىٰ كلام الخالق؟[4].

هناك طائفة من الناس أنكرت أن المتنبي ادَّعىٰ النبوة، واتهمته بما هو أبشع ألا وهو القرمطة، ومن هذه الطائفة المستشرقون أمثال بلاشير، وماسينون وبروكلمان، وردد كلام المستشرقين طه حسين وغيره، لذلك كان لا بد لي أن أعرّج علىٰ هذا الأمر لنعرف صحة الدعوىٰ فنسأل هذا السؤال:

من هم القرامطة، وما عقيدتهم وتعاليمهم؟

وهل كان أبو الطيب قرمطياً؟

---

(١) الوزير المهلبي: هو أبو محمد الحسن بن محمد ولد في البصرة سنة ٢٩١هـ وكان أول أمره موظفاً صغيراً ثم ارتقىٰ حتىٰ صار وزيراً لمعز الدولة، توفي سنة ٣٥٢هـ.
المراجع: يتيمة الدهر: جـ٢ ص٢.
الكامل في التاريخ: لابن الأثير جـ ٨ ص١٩٦.

(٢) علي التنوخي: وهو علي بن محمد علي التنوخي، فقيه أديب شاعر ولد في أنطاكية سنة ٢٧٨هـ وتوفي سنة ٣٤٢هـ كان من المنادمين للوزير المهلبي.

(٣) يوسف البديعي: الصبح المنبي ص٦٨.

(٤) محمد عبد الرحمٰن شعيب: المتنبي بين ناقديه ص٢٨.

القرامطة

اسم عرفت به إحدىٰ الفرق الباطنية التي شغلت السلطات العباسية قرابة قرن من الزمن وأشاعت القلق والاضطراب في الشرق العربي بما خلقته من أفكار تخريبية، والحركة القرمطية حركة باطنية توسّلت بشعار الولاء لآل البيت النّبويّ، من أجل الوصول إلىٰ هدف وهو الثأر من العرب المسلمين والتخلص من الإسلام والانحراف بالمسلمين عن عقيدتهم الصحيحة. . .[١].

وقيل إن القرامطة هم من الشيعة المتطرفة، لهم صلة نسب بالإسماعيليين والفاطميين[٢]. من هدفها تقويض دعائم الإسلام وإباحة محرماته وإنعاش العقائد الأجنبية القديمة[٣].

والقرامطة هي الاسم الذي أطلقه أهل السنة والجماعة علىٰ هذه الفرقة الباطنية، فالقرامطة ثورة أعدَّ لها ونظمها ووضع مبادئها عبد الله بن ميمون القداح وهو فارسي كان واسع المعرفة بجميع المذاهب والأديان، وأخذ في سرعة يكوّن حول محمد بن إسماعيل جمعية سريّة تعمل علىٰ تقويض دعائم الدولة العباسية[٤].

كان عبد الله بن ميمون القداح يستعين علىٰ جذب الناس بطرق تتناسب مع كل شخص يجتذبهم بالسحر والشعوذة، وأخرىٰ يجتذبهم بإظهار التقوىٰ والنسك، وكان يزعم أن دينه دين النور الخالص. بدأ دعوته بالأهواز، ثم تركها وسافر إلىٰ البصرة ومعه رفيقه حسين الأهوازي.

---

(١) طه الولي: القرامطة ص٢٥-٢٦.

(٢) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ص٨٤.

(٣) سامي العياش: الإسماعيليون في المرحلة القرمطية ص٨١.

(٤) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي جـ٤ ص٣٣-٤٢.

أحسّ القداح بمطاردة والي البصرة له، فهرب مع رفيقه إلىٰ سلمية بقرب اللاذقية في الشام، ومن هناك أخذ يرسل دعاته إلىٰ العراق، كما أخذ ينظم الدعوة الإسماعيلية باثّاً فيها تعاليم مانوية وفارسية وفلسفية يونانية، وبعض تعاليم جلبها من فرق الشيعة الغالية كفرقة الخطابية، ودعا في قوة إلىٰ فكرة التأويل في الآيات القرآنية حتىٰ يمكن فهم معانيها الباطنية المستترة أو قل معانيها الخفية التي ترمز إليها من بعيد.

أرسل عبد الله بن ميمون القداح الحسين الأهوازي إلىٰ الكوفة ليدعو إلىٰ الجمعية فالتقىٰ في سواد الكوفة سنة ٢٧٧هـ برجل نبطي يحمل بعض الغلاّت علىٰ أثوار اسمه حمدان كان أهل قريته يلقّبونه لقباً قبطياً هو قرمط لاحمرار عينيه الدائم[١] وزعم بروكلمان أن معنىٰ هذا اللقب المعلّم السريّ[٢].

وجد الأهوازي في حمدان طلبته فدعاه إلىٰ مذهبه فاستجاب له في حماسة بالغة، وأحسّ الأهوازي بدنو أجله فعهد إلىٰ حمدان قرمط برئاسة الدعوة فجدّ فيها حتىٰ أصبحت له فرقة كبيرة، دعيت باسم القرامطة نسبة إليه[٣]، ولم يكن يقبل أحد في جماعتهم إلا بعد اختبارات ومراسيم خاصة.

بدأ نشاط القرامطة سنة ٢٧٧هـ بالقرب من الكوفة وبعد حوالي تسع سنوات أصبح للقرامطة دولة مستقلة علىٰ الضفة الغربية من الخليج العربي (البحرين) ومن الكوفة والبحرين نشر القرامطة الخراب في كل مكان، حيث كان شعار هذه الفرقة النهب والسلب والقتل وقد شكلت خطراً كبيراً علىٰ الدولة العباسية، في سنة ٣١٥هـ خرج أبو طاهر الجنابي القرمطي في ألف فارس وخمسة آلاف رجل متجهاً إلىٰ الكوفة، وعلم المقتدر، فجهز لحربه يوسف بن أبي الساج في عشرين ألفاً وتقاتلا علىٰ أبواب الكوفة موطن شاعرنا المتنبي ودارت الدائرة علىٰ جيش

---

(١) حمدان عبد المجيد الكبيسي: عصر الخليفة المقتدر ص٤٥٤.

(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٢٢٩.

(٣) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي جـ٤.

الخليفة المقتدر، فندب الخليفة مؤنِساً[1] لقتاله في أربعين ألفاً وانضمّ إليه أبو الهيجاء ابن حمدان وأخوته في أصحابهم وأعوانهم، ووقعت بينهم مناوشات.

في سنة ٣١٧هـ وافىٰ أبو طاهر الجنابي القرمطي الحجاج في يوم التروية وهم يهلّلون ويلبّون، وقتل الحُجّاج قتلاً ذريعاً في فجاج مكة، ودخل البيت الحرام وهم متعلقون بأستار الكعبة، ويقال إنه قتل منهم نحو عشرة آلاف، طرح كثيراً منهم في بئر زمزم وعرّىٰ البيت الحرام من كسوته وخلع بابه واقتلع الحجر الأسود وأخذه معه إلىٰ هجر ونهب جميع التحف التي زين بها الخلفاء الكعبة، ويقال إنه كان يجلس علىٰ باب الكعبة والحجيج يُصْرعون حول المسجد وهو ينشد:

أنـــا الله وبـــاللهِ أنـــا يخلـــقُ الخلـــق وأفنيهـــم أنـــا

يقول الديلمي: «روي عن أبي سعيد الجنابي أنه قال: الإسلام ليس بشيء وكذلك اليهودية والنصرانية، إن صحَّ شيء فالمجوسية»[2].

كان أبو طاهر زنديقاً لا يصلّي ولا يصوم ولا يؤدّي فرائض الإسلام مع التظاهر بأنه مسلم.

والقرامطة يعبدون العقل فالعقل عندهم هو الله، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً، وأما بقية الناس فهم علىٰ رأي أبي الطاهر «حمير» وأنهم مشركون وتجب إبادتهم عن بكرة أبيهم»[3].

إن القرامطة وضعوا علىٰ الله شروطاً حتىٰ يعبدوه ويقيموا له الصلاة وقد قال أحد شعرائهم لزوجته التي لامته علىٰ ترك الصلاة[4] حيث قال:

تلـوم علـيّ تـركـي الصـلاة حليلتـي فقلت اغربي من ناظري أنت طالقُ

---

(١) مؤنس (٢٣١-٣٢١هـ) مؤنس الخادم الملقب بالمظفر المعتضدي، أحد الخدم الذين بلغوا رتبة الملوك وكان من خدم المعتضد العباسي، كان فارساً شجاعاً من الساسة الدهاة بقي ستين سنة أميراً، ندب لحرب العبيديين، النجوم الزاهرة جـ٣ ص٢٣٩، جـ٨ ص٢٩٢.

(٢) سامي العياش: الإسماعيليون ص١٠٨.

(٣) طه الولي: القرامطة ص٩١.

(٤) المرجع نفسه: القرامطة ص٩٢.

فـــوالله مـــا صلّيـــتُ لله مُفْلســـاً يصلـي لـه الشيـخ الجليـل وفـائـق
لمـاذا أصلـي، أيـن ربعـي ومنـزلـي وأيـن خيـولـي، إننـي لمنـافـق
أصلي: ولا فتر من الأرض يحتوي عليـه يمينـي؟ إننـي لمنـافـق
بلـىٰ.. إنّ علـيّ الله وسـع لـم أزل أصلـي لـه مـا لاح فـي الجـو بـارق

يقول الطبري عن الديانة القرمطية في تاريخ الأمم والملوك: «إنهم قد أحدثوا ديناً غير الإسلام وأنهم يرَوْن السيف علىٰ أمة محمد إلا من بايعهم علىٰ دينهم، والصلاة عندهم أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان قبل غروبها، والآذان أن يقول: الله أكبر ثلاث مرات أشهد أن لا إلٰه إلا الله مرتين أشهد أنّ آدم رسول الله، أشهد أنّ نوحاً رسول الله، أشهد أنّ إبراهيم رسول الله، أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله، وأن يقرأ في كل ركعة الاستفتاح وهي من المنزل علىٰ أحمد بن محمد بن الحنفية، والقبلة إلىٰ بيت المقدس والحج إلىٰ بيت المقدس ويوم الجمعة ويوم الإثنين لا يعمل فيه شيئاً»[1].

كيف يمكن اعتبار القرامطة مسلمين أو علىٰ الأقلّ من المسلمين وكيف يصح لنا أعطاء الهُويّة الإسلامية لمثل هؤلاء القوم الذين ألّهوا العقل وجعلوا علىٰ الله شروطاً حتىٰ يعبدوه ويقيموا مناسكه ويطبقوا شريعته[2].

إن القرامطة يرَوْن في التكاليف الشرعية نوعاً من العقاب الدنيوي لمن لا يعرفون «الإمام» ولا يؤمنون به، قال النويري في نهاية الأرب إن الحسين الأهوازي أباح للقرامطة أتباعه الأموال، وأعفاهم من الصلاة والصوم[3].

ويقول ابن حزم الأندلسي عن القرامطة: «إنهم يجاهرون بترك الإسلام جملة وتفصيلاً»، يقول عبد الله غريب[4]: «تظاهر القرامطة في بداية دعوتهم بانتسابهم إلىٰ إسماعيل بن جعفر الصادق وتتّسم دعوتهم بالمرحلية».

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ١٣ ص٣٣٧-٣٤٠.
(٢) طه الولي: القرامطة ص١١٥.
(٣) المرجع نفسه: القرامطة ص١١٦.
(٤) عبد الله محمد غريب: وجاء دور المجوس ص٦٩-٧٢.

ففي المرحلة الأولىٰ ينادون بالتشيع لآل البيت، وفي المرحلة الثانية يقولون بالرجعية وأن علياً يعلم الغيب، وفي المرحلة الثالثة يشرحون للمدعو مثالب علي وأولاده وببطلان ما عليه أهل ملّة محمد ﷺ، ويوصون دعاتهم وإن وجدت فيلسوفاً منهم حمدتنا، لأننا نتفق وهم علىٰ أبطال النواميس والأنبياء وعلىٰ قدم العالم».

إن ظاهر مذهب القرامطة الرفض، وباطنه الكفر، ومن مصطلحاتهم أن الجنابة هي مبادرة المستجيب بإفشاء سر قدم إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق، والزنا إلقاء نطفة العلم الباطن إلىٰ نفس من لم يسبق معه عقد العهد، والنسل تجديد العهد، فزعماء القرامطة كلهم من الفرس ويطلق عليهم (الباطنيون) أو (الحشاشون) أو الفدائيون.

ودعا القرامطة إلىٰ مؤاخاة الناس علىٰ اختلاف دياناتهم وأجناسهم وطبقاتهم فدعوة القرامطة صورة لدعوة مزدك.

أما المستشرقون أمثال ماسينيون بلاشير وبروكلمان فيعتبرون الحركة القرمطية حركة دينية إصلاحية، ولذلك نسب هؤلاء المستشرقون المتنبي إلىٰ القرامطة.

هل كان المتنبي قرمطياً:

يذهب ماسينيون إلىٰ أنّ القرمطة أثّرت في أسلوب المتنبي وصياغته، وإليها يرد كثيراً من المظاهر الفنية في شعره، إذ يحسّ أثرها في ترفعه، وما يشعر به الإنسان عنده من مرارة وهو يلاحظ أنّه كان من شعراء البلاط ولكن قرمطيته جعلته لا يتغزل في الغلمان، ولا يصف جمال الجسد الإنساني، كما ابتعد عن الزهد، كما أنّه يثور في شعره علىٰ الدهر ونواميس المادة ثورة قرمطية، ويستعمل بعض الألفاظ التي تجدها عند الإسماعيلية في إخوان الصفا مثل (قدس الله روحه) (الفلك الدوار) (الثقلان)[1].

---

(١) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر الحديث ص٣١٢.

فمـــالَـــكَ تختـــارُ القِسِـــيَّ وإنَّمـــا عن السِّعد يَرْمي دونَكَ الثَّقلانِ[1]

كذلك يوجد في الديوان كلمات مثل (المهدي) (القائم) (الخلف)، ويضرب ماسينيون مثلاً لذلك فيقول: إنّ المتنبي رأىٰ أنّ الشمس لا يصحّ أنْ توضع تحت مرتبة الهلال إذ يقول:

ومـا التـأنيـثُ لاسـم الشمـس عَيْـبٌ ولا التـــذكيـــرُ فخـــرٌ للهـــلال[2]

وأمّا شوقي ضيف[3] فإنه يردّ علىٰ ماسينيون قائلاً: «إذ إنّ هذه الصّلة التي عقدها ماسينيون بين المتنبي والقرامطة غير صحيحة في جملتها وتفاصيلها فالمتنبي لم يكن يوماً قرمطياً، ولا متأثراً بالقرامطة، ومن التكلف الواضح في حمل البيتين علىٰ ما أرادهما من معنىٰ».

أمّا زكي المحاسني[4] فإنه يقول: «لقد عزا ماسينيون ما عند المتنبي من صلابة الأسر وتوقّد الحماسة والميل إلىٰ الحرب إلىٰ نزعةٍ قرمطية، إنّ هذا المذهب ارتآه ماسينيون حين وَجَد القرامطة يدهمون الأمصار في عصر أبي الطيب، إنّ ميلَ أبي الطيب إلىٰ الحرب، نزعة عربية حرة، في عصر عانىٰ فيه العرب الانقسام والتناحر ومكايد الفرس والترك، فكان أبو الطيب صاحب رسالة حربية من أجل تحرير العرب من ربقة العجم، وتجديد حياتهم بردهم إلىٰ المثل العليا، واستئناف مسيرتهم الإسلامية الصحيحة».

أما بلاشير[5] فإنه يقول: «سكن المتنبي بادية السماوة، وكانت قد انتشرت تعاليم القرامطة في قبيلة كلب، ومن الجائز أن بعض دعاة القرامطة حاول تلقينها ولداً مهيئاً بحكم تشيعه لتقبل تعاليم القرمطية، حيث يقال إنّ تلقين مبادىء

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص١٨.

(٣) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص٣١٣.

(٤) زكي المحاسني: المتنبي ص٦٢.

(٥) بلاشير: أبو الطيب المتنبي ص٥٠-٥٩.

القرمطية يبدأ بالدعوة إلىٰ التشيع، وفي الحق أنّ هذه الفرضية لا تقوم إلاّ علىٰ القرائن، وإذا ما أعوزتنا الشواهد القاطعة، فإننا نجد في ديوانه صرخات تمرد، ودعوة إلىٰ العنف جديرة أن تصدر من غلام أُصيب بتأثرات قرمطية.

وفي هذه الفترة ٱتصل بأبي الفضل الكوفي وهو شخصية غامضة حيث إنَّ كنيته لا تتيح لنا التحقق من شخصيته، ووصف أحدهم أبا الفضل من الناحية الخلقية فقال: «إنّ أبا الطيب وقع في صغره إلىٰ واحد يكنىٰ أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوسه وأضلّه ويفرض علينا المنطق أن نضع أبا الطيب في جملة مثيري الفتن السياسيين الدينيين.

انظر إلىٰ هذه الأبيات تجد أنَّ الشاعر من خلالها مفتون بجرأة زعماء القرامطة للمشاركة بثورتهم.

أرىٰ أُناساً ومحصولي علىٰ غَنَمٍ ... وذِكْرَ جودٍ ومحْصولي علىٰ الكَلِمِ
سيَصْحَبُ النّصْلُ مني مثلَ مضرَبِهِ ... ويَنْجلي خبري عن صِمّةِ الصَّمَمِ
لأتركَنّ وجوهَ الخيْلِ ساهمةً ... والحربُ أقومُ من ساقٍ علىٰ قدَمِ
بكلِّ مُنْصلتٍ ما زالَ مُنْتَظري ... حتّىٰ أدَلْتُ له من دولةِ الخَدمِ
شَيْخٍ يرىٰ الصلواتِ الخمسَ نافلةً ... ويستحلُّ دمَ الحجّاجِ في الحرمِ[1]

أما عزام[2] فإنه يقول بخصوص هذه الأبيات: «لقد ظنّ بلاشير أنَّ هذه الأبيات إشارة إلىٰ ما فعله أبو طاهر الجنابي القرمطي في مكة سنة ٣١٧هـ، إذْ قتل الحُجاج في مكة في الحرم، وأخذ الحجر الأسود إلىٰ هجر، ولستُ أجد لبلاشير حجة، فإنْ صح أنّ في الأبيات إشارة إلىٰ هذه الوقعة، فقد يشير الشاعر إلىٰ وقعة بعد سنين من وقوعها، وليس بعيداً أن يكون أبو الطيب سمع بوقعة أبي طاهر ثم أشار إليها في أبيات نظمها، علىٰ أنّ الأبيات ليس فيها إشارة واضحة إلىٰ أبي طاهر القرمطي وأصحابه، وجائز أنه أراد وصف أنصاره بالقتل والجرأة، فالقرامطة لقيت

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٣٩-٤٢.

(٢) عبد الوهاب عزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٢٤٢.

منهم الكوفة وأهلها مصائب أخذ الشاعر نصيبه منها، فما أحسبه مال إليهم ولا سلك طريقهم، وأقل ما في الأمر أنه دعوىٰ يعوزها الدّليل».

إن الواضح من الأبيات السابقة التي أشار إليها بلاشير أن نفس المتنبي تكاد تذهب حسرات فالنّاس من حوله مسخرون للحكام كأنهم أغنام، أو أنعام لذلك يعلن أنه قد صمم علىٰ أن يشن علىٰ أعدائه حرباً شديدة لا هوادة فيها، يخوضها الفرسان علىٰ خيولهم وقد أشرعوا رماحهم، وتعاهدوا علىٰ الثبات بل علىٰ إفناء الأعداء. وأنه ماض ليستميت في الحرب والنزال حتىٰ يخلّص وينقذ الأمة من دولة الأعاجم بل دولة الخدم والعبيد الذين استذلوا ساداتهم من العرب، ويصف المتنبي أنصاره بأنهم شجعان لا يبالون بالموت في سبيل ما يريدون.

يقول شوقي ضيف[1] بخصوص البيت التالي:

شَيْخٍ يَرىٰ الصلواتِ الخمسَ نافِلَةً ويستحِلّ دَمَ الحُجَّاجِ في الحَرَمِ[2]

لقد ظن بلاشير ومن بعده طه حسين أن في هذا البيت ما يشير إلىٰ القرمطية وهذا بُعد في الفهم والتقدير.

إنَّ المتنبي في البيت السابق يرىٰ جُرأة أنصاره الذين يأملُ منهم نصرته في القضاء علىٰ حُكْمِ أعداء العرب من الرقيق التُركي الذي استشرىٰ فساد حكمهم.

أما حمدان عبد المجيد الكبيسي[3] فإنه يقول: «وأما الكوفة التي وُلِدَ فيها المتنبي فقد هاجَمها أبو طاهر واحتلها مدةً من الزمن ولم يُشِرْ أي مصدر بأنَّ المتنبي قد اتصل بهم وأخذ تعاليمهم بل بالعكس حاربهم مع المحاربين».

أما طه حسين[4] فإنه يقول: «إن المتنبي أصبح قرمطياً من أثر بقائه في البادية، إذ إنّ القرامطة منذ ظهورهم كانوا يجدون في بادية الشام حماسة للدعوة فهو ثائر،

---

(١) شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده ص٨٠.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٤٢.

(٣) حمدان عبد المجيد الكبسي: عصر الخليفة المقتدر ص٤٥٤.

(٤) طه حسين: مع المتنبي ط١٢ ص٤٢-٤٣.

وأصبح داعية من دعاتهم»، ويقول أيضاً: «إن رحلة المتنبي إلىٰ البادية قد نفعته بناحيتين: فقد ربا جسمه، ونما عقله، وفصح لسانه، وتعلم أصول القرامطة، وعرف مذاهبهم النظرية والعملية».

ثم يقول طه حسين: «انظر قبل كل شيء إلىٰ هذه الأبيات التي استبقاها المتنبي في ديوانه، وهي عندي بقية من قصيدة لعلها كانت مطولة مفصلة فلما أراد جمع ديوانه حذف منها أكثرها، وهذه الأبيات كافية كل الكفاية لإثبات قرمطيته»، قال أبو الطيب:

إلىٰ أيّ حينٍ أنت في زِيِّ مُحْرِمِ؟ وحَتىٰ متى في شِقْوةٍ إلىٰ كم؟
وإن لا تَمُتْ تحتَ السّيوفِ مُكَرّماً تَمُتْ وتُقاسِي الذلَّ غيرَ مُكرَّمِ
فثِبْ واثقاً بالله وِثْبةَ ماجِدٍ يرىٰ الموتَ في الهيجا جنى النَّحْلِ في الفمِ[1]

يقول طه حسين[2]: «وليس عندي من شك أن هذه الأبيات تصوّر ما عاد به الغلام من البادية، بعد أن عاش في بيئتها المقتنعة بالمذهب الجديد، وتُصوّر ما عاد به الغلام من البادية من هذه الرصانة اللفظية التي ترفع اللفظ من الابتذال».

أما مارون عبود[3] فيعلق علىٰ هذا بقوله: «إننا ننكر تعلمه أصول القرامطة فما خرج المتنبي إلىٰ البادية إلاّ ليتسنىٰ له القول في حفظه لكلام العرب»، ويقول: «قلّبْتُ الأبيات التي يستشهد بها طه حسين علىٰ قرمطية المتنبي ظهراً لبطن فما وجدت بها دليلاً علىٰ هذه القرمطة المزعومة».

وما أخال المتنبي قرمطياً إلا في مشيته فإن رضي طه حسين بهذا فقد اتفقنا أما محمود شاكر[4] فيعلق علىٰ قول طه حسين بخصوص الأبيات السابقة قائلاً: «قد رأىٰ طه حسين بأنَّ المتنبي تعلم مذاهب القرامطة النظرية والعملية معاً قيل

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٣٣-٣٤.
(٢) طه حسين: مع المتنبي ط١٢ ص٤٤.
(٣) مارون عبود: الرؤوس ص١٨٢.
(٤) محمود شاكر: المتنبي جـ٢ ص١٣٦.

إيراد الدليل والحجة، وقد تعمد أن يذكر «البادية» بغير تعريف إذ كان يجب عليه أن يعرّفَ ويعين البادية التي رحل إليها المتنبي لأنه إذا صحّ أن الرحلة إلىٰ بادية السماوة وهذا صحيح ولا شك، فمن التهجم أن يقول أنه تعلم أصول القرامطة هنا لأن بادية السماوة (الشام) لم تكن موطناً للقرامطة بل كانت من أعداء القرامطة، وكثرت عليها غاراتهم، واشتدت فيها حروبهم، أما موطن الدعوة القرمطية فكان في جنوب الكوفة «البحرين»، فشأن هذه البادية التي رحل إليها وكثرت عليها غارات القرامطة، وإن كان وجوده لا ينتج القول بأنه كان قرمطياً، وكذلك رحلته إلىٰ بادية الشام لا تأتي بشيء يعضد هذا القول».

إن الأبيات التي استشهد بها طه حسين تدل علىٰ أن المتنبي كان يحث نفسه ويستنهضها لتخلع عنها الهلع والخوف والتردد، وهذا الزِيّ الوادع زي المحرم بالحج إلىٰ بيت الله الحرام الذي لا يستحل سفك الدماء ولا إراقتها، وكأن الشاعر يري أهل بغداد جميعاً يلبسون هذا الزِّي إزاء حكامهم الأعاجم، الذين استذلوهم وأرهقوهم من أمرهم عسراً، وإنه ليدعوهم، ويدعو معهم نفسه إلىٰ خلع ذلك الزِيّ ويلبسوا مكانه دروع الحرب والقتال ليغمدوا سيوفهم في نحور ذوي السلطان.

عندما نقرأ الأبياتِ السابقة ويقرؤها غيرنا لا يرىٰ أحد فيها دليلاً علىٰ القرمطة ولنفرض أن القرامطة من دعاة الخروج علىٰ السلطان والملوك، فهل كل خارج علىٰ السلطان قرمطي بالضرورة؟ فمن عقيدة العلويين الخروج علىٰ السلطان العباسي، فهل العلويون قرامطة؟ هل كل من تكلم بهذه الروح الثائرة المتمردة قرمطي؟ هل تكون دعوة من نافح عن بلاده إذا حمل السلاح ودعا إلىٰ التحرير والكفاح فيه نزعة قرمطية لأنها تهدد بسفك الدّم؟

هل إذا قام في أيامنا هذه رجل مخلص وطّن نفسه للعمل علىٰ مكافحة ومقارعة الاستعمار من أجل تخليص البلاد من الاحتلال الأجنبي البغيض يكون قرمطياً؟ هل إذا قام رجل فأخذ بالشعر يبعث الحمية والنخوة ويستنهض الأمة من

أجل الثورة علىٰ الكافر المستعمر وأعوانه وأذنابه وأجرائه يعتبر قرمطياً؟ هل كل متغنٍّ بالفروسية متعطّش للدماء يكون قرمطياً؟

إذا كان القرامطة يفخرون بما كانوا يفعلون فإن غيرهم ممن لا يدينون دينهم يتغنون بما يتمنون أن يفعلوه بهم تشفياً منهم ووضعا للأمور في نصابها.

إن الثورة والتحريض علىٰ القتل لا تعني القرمطية حتماً بل قد يكون ثورة علىٰ القرمطية وتقززاً منها.

يقول محمد عبد الرحمٰن شعيب[1]: «إذا دققنا النظر في شعر المتنبي لا نجد فيه شيئاً من أصول دعوة القرامطة، فأين الشعر الذي يمجد أئمة الدعوة؟ أين التغني بدعاتها من أمثال: عبد الله بن ميمون القداح، حمدان قرمط، وأبي طاهر الجنابي؟ وإذا كان المتنبي ترك ذلك تقية وستراً فأين الشعر الذي يشتم فيه توجيه المسلمين إلىٰ نبذ معتقداتهم والاستخفاف بمقدساتهم التي نبذها القرامطة ومرغوها في التراب؟ أين الشعر الذي يروّج لمذهب القرامطة، ويحثّ علىٰ مبادئهم، ويتغنىٰ بآرائهم، ويردّ قول دعاتهم في الأمانة وتأليه الخلفاء وتوقع الخلاص علىٰ يد المهدي؟ كلّ ذلك لم نجده في ديوانه، وكل ما وجدناه دعوة إلىٰ سفك الدم مع أنها قد تكون دعوة إلىٰ سفك دم القرامطة أو دماء الجند والسلاطين الذين ما استطاعوا أن يردّوا القرامطة عن الكوفة ملهىٰ طفولة المتنبي، علىٰ أننا لم نجد من خصومه الأولين وما أكثرهم عدداً وأسلطهم لساناً، وأسرعهم إلىٰ الثلم والعيب مَنْ تعرض لهذه الناحية، ولقد كانت مجالاً فسيحاً لغمزه والقضاء عليه وكلنا يعرف مدىٰ تعصب المتنبي للعرب تعصباً أنساه نفسه بحضرة ابن العميد حين قال له: «مالي وللديلم»[2]، وبحضرة عضد الدولة حين قال عنه: «سيف الدولة يعطي طبعاً وعضد الدولة يعطي تطبعاً»[3].

---

(١) محمد عبد الرحمٰن شعيب: المتنبي بين ناقديه ص٣٤٦.

(٢) البغدادي: خزانة الأدب جـ٢ ص١٤٤.

(٣) يوسف البديعي: الصبح المنبي ص٢٨-٢٨٩.

ويقول شعيب[1]: «إن سنّ المتنبي إبّان ثورة القرامطة كانت تسع سنوات وهي سنّ لا تسمح لنا أن نخلع عليه صفة الدعاة لدعوة خطيرة تحتاج إلىٰ اللباقة وبراعة الحجة وقوة العارضة وإلىٰ مزيد من الكيد والمكر».

ويقول شعيب[2]: «وما كان للمتنبي أن يخضع بالولاء لإمام باطل وخليفة زائف هذا من الوجهة النظرية، أما من الوجهة الواقعية فالرواة يحدثوننا أن الرجل ما كذب ولا زنا ولا لاط، وإنما كان يعزف عن اللهو والشرب».

وداع بدين قبيح أصوله هذه الشيوعية المدمرة يعزف عما تحله له شريعته من مظاهر السلوك أقل ما يوصف بأنه برىء منها منحرف عنها.

ورب قائل يقول إنه كان يرجو القضاء علىٰ الخلافة العباسية بجند يرون الصلاة نافلة ويستبيحون دم الحجاج بالحرم، والجواب علىٰ ذلك عِداء المتنبي للعباسيين واضح ومشهور ورغبته للإطاحة بهم أمنية عاشت معه وظلت علىٰ لسانه طوال حياته وذلك لأن الخلافة العباسية سيطر عليها العجم والترك والديلم، والخليفة لم يكن له حول ولا قوة، فالأعاجم متحكمون بالحكم والخليفة ألعوبة بأيديهم وهو القائل:

وإنما الناسُ بالملوكِ ومَا تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُها عَجَمُ[3]

فهو يدعو بالثورة علىٰ الحكام الأعاجم الحائرين الذين لا يرعون للعرب حرمة ولا عهداً ولا ذمة.

يقول طه حسين[4]: «إنّ المتنبي إنّما ترك الكوفة بسبب عقيدته القرمطية خِشية علىٰ نفسه أن يؤاخذ، وأنّه خرج إلىٰ الشام بسبب هذه العقيدة ليتصل بالدعاة هناك ويعمل علىٰ نشر الفكر».

---

(١) محمد عبد الرحمٰن شعيب: المتنبي بين ناقديه ص٣٤٧.

(٢) المرجع نفسه ص٣٤٧.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٥٩.

(٤) طه حسين: مع المتنبي ص٤٥.

وهذا الكلام يخالف الحقيقة حيث إنّ المتنبي كان صغير السن وليس من المعقول أن يوكل للأحداث مثل هذا النشاط.

ويقول طه حسين عن الأبيات التالية:

يـا أيُّهـا المَلِـكُ المُصَفـىٰ جَـوْهـراً ... مِن ذاتَ ذي الملكوتِ أسمىٰ مَنْ سما[1]
نـورٌ تظـاهـرَ فيـك لا هـوتيّـةً ... فتكـادُ تَعْلَـمُ عِلَـمَ مـا لَـنْ يُعْلَمـا
ويهُـمُّ فيـك إذا نَطَقْـتَ فصـاحـةً ... مـن كـلّ عُضْـوٍ منـك أنْ يتكلّمـا
أنـا مبصـرٌ وأظُـنُّ أنـي نـائِـمٌ ... مَـنْ كـان يحلُـمُ بـالإلٰـه فـأحْلُمـا
كَبُـرَ العِيـانُ علـيّ حتـىٰ إنَّـهُ ... صـار اليقيـنُ مِـنَ العيـانِ تـوهُّمـا

يقول طه حسين: «إنّ هذه الأبيات تمثل تأثر المتنبي بالمذهب النظري للقرامطة وغلاة الشيعة، وهذه الأبيات مدح المتنبي بها رجلاً يعرف بأبي الفضل أراد أن يستكشفه عن مذهبه، فنحنُ هنا بإزاء رأي صريح في الحلول وهذا صريح في انحراف المتنبي عن الجادة الدينية».

ولكن محمود شاكر[2] يرىٰ في الأبيات السابقة ما يلي: «إنّ المتنبي لم يُرِدْ أن يمتحنَ أبا الفضل وإنّما أراد أنْ يمدحه لا أكثر ولا أقل، والأبيات السابقة لم يقلها إلاّ تندراً وعبثاً بأبي الفضل ذلك الرجل الجاهل المدّعي الفلسفة المسمىٰ بأبي الفضل، إنّ المتنبي أثبت الأبيات السابقة في الديوان ليذكر فيها شخصية كانت تستخرج من قلبه الحزين أقصىٰ الضحك وغاية الاستغراب، لذلك بنىٰ الأبيات السابقة علىٰ المبالغة في المدح، بما ينقل الكلام من معنىٰ المدح إلىٰ معنىٰ الهجاء والسخرية، فأعجم القصيدة التي فيها الأبيات السابقة وأتىٰ فيها كل ساقطة من الفلسفة وما إليها وأخل بعربيتها إخلالاً بيّناً، لم يقع مثله في ساقط شعر أبي الطيب، ولأنّ طه حسين بحاجة إليها في القول بأنَّ المتنبي كان قرمطياً نقلها من هذا المعنىٰ إلىٰ معنىٰ الجد ثم الإلحاد والزندقة.

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٣٠-٣٢.

(٢) محمود شاكر: المتنبي جـ٢ ص١٤٦-١٤٧.

ثم يقول محمود شاكر[1]: «علىٰ أن الرواة ذكروا أبا الفضل هذا فقالوا: «إن المتنبي وقع في صغره إلىٰ واحد يكنىٰ أبا الفضل (بالكوفة) وليس بالبادية من المتفلسفة فهوسه وأضلّه كما ضلّ».

فهذا النص صريح في أن أبا الفضل كان بالكوفة لا بالبادية وأنه كان من المتفلسفة لا من القرامطة، ولو أنه كان من القرامطة لذكروا ذلك ولبالغوا فيه، لعظم عداوته لأبي الطيب، ثم إن المتفلسفة إنْ يكونوا ضلالاً فإنَّ الحرج في وصفهم بالكفر والإلحاد كثير».

وأما القرامطة فأهل العلم جميعاً يرمونهم بالكفر والزندقة والإلحاد في غير حرج، وعنوان القصيدة في ديوانه قال وهو في المكتب بينما يقول طه حسين قال بعد عودته من البادية.

ثم يعلق شاكر أيضاً فيقول: «إن بلاشير الحاقد الكافر يقول: إنه من المحتمل أن يكون المتنبي قد اتصل ببعض القرامطة ثم «يرجح» أن هذا الاتصال لم يترك أثراً في حياته وشعره، أما طه حسين فقد حوّل المحتمل يقيناً لا شكاً، وجعل هذا الاتصال الذي لم يترك أثراً في حياته وشعره عند بلاشير، كان له أكبر الأثر وأوضحه في حياة المتنبي».

أما عمر فروخ[2] فإنه يقول: «تذكر بعض الرواة أن أبا الطيب ووالده غادرا الكوفة لما انكشفت لهما صلة بالقرامطة، مع أن حالة القرامطة كانت في ذلك الحين شديدة الاضطراب.

إننا لا نستطيع أن نجزم بشيء لم يذكره التاريخ ولا أشار إليه أبو الطيب من قريب أو بعيد».

إنّ التزام المتنبي وانتظامه بين أعضاء الجماعة القرمطية مستبعد بل مستحيل للأسباب التالية:

---

(١) محمود شاكر: المتنبي ص١٤٧-١٥٠.

(٢) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ص٤٥١.

أولاً: إنّ أبا الطيب كان يكره سيادة العبيد والخدم وأن رفع هؤلاء كان من الشعارات التي استعانت بها القرمطية لاجتذاب البؤساء إليها.

ثانياً: أنّ المتنبي كان يحتقر النبط ويراهم شعباً ضعيفاً قليل الهمة والفروسية لا يرتفعون إلىٰ ركوب الخيل ويستسهلون ركوب الجحاش ولا يصلحون لقيادة الثغور بالإضافة إلىٰ أنهم مغموزو النسب.

تُطاعِنُ كُلُّ خَيْلٍ سِرْتَ فيها ... ولَوْ كان النَّبيطُ علىٰ الجحاشِ[1]

وقال:

وماذا بمصْرٍ مِنَ المُضْحِكاتِ ... ولكنَّه ضَحِكٌ كالبُكا
بها نَبطِيٌّ مِنْ أهلِ السَّوادْ ... يدَرِّسُ أنسابَ أهلِ العُلا[2]

والقرمطية نمت بين النبط واعتمدت في أول أمرها عليهم.

ثالثاً: علىٰ أثر البيت الذي وصف فيه سيف الدولة بالقائم الملك الهادي جاء بيت آخر أحيىٰ فيه ذكرىٰ والده الذي عفّر القرامطة:

القائمُ الملكُ الهادي الذي شَهِدَتْ ... قِيامَهُ وهُداهُ العَرَبُ والعَجَمُ
ابنُ المُعَفِّرِ في نَجْدٍ فوارِسها ... بِسَيْفِهِ وَلَهُ كوفانُ والحَرَمُ[3]

رابعاً: أنه لم يمدح قرمطياً واحداً، ولم تؤثر عنه علاقة أو اتصال بهم أو حارب إلىٰ جانبهم، أو حضّ علىٰ الانتساب إلىٰ مذهبهم، بل علىٰ العكس حاربهم حينما اعتدَوْا علىٰ الكوفة.

خامساً: فردية أبي الطيب التي تأبىٰ الطاعة والانضباط والخضوع لما يفرضه الالتزام من تقيد في الفكر والعمل، التي حالت بينه وبين الاستقرار في مكانه والاطمئنان لدىٰ قوم طوال حياته.

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢١٣.
(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٤٣.
(٣) المصدر نفسه جـ٤ ص٢٦.

سادساً: إنه لم يشع في مرجع قديم ما يشير إلىٰ هذه التهمة.

سابعاً: ومما يؤكد ضمور تأثره بالقرمطية أنه ألحّ علىٰ تمجيد الأمير المجاهد سيف الدولة خلال رجولته لحمايته الحجيج بعد أن أحل سيفه لدم القرامطة.

تَبيتُ به الحواضِنُ آمناتٍ وتَسلم في مسالِكها الحجيجُ[1]

ثامناً: إن المتنبي عربي صحيح النسب يعتز بعروبته علىٰ حين كان للأعاجم دور كبير في توجيه القرامطة، وفي تحديد أهدافهم البعيدة ضد المجد العربي، حتىٰ لم يجد أبو طاهر الجنابي اسماً يسمىٰ به ابنه إلاّ «سابور» ملك الفرس، كناية عن العمل علىٰ إعادة سلطانهم الغابر، وأين؟ في البلاد العربية ذاتها.

ومن الناس من اتهم المتنبي بالقرمطية نتيجة الخلاف الناشىء بينه وبين أبي فراس الحمداني، والجواب علىٰ هذا الرأي ما يلي:

إن المتنبي عاش في ظل الدولة الحمدانية سنة ٣٣٧-٣٤٦ وكان المتنبي معجباً ببطله العظيم سيف الدولة الحمداني، والحمدانيون أعداء للقرامطة، وكان المفروض لو أن المتنبي قرمطي أن يختلف مع الأمير لا أن يصاحبه ويعجب به، ومن هنا لم يُصِبْ من جعل سبب الخلاف بين أبي فراس والمتنبي قرمطية المتنبي.

إن المتنبي كان يدعو إلىٰ أن يتولىٰ أمر الخلافة والولاية والإمارة كل من كان أهلاً لها، وهذا يخالف دعوة القرامطة في ضرورة جعل الولاية وراثية محصورة في الأئمة.

هجاء المتنبي للقرمطي «ضُبَّه» الذي يعتبر من أقذع ما كتبه الشاعر في شعر الهجاء وهذا خير ما يمثل استنكاره للقرامطة[2].

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٣٧.

(٢) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي وأثرها في شعره ص١٤٩.
هادي نهر: مع المتنبي في شعره الحربي ص٢٨٩.

عدم ملازمة الشاعر للقرامطة سواء أكان في صغره أم في كبره مع العلم أنه حاربهم ومدح من حاربهم القائد «دلير بن لشكروز».

يقول بلاشير[1]: «ظل المتنبي في بغداد قرابة عام وأخيراً صرف النظر نهائياً في مطلع عام ٣٥٢هـ عن مشاريع العودة إلىٰ سوريا وشد الرحال إلىٰ الكوفة، وما كان يحط عصا الترحال حتىٰ هاجم القرامطة الكوفة، فيقوم المتنبي في الدفاع عن المدينة ويساعد علىٰ رد المهاجمين علىٰ أعقابهم».

فالمتنبي كان عربياً صحيح النسب، عربي النشأة، عربي الطباع، حارب الشعوبية التي ظهرت في عصره علىٰ أكمل وجه وحاول تخليص المجتمع من الأخلاق الذميمة التي انتشرت والتي جعلتهم يخضعون للأعاجم.

إن شعر المتنبي يمثل أحاسيس العرب ويترجم نفسياتهم، يعبر عن الرجولة وعن مضاء العزيمة وعن الشمم والإباء وعن النظرة الجديدة للحياة، إن شعره يترجم أحاسيس العرب وميولهم وتذمرهم مما يشاهدونه من تحكم أُغيْلمة الديلم والترك وأذنابهم وأعوانهم.

لقد كان هدف المتنبي تكوين دولة عربية علىٰ أُسس سليمة فإذا قلنا إنه لو نجح في تكوين هذه الدولة لكان ذلك من الخير للعرب والإسلام، لم يكن في قولنا شيء من المبالغة، لأن الرجل كان قوة هائلة لا تقف عند حد ولا ترجع عن قصد، فكان ينفخ في جسم الدولة المتهالك، ويهيب بالأمة إلىٰ حياة المجد والعظمة فما يكون بأسرع منها بالاستجابة والأمثال عليه صادعة بأمره صادرة عن قوله[2]:

لا افتِخـــارٌ إلا لِمَـــن لا يُضـــامُ ... مُـــدْرِكٍ أو محـــاربٍ لا يَنـــامُ

واحْتِمـــالُ الأذىٰ ورُؤْيـــةُ جـــانيـ ... ـــه غـــذاءٌ تَضْـــوَى بـــه الأجســـامُ

---

(١) بلاشير: مجلة المورد، العدد الثالث ص٤٧ عام ١٩٧٧م، حياة أبي الطيب وشعره.

(٢) عبد الله كنون: مجلة الرسالة عدد ١٣٠ ص٢٠٩٥.

ذلَّ مَــنْ يَغْبِــط الــذليــلِ بِعَيْــشٍ رَبَّ عَيْــشٍ أخــفُّ مِنْــهُ الحِمــامُ
مَــنْ يَهُــنْ يَسْهُــلِ الهــوانُ عليــه مــا لِجُــرحٍ بميِّــتٍ إيْــلامُ[1]

لذلك نستطيع أنْ نقررَ أنّ المتنبي لم يكن قرمطياً كذلك لم يكن من غلاة الشيعة وإنما كان من الشيعة الزيدية، والزيدية معتدلة ترىٰ أنّ أهل البيت أحق بالخلافة من سواهم من غير أنْ تذمَ أحداً مِنَ الصحابة أو تتبنىٰ التأويلات الباطنية، لذلك لا تناقض في هذه القصيدة مع فكرة التوحيد.

* * *

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٩٢-٩٤.

اتصال المتنبي ببلاط سيف الدولة

لم يزل المتنبي بعد خروجه من الاعتقال في خمول وضعف حال في بلاد الشام حتىٰ اتصل بأبي العشائر بأنطاكية، حيث كان والياً عليها من قبل سيف الدولة، وكان أبو العشائر الحمْداني شاعراً مبدِعاً ومحارباً باسلاً، شديد العداوة للروم والترك والديلم الذين توالت غاراتهم علىٰ الدولة العربية بالجيوش تارة، وبالدسائس والمكايد تارة أخرىٰ، وكان المتنبي قد عرف بني حمدان وخاصة سيف الدولة من قبل سنة ٣٢١هـ.

أجل دخل أبو الطيب أنطاكية سنة ست وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، ليلقىٰ العربية في مجلس بني حمدان، أراد أن ينقل شعره من تكاليف المدح إلىٰ الانطلاق والاسترسال في مدح من هم مِنْ رأيه، ومن يجد فيهم مرضاة نفسه وآماله، ولئن كان قبل قد مدح القوم العلوج ليستخرج منهم بعض أموالهم التي غلبوا الأمة العربية عليها، فقد نزل المتنبي علىٰ أبي العشائر، فأكرمه فقال:

فَسِرْتُ إليكَ في طَلَبِ المَعالي ... وسارَ سِوايَ في طَلَبِ المَعاشِ[1]

ونال عنده حظوة ومكانة ممتازة، حيث عرف أبو العشائر منزلة الشاعر معرفة حقة.

ولكن بدأت وشاية الوشاة بأنطاكية تفعل أفاعيلها، وشعر الشاعر بذلك فدل أبا العشائر عليه بلطف حيث قال:

فيا بَحْرَ البُحورِ ولا أَوَرّىٰ ... ويا مَلِكَ الملوكِ ولا أُحاشي
كأنَّكَ ناظِرٌ في كُلِّ قَلْبٍ ... فما يَخْفىٰ عَلَيْكَ مَحَلّ غاشِ
أأصْبِرُ عَنْكَ لَمْ تَبْخَلْ بشَيءٍ ... ولم تَقْبلْ عليَّ كلامَ واشِ[2]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢١٦.

(٢) المصدر نفسه ص٢١١-٢١٢.

والظاهر أن أبا العشائر قد أصم أُذنيه عن سعاية السعاة والوشاة والحساد.

في سنة ٣٣٧هـ كان سيف الدولة قد آستولىٰ علىٰ أكثر الشام ووقف للروم يصد غاراتهم علىٰ أطراف بلاده وكان يوقع بهم إيقاعاً شديداً وغلبت مقدرته العسكرية علىٰ كل من كان في عصره من القواد.

لقد كان سيف الدولة من دهاة بني حمدان وأوسعهم حيلة، وأشدهم حباً للعرب ودينهم وأكثرهم سعياً في رد الحكومة والسلطان للعرب.

قدم سيف الدولة أنطاكية في جمادىالأولىٰ سنة ٣٣٧هـ فقدّم المتنبي إليه، وأثنىٰ عنده عليه وعرّفه منزلته من الشعر والأدب.

واشترط المتنبي علىٰ سيف الدولة أول اتصاله به أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلاّ وهو قاعد، وأنه لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه فنُسِبَ إليه الجنون، ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط، وتطلع إلىٰ ما يرد منه[١]، فلما أنشدَهُ المتنبي قصيدته التي مطلعها:

وفاؤكُما كالرَّبْعِ أشْجاه طاسِمه بأنْ تُسْعدا والدَّمْع أشْفاه ساجِمه[٢]

حَسُن موقعه عنده، وحكم له بالفضل، وعدّ طلبه استحقاقاً، وأجازه ومالت نفسه إليه فسلمه إلىٰ الرواض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة.

يقول عزام: «فأمّا اشتراط المتنبي ما اشترط، فجدير بنفسه الأدبية، فقد ألف الشاعر أن يتخّذ من الممدوحين أصدقاء لا سادة، وأشفق علىٰ نفسه أن تسام الهوان وأن تكلف ما يكلفه الآخرون في لقاء الملوك، ولم يكن صعباً علىٰ سيف الدولة أن يجيبه إلىٰ ما طلب، فالعربي بطبعه، أبعد النّاس عن أن يرضىٰ العبودية لنفسه أو لغيره»[٣].

---

(١) يوسف البديعي: الصبح المنبي ص٧١.

(٢) الشجو: الحزن والهم مادة شجوىٰ معجم مقاييس اللغة لابن فارس جـ٣ ص٢٤٩.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٢٥.

(٣) عزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٨٣.

أما محمود شاكر فإنه يقول[1]: «نحن لا نُسَلِّم بكل ما ورد في هذا النصّ ولا نثق به، إذا كان مروياً عن غير ثقة مأمون معروف، وإنما هو مما يتداوله الأدباء علىٰ علاته دون نقد أو تجريح ويحسن بنا أن نحدثك عن نقده:

أولاً: إن هذا اللقاء الذي تم سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة (٣٣٧هـ) لم يكن أول لقاء بين المتنبي وسيف الدولة فلقد سبقه لقاء كان سنة ٣٢١هـ عندما غادر الشاعر الكوفة متوجهاً إلىٰ بلاد الشام وكان لقاؤهما برأس عين من أرض الموصل، وقد مدحه الشاعر بقصيدة هذا مطلعها.

ذِكْرُ الصِّبا ومَرابِعُ الآرامِ جَلَبَتْ حِمامي قَبْلَ وَقْتَ حِمامي
صَغَّرْتَ كُلَّ كبيرةٍ وكَبُرْتَ عَنْ لكأنَّهُ وعَدَدْتَ سِنّ غُلامِ[2]

فسيف الدولة كان علىٰ معرفة سابقة بالمتنبي.

ثانياً: إنّ النص يقول: إن أبا العشائر قدّم المتنبي إلىٰ سيف الدولة وعرفه منزلته من الشعر والأدب، وهذا عجب من أمر سيف الدولة الأديب الشاعر السياسي المحنك المطلع علىٰ كل ما كان في البلاد العربية، المتتبع لكل حدث في السياسة والأدب، عجيب أنْ لا يكون قد وصل إليه طرف من شعر أبي الطيب، يعرف منه منزلته في الشعر والأدب، فيأتي أبو العشائر فيعرفه تلك المنزلة.

ثالثاً: إن النّص يقول: إنّ سيف الدولة قد دخل تحت شرط المتنبي حين ٱشترط عليه أنْ لا ينشده إلاّ وهو قاعد، وأنْ لا يكلف بتقبيل الأرض بين يديه ونحن لا نعرف لماذا يدخل سيف الدولة تحت هذه الشروط، ولا نعرف لماذا ٱشترط المتنبي هذه الشروط، إذا كان جاءه علىٰ غير معرفة سابقة بينهما.

رابعاً: إنّ في النص كلمة يراد بها الغضّ من أبي الطيب، وتحقيره إذْ زعم واضعها أنّ سيف الدولة سلم أبا الطيب إلىٰ الروّاض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة».

---

(١) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص١٩٣-١٩٥.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٦-١٠.

إن أبا الطيب كان فارساً قبل ٱتصاله بسيف الدولة، لقد كان فارساً منذ صغره اسمعه يقول لمن قال له: «ما أحسن هذه الوفرة»:

لا تَحْسُنُ الوفرةُ حتّىٰ تُرىٰ مَنْشورَةَ الضِّفْريْنِ يَوْمَ القِتالْ
علىٰ فتىً مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يُعِلُّها مِنْ كُلِّ وافي السّبالِ[1]

فلا جمال في رأيه لوفرة الغنىٰ ما لم ينشرها حاسر الرأس مخيفاً بها الأعداء خائضاً غمار الهيجاء، وقد تسلح برمح قصيرة، ويَسقيها الدمّ المرة بعد المرة من كل رجل مكتمل الرجولة.

إنّ المتنبي الفارس كان يراوده المجد عن نفسه فلا يراه إلاّ بالموت في ظلال السيوف وفي غمرة الهيجاء:

إلىٰ أيّ حينٍ أنْتَ في زِيِّ مُحْرِم وحتىٰ متىٰ في شِقْوَةٍ وإلىٰ كَمِ؟
وإنْ لا تَمُتْ تَحْتَ السُّيوف مُكَرَّماً تَمُتْ وتقاسي الذُّلّ غَيْرَ مُكَرَّمِ
فَثِبْ واثِقاً بالله وِثْبَةَ ماجِدٍ يرى الموتَ في الهيْجا جنىٰ النَّحل في الفم[2]

لقد كان أبو الطيب قَبْل ٱتصاله بسيف الدولة فارساً محارباً ولا شَكّ، فقد اتصل بكثير من أصحاب السلطان وأصحاب الفروسية والطراد والمثاقفة.

فالرواية لا تصلح أنْ تكونَ سِياقاً للقاء أبي الطيب بسيف الدولة، والسياق «نزل أبو الطيب ضيفاً علىٰ أبي العشائر، يمدحهُ ويخبره، ويبرز ما عنده من الهمّةِ وبقي أبو الطيب سنة في ظلّ أبي العشائر، الذي كان أديباً مُقْتدراً مولعاً بالأدب مُبَجِّلاً للأدباء عاطِفاً عليهم مُعيناً لهم وبقي عنده حتىٰ جمادى الأولىٰ سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة حيث قَدِمَ سيف الدولة علىٰ أبي العشائر في أنطاكية، فاستقبله أبو العشائر، وأبلغه ما كان من مَقْدم أبي الطيب عليه وإكرامه له، ووصف له ما حس عند المتنبي، من نفس أبيّة، وخُلُق رفيع، وما وجد فيه من الفتوة، وما

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٥٩.
(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص٣٣-٣٤.

عليه أبو الطيب من الطبيعة الثائرة الجبارة وما انطوت عليه نفسه من حب للعرب وكره للأعاجم فتذكر سيف الدولة المتنبي الذي أنشده مديحه سنة ٣٢١هـ[١].

وذكر سيف الدولة تلك الشخصية، وقد كان أبو الطيب رجلاً ملءَ العين قوياً بديناً فتقدم إلىٰ أبي العشائر يستدعيه لساعته شاكراً له حسن وفائه الرجل وإكرامه له.

في ذلك المكان (أنطاكية) لاقىٰ العربي الثائر الفذ، العربي الفاتح الغازي المجاهد الفذ، فعلقت النفس بالنفس، وحنّ الدم إلىٰ الدّم، وكان هذا اللقاء فاتحة مجد إلىٰ أبي الطيب وخلود ذكر سيف الدولة في شعره وبيانه.

في هذا اللقاء وجد المتنبي آماله في آمال سيف الدولة، وآراءه في آرائه وعواطفه في عواطفه.

لقد رأىٰ المتنبي في سيف الدولة كل الرجولة، لأنه نذر نفسه من أجل أمته لقد كان سيف الدولة بطلاً مؤمناً مجاهداً في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة الله لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الكفر هي السفلىٰ، لقد كان بطل الشاعر يقاتل من أجل مبدأ آمن به.

لقد رأىٰ المتنبي في سيف الدولة ذلك الإنسان الذي تتمثل فيه رغبات الأمة في الخلاص من عدوه المستبد، ذلك البطل الذي أدرك واقع أمته، فوقف في طليعة صفوفها ساعياً إلىٰ خلاصها من ربقة الأعداء، وصولاً إلىٰ مرافيء التحرير والانعتاق.

لقد رأىٰ الشاعر (المتنبي) في سيف الدولة الرجل الذي يعتمد علىٰ السيف في إحقاق الحق، فالحق في رأيه لا يسترجع بالمفاوضات مع العدو، كما هو الحال في أيامنا هذه وإنما يسترجع بالقوة وبحد السيف. فالسيف هو الحَكمُ بين المسلم والكافر، وعلىٰ المسلم أن يقتنع بضرورة الحرب باعتبارها حرب تحرير لا

---

(١) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص١٩٥.

يخوضها المسلم من أجل حاكم أو قائد، وإنما من أجل القضاء علىٰ أعداء الله الذين من هدفهم القضاء علىٰ كل شيء عند المسلمين، كذلك أُعجب شاعرنا ببطله، الذي هو رمز للبطل العربي المسلم الأبي المرسوم في خيال الشاعر، باعتباره حامي الثغور الإسلامية والشعائر الدينية ومؤمن طريق الحجيج.

بقي سيف الدولة بأنطاكية أشهُراً من سنته وأبو الطيب إلىٰ جواره وفي مجلسه، واستصفاه سيف الدولة، ورأىٰ سيف الدولة فيه أنه رجل داهية بصير محنك فقرّبَهُ علىٰ سائر بِطانته. وعَزَمَ سيف الدولة الرحيل عَنْ أنطاكية إلىٰ حلب مقر حكمه ولكن أبا الطيب لم يصحبه بسبب مرض زوجته التي كانت حاملاً، فجاءها المخاض فأعْضَلت وعَسُرت وِلادتها ثُم رَمَتْ ذا بطنها وماتت. فعزم عليه أنْ يلحقه بحلب، وانتقل أبو الطيب بعد موت امرأته بقليل من أنطاكية إلىٰ حلب عندها دخل قصر الأمير، وقال فيه أجمل شعره ألا وهو شِعْرُ الحَرْب الذي يَنْقُلُ القارِىء إلىٰ المعركةِ لِيشْهَدَ صَليلَ السّيف وقراعَ القَنا وصهيلَ الخَيْل، وصياحَ المحاربين ودماءَ القتلىٰ وتأوهاتِ الجرحىٰ وعاش عنده حتىٰ سنة ٣٤٦هـ.

وفي حلب عاش الشاعر ببلاط الأمير حيث شاهد حركة علمية أدبية لغوية نشطة لم تشهدها أية عاصمة عربية أخرىٰ في عصر الدويلات، فلقد كان الأمير الحمداني نفسه عالماً أديباً إلىٰ جانب كونه فارساً ومجاهداً كبيراً، ولعله كان المدافع الوحيد عن حوزة الإسلام يومذاك.

لقد رعىٰ الأدباء وحاول أن يحشد منهم في بلاطه أكبر وأضخم عدد ممكن ينافس به بغداد، فاجتمع في بلاطه من الشعراء فحولهم كأبي فراس والنامي وكشاجم والخالديين والوأواء، ومن النحويين وعلماء اللغة أفذاذهم كأبي علي الفارسي وابن خالويه، وأبي الطيب اللغوي، والأصفهاني ومن الفلاسفة الفارابي.

وجد المتنبي في بلاط سيف الدولة هذا الجو الرفيع، الذي كانت تتوق نفسه إليه، ووجد المناخ العربي الصحيح، والرجل الذي حلم به في صباه، الرجل القائد والقدوة.

وهكذا لزم المتنبي سيف الدولة تسع سنين كانت حافلة بالأحداث الحربية من جهة سيف الدولة، والأدبية من جهة المتنبي، والمؤامرات من جهة الحساد، وانقسم البلاط إلىٰ حزبين: حزب يؤيد المتنبي في شعره وشخصيته، وحزب يشجب تصرفاته ويكشف سرقاته، وحزب ثالث متستر وراء العفة والشرف. في هذا الجو عاش شاعرنا ورافق مجاهدنا في حروبه فقال فيه أفضل شعره وأجمله وأصدقه وأرقاه؛ ذلك أن المتنبي الثائر حين لاقىٰ سيف الدولة الفاتح وجّه كل ما في قلبه من القوة التي دفعته إلىٰ مدح نفسه وذكرها والإفصاح عن آرائها وآمالها إلىٰ مدح هذا الرجل سيف الدولة ووصفه ووصف حروبه وغزواته.

وأخيراً فارقه وهو لا يزال ثابتاً علىٰ محبته والإخلاص له.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

الملامح الإسلامية في شعر المتنبي
وبروز الشخصية الإسلامية في شعره

أ ـ عقيدة المتنبي:

١ ـ الإيمان بالله الخالق.

٢ ـ الإيمان بالملائكة والشياطين.

٣ ـ الإيمان بالأنبياء والكتب السماوية.

٤ ـ الإيمان باليوم الآخر.

ب ـ الرابطة الدينية عند المتنبي.

جـ ـ اقتباس المتنبي من القرآن الكريم وتأثره به.

د ـ الفقه عند المتنبي.

هـ ـ التصوف الإسلامي.

و ـ شعر الجهاد.

ز ـ هل كانت الحروب الحمدانية البيزنطية حروباً صليبية؟

الفصل الثالث

عقيدة المتنبيّ

قبل أن أتحدث عن عقيدة الشاعر عَلَيّ أن أوضّح مفهوم العقيدة.

العقيدة في اللغة لها عدة معان: فتأتي بمعنىٰ الصدق والثبات نقول: اعتقد بينهما الإخاء، أي صدق وثبت. وتأتي بمعنىٰ الصلابة، تقول: اعتقد النوّى، أي صلب. وتأتي بمعنىٰ اللزوم مثل الخيل معقود في نواصيها الخير، أي ملازم، فأساس التسمية في اللغة هو ما انعقد عليه القلب.

والعقيدة هي الإيمان، ومعنىٰ الإيمان هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل لأنه إذا كان التصديق من غير دليل لا يكون إيماناً إذ لا يكون تصديقاً جازماً إلاّ إذا كان ناجماً عن دليل فإن لم يكن له دليل لا يتأتىٰ فيه الجزم، فيكون تصديقاً فقط لخبر من الأخبار ولذا فلا يُعدّ إيماناً وعليه فلا بد أن يكون التصديق عن دليل حتىٰ يكون جازماً أي حتىٰ يكون إيماناً وكذلك لا بد أن يكون هذا التصديق جازماً حتىٰ يكون عقيدة، فإنْ لم يكن جازماً لم يكن إيماناً ولا يُعدّ عقيدة وكذلك لا بد أن يكون هذا التصديق مطابقاً للواقع حتىٰ يكون إيماناً أي عقيدة، فإن لم يكن مطابقاً للواقع فلا يكون إيماناً.

والعقائد والأحكام الشرعية كلّها أفكار فـ«لا إلٰه إلا الله» فكر، و﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] فكر، والفرق بينهما هو أن الحكم الشرعي متعلّق بفعل العبد، أما العقيدة فهي ما طلب الإيمان به، فكل ما كان من أفعال العباد، وما طلب فيه العمل يُعدّ من الأحكام الشرعية وكل ما لم يكن متعلّقاً بأفعال العباد أو ما طلب فيه الإيمان يُعدّ من العقائد، علىٰ أنه يمكن تمييز الفكر ومعرفة كونه من العقائد أو من الأحكام الشرعية من النظر إلىٰ دليله فإن كان الدليل متعلّقاً بأفعال العباد كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فهو من الأحكام

الشرعية، وإن كان الدليل خطاباً متعلقاً بأفعال العباد وطلب فيه الإيمان كقوله تعالىٰ: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، فهو من العقائد. فنصب خليفة للمسلمين، وجهاد الكفار من الأحكام الشرعية، وعصمة الأنبياء، والعذاب يوم القيامة ونعيم الجنة من العقائد.

والأحكام الشرعية يجوز أن يكون دليلها ظنّيّاً ويجوز أن يكون قطعيّاً بخلاف العقائد فإنه يجب أن يكون دليلها قطعياً، ولا يجوز أن يكون ظنياً بحال من الأحوال فالعقائد لا تؤخذ إلا عن يقين. وكذلك عرفوا العقيدة بأنها فكرة كلّيّة عن الكون والإنسان والحياة وعمّا قبل الحياة الدنيا وهو الإيمان بالله تعالىٰ وعمّا بعدها وهو الإيمان باليوم الآخر وعن علاقتها بما قبلها وهي الخلق وبما بعدها وتشمل الإيمان بالملائكة والنّبيّين والكتب المنزلة.

والفكرة الكلية التي حدّدها الإسلام عن الكون والإنسان والحياة هي الفكرة الصحيحة المطابقة للواقع الثابتة بالدليل العقلي الجازم ولا تصل هذه الفكرة لدىٰ الفرد إلىٰ منزلة العقيدة إلا إذا آمن بها إيماناً ناشئاً عن دليل عقلي جازم.

أركان العقيدة الإسلامية:

١ ـ الإيمان بالله.
٢ ـ الإيمان بالملائكة.
٣ ـ الإيمان بالكتب السماوية.
٤ ـ الإيمان بالرسل.
٥ ـ الإيمان باليوم الآخر.
٦ ـ الإيمان بالقدر.

١ ـ الإيمان بالله الخالق:

الإيمان بالله تعالىٰ هو: الأساس الذي تقوم عليه العقيدة الإسلامية وهو أعظم أمر في هذا الدين إذْ يتفرع عنه كل ما في الإسلام من مناهج الإصلاح والخير

والهدىٰ، والإيمان بالله هو المحور الذي ترتكز عليه رسالات الأنبياء جميعاً فكان الإسلام متفقاً مع الرسالات الإلٰهية السابقة في دعوته إلىٰ الإيمان بالله، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

فهل كان المتنبي مؤمناً بالله؟ هذا ما سنراه في شعره.

إنّ دراستي لديوان أبي الطيب تثبت إسلام هذا الرجل، فإنَّ ما في شعر هذا الشاعر يوحي بأنه قويّ الإيمان، عميق النظرة في عقيدته، فاهمٌ لدقائق شريعتها.

إنّ أبا الطيب في أثناء وجوده في كتّاب أشراف العلويّين، حفظ أجزاء كثيرة من القرآن الكريم، وكان لذلك أثر كبير في تكوينه الخلقي والفكري[١].

لقد كان أبو الطيب في أوّل أمره متورعاً[٢]، اسمعه يقول:

تَغَـرَّب لا مُسْتَعْظِمـاً غَيـرَ نَفْسِـه ولا قـابِـلاً إلاّ لخـالقِـهِ حُكْمـا[٣]

كان أبو الطيب لا يخرج عن حدود الوقار مُتّزناً، لا يلين للشهوات، ولا يلقي إليها مقاده، مترفّعاً عن سفساف الأخلاق، متمسّكاً بتعاليمها، آخِذاً نفسه بالجِدِّ الذي لا يفتر، كان لا يقرب التهم ولا يدانيها.

قال علي بن حمزة[٤]: «بلوت من أبي الطيب بثلاث خلال حميدة وتلك ما كذب ولا زنا ولا لاط ولا أتىٰ أمراً منكراً يُؤخذ عليه، خالف الأُدباء من أهل عصره فما شرب الخمر ولا حمل وزرها، كان منصرفاً إلىٰ العلم قارئاً له محقّقاً لدقائقه طويل النظر والتدبر فيما يمر به من أحداث الزمان، كثير الاهتمام بأمر الأمة الإسلامية التي هو فيها»[٥].

---

(١) بلاشير: أبو الطيب المتنبي ص٤٢-٤٣.

(٢) أبو العلاء المعري: رسالة الغفران.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٠٧.

(٤) علي بن حمزة: كان من أئمة العربية، مات في رمضان سنة ٣٧٥هـ في صقلية ولمّا دخل المتنبي بغداد سنة ٣٥٢ كان بها علي بن حمزة فنزل المتنبي في داره وقرأ عليه.
محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص٣٩.

(٥) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص٣٩.

إنّ أبا الطيب يُؤمن بالله الواحد الأحد الذي يقضي بالنّصر لمن شاء من عباده وبالهزيمة لمن رغب.

إنّ شاعرنا لم يُتَّهم بإلحاد ولا زندقة إذا استثيينا ما اتّهِم به في أول حياته من ادّعاء النّبوّة.

ومن حُسْن حظ أبي الطيب أنَّ أحداً من دارسيه لم يُنْكر عليه الركن الأول من أركان الإسلام وهو شهادة أنْ لا إلٰه إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، فهو لم تَبْدُر منه بادرةَ إنكار الذات الإلٰهية وقد أكّد هذه الحقيقة أكثر الباحثين من قدماء ومحدثين.

فقد أكد المعري[١] والجُرجاني[٢] وعزام[٣] وشعيب[٤] وسهيل عثمان ومنير كنعان[٥] وهادي نهر[٦] تورعه وثبوت معتقده في الله.

وإليكَ بعض الأبيات التي تبرهن صحة قولنا:

قال من قصيدة يهجو كافوراً[٧]:

مـا أقـدَرَ اللهَ أنْ يُخْـزِيَ خليقَتَـهُ ولا يُصَدِّقَ قَوْماً في الذي زَعموا[٨]

---

(١) أبو العلاء المعري: رسالة الغفران، تحقيق: عائشة عبد الرحمٰن ص٤٢٢-٤٢٦.

(٢) القاضي الجرجاني: الوساطة، تحقيق: أحمد عبد الرحمٰن الزين ص٥٧.

(٣) عبد الوهاب عزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٢٣٨-٢٤٢.

(٤) محمد عبد الرحمٰن شعيب: المتنبي بين ناقديه ص٣٤١-٣٤٨.

(٥) سهيل عثمان، منير كنعان: المحصول الفكر عند المتنبي ص١٩.

(٦) هادي نهر: مع المتنبي في شعره الحربي ص٢١١.

(٧) كافور أبو المسك الأخشيدي، ولد في النوبة، توصل إلىٰ الاستيلاء علىٰ الحكم صمد في وجه الزحف الفاطمي، جمع حوله الأدباء والعلماء والشعراء، توفي سنة ٩٦٨م مدحه المتنبي ثم هجاه، اشتراه محمد بن طغج بثمانية عشر ديناراً، دُعيَ له علىٰ المنابر بالديار المصرية والشامية والحجازية، كان ذكياً جيد السيرة.

المراجع: البداية والنهاية جـ١ ص٢٦٦. المنجد في الأعلام ص٤٢٧.

(٨) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٥١.

وقال من قصيدة يمدح سيف الدولة ويذكر الخيمة التي رمتها الريح:

فمـــا أعتمـــدَ اللهُ تَقْـــويضَهـــا ولكـــنْ أشـــارَ بمـــا تَفْعَـــلُ[1]

وقال من قصيدة يذكر فيها حُمّاه التي كانت تغشاه في مصر:

يُـــذِمُّ لِمُهْجَتـــي رَبِّـــي وسَيفـــي إذا أحتـاجَ الـوحيـدُ إلـىٰ الـذِّمـام[2]

قال في صباه وهو في المكتب:

فثِـبْ واثقـاً بـالله وِثْبَـةَ مـاجـدٍ يرىٰ الموتَ في الهَيْجا جنى النّحْلِ في الفم[3]

وقال في قصيدة يمدح سيف الدولة عند منصرفه من بلد الروم سنة ٣٤٥هـ:

ومُهـذَّب أمَـرَ المنـايـا فيهـمُ فـأطَعْنَـهُ فـي طـاعَـةِ الـرّحمٰـن[4]

وقال يمدح سيف الدولة وقد أمر له بفرس وجارية:

ولـــولا قُـــدْرَةُ الخـــلاّقِ قُلْنـــا أعَمْـداً كـان خلقُـكَ أم وِفـاقـا[5]

قال من قصيدة يصف فرساً تأخر الكلأ عنه بوقوع الثلج:

أي كَبْـتَ كُـلِّ حـاسـدٍ منـافـقٍ أنـت لنـا وَكُلُّنـا للخـالـق[6]

قال من قصيدة يمدح سيف الدولة سنة ٣٣٧هـ وهي أول ما أنشده:

علـىٰ عـاتِـقِ المُلْـكِ الأغـر نجـادُهُ وفـي يـد جبَّـار السمـوات قـائِمُـه[7]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٦٩.

(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص١٤٤.

(٣) المصدر نفسه جـ٤ ص٣٤.

(٤) المصدر نفسه جـ٤ ص١٨٣.

(٥) المصدر نفسه جـ٢ ص٣٠٣.

(٦) المصدر نفسه جـ٢ ص٣٥٨.

(٧) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٤١.

وقال يرثي والدة سيف الدولة وقد تُوفيت سنة ٣٣٧هـ:

صـــلاةُ اللهِ خـــالِقِنـــا حنـــوطٌ علىٰ الـوَجْـهِ المكَفَّـنِ بـالجمـال[١]

وقال من قصيدة يمدح سيف الدولة وكان قد توقف عن الغزو لمّا سمع بكثرة عدد جيش الروم:

ونُصْفي الذي يُكنىٰ أبا الحسن الهَوىٰ ونُرضي الذي يسمىٰ الإلٰهَ ولا يُكنىٰ[٢]

وقال:

ألا إنمـــا كـــانـــت وفـــاةُ محمـــدٍ دليـلاً علـىٰ أن ليـس لله غـالـبُ[٣]

إنّ الأبيات السابقة تثبت إسلام الشاعر وتوحيده ولكن ليس معنىٰ أنّه مسلمٌ بأنّه إمامُ المسلمين، فهو إنْ لم يكُن أفضل إيماناً من الكثيرين، يكفي أنّه لا يخضع لمخلوق مطلقاً ولا يقبل حكماً إلاّ لله وحده.

٢ ـ الإيمان بالملائكة والشياطين:

الإيمان بالملائكة ركنٌ من أركان العقيدة الإسلامية.

أبو الطيب واحد مِنْ جُمهور الأمة الإسلامية التي كرّمها الله بالقرآن الكريم الذي أنزله علىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، ليكونَ معجزة له ولينقذ به الأمة من الضلال إلىٰ الهداية، ومن الكفر إلىٰ الإيمان، وعلىٰ المسلمين أنْ يُؤمنوا بكل ما جاءَ في القرآن الكريم، فالكفر بآيةٍ منهُ كالكفر بالقرآن كُلّه، وقد جاء في القرآن الكريم ذِكْر الملائكة والشياطين.

---

(١) حنوط: مادة حنط كل طيب يخلط لغسل الميت، القاموس المحيط جـ٣ ص١٢.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٢.

(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص١٦٦.

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص١٠٩.

والإيمان بالملائكة من أركان الإيمان، ونحن كمسلمين وإن كنا لا نرىٰ الملائكة ولا نسمعهم، فإننا نُؤمن بوجودهم لأنَّ اللهَ قد أخبرنا عنهم وهم من عالم الغيب الذي لا يعلمه إلاّ الله، فلا يصحُ إيماننا إلاّ إذا آمنا بوجود الملائكة وهم جُنْدٌ من جنود الله يطيعونه وينفذون أوامره.

قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وبعض الملائكة حفظة يسجلون أعمال الناس وأقوالهم. قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

والمتنبي كما سبق أنْ ذكرنا مِنْ أفراد هذه الأمة الإسلامية. قرأَ القرآن وآمن به وحفظ أجزاءً كثيرةً منه، لذلك فإنّ ثقافته إسلامية خالصة، وليس غريباً أن نسمعه يكثر من ذكر الملائكة والشياطين، وقد سمّىٰ لنا هذا الشاعر من بين الملائكة جبريل (عليه السلام) ومنكراً ونكيراً، كما تحدّث عن الملك الحفيظ الكاتب، بالإضافة إلىٰ ذلك تحدّث عن إبليس وخصه بأنه رمز من رموز الشر، وتحدث عن الجن والجنة ونسوق إليك بعض الأبيات التي تثبت صحة معتقده في هذه الموجودات التي ذكرها رب العرش العظيم والتي لو أنكرها يعد خارجاً عن ملة الإسلام.

قال من قصيدة يمدح التنوخيين:

فأعيذُ أختَه بربِّ محمدٍ ... أن يَحْزنوا ومحمدٌ مسرورُ
أوْ يَرغَبُوا بقصورِهم عَنْ حُفرةٍ ... حيّاهُ فيها مُنْكَرٌ ونكيرُ[1]

قال في قصيدة يرثي محمد بن إسحاق التنوخي:

وحفيفُ أجْنِحَةِ الملائِكِ حولَهُ ... وعُيون أهلِ اللاذقيَّةِ صُوْرُ[2]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص١٣٣.

(٢) حفيف: صوت الأجنحة وحسها.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص١٣٠.

قال في قصيدة يمدح علي بن منصور الحاجب:

فلقد دَهِشْتُ لما فَعَلْتِ ودُونَهُ ما يُدهِشُ المَلَكَ الحفيظَ الكاتبا[1]

قال من قصيدة يمدح بدر بن عمار[2]:

سَلَكَتْ تماثيلَ القباب الجنُّ مِنْ شَوْقٍ بها فأَدَرْنَ فيك الأعْيُنا[3]

وقال من قصيدة وقد سأله بدر بن عمار الجلوس:

لَعَظُمْتَ حتّى لو تكونُ أمانَةً ما كانَ مُؤْتَمناً بها جِبْرينُ[4]

قال من قصيدة يمدح أبا أيوب أحمد بن عمران:

حقُّ الكواكبِ أنْ تزورَكَ مِنْ علٍ وتعودَكَ الأسادُ مِنْ غاباتِها

والجِنُّ مِنْ سُتراتِها والوَحْشُ من فَلَواتها والطَّيرُ مِنْ وُكناتِها[5]

قال من قصيدة يمدح عضد الدولة[6] وولديه أبا الفوارس وأبا دلف:

مَلاعِبُ جِنَّةٍ لو سار فيها سليمانٌ لسار بِتُرْجمانِ[7]

قال يمدح محمد بن زريق الطرسوسي:

يا مَنْ نَلوذُ مِنَ الزّمانِ بظلِّهِ حقاً ونطرُدُ باسمِهِ ابْليسا[8]

---

(١) المصدر نفسه جـ١ ص١٣٣.

(٢) بدر بن عمار: هو الحسن بن عمار بن إسماعيل الأسدي، ولي طبرية من أبي بكر محمد بن رائق ليتولىٰ قيادة جيشها سنة ٣٢٨هـ كان عربياً يبغض الأعاجم فأحبه المتنبي.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٢٠٣.

(٤) المصدر نفسه جـ٤ ص٢٠٨.

(٥) المصدر نفسه جـ١ ص٢٣٤.

(٦) عضد الدولة: هو أبو شجاع فنّاخُسرو بن ركن الدولة أبي علي، الحسن بن أبي شجاع بويه الديلمي من أعقاب سابور ذي الأكتاف وهو أول من تملك من ال بويه وكان ملكاً لشيراز قدم عليه المتنبي سنة ٣٥٤هـ، «البداية والنهاية جـ١ ص٢٩٩».

(٧) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٢٥٢.

(٨) المصدر نفسه جـ٢ ص٢٠٠.

٣ ـ الإيمان بالأنبياء والكتب السماوية:

يعترف أبو الطيب بالأنبياء وبالكتب السماوية المنزلة عليهم وبمعجزاتهم ومن أركان الإيمان بالإسلام، الإيمان بالأنبياء وبالكتب التي أنزلها الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ بعض رسله بطريق الوحي، لهداية الناس وإرشادهم إلىٰ طريق الحق والخير، قال تعالىٰ: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فالإيمان بالرسل والكتب المنزلة عليهم واجب علىٰ كل مسلم، ولا تصحّ عقيدة المسلم إلاّ إذا آمن بذلك.

وأبو الطيّب واحد من أفراد الأمة الإسلامية، لم نسمع عنه أنّه جحد شيئاً من ذلك، بل ورد ذكر الأنبياء والكتب المنزلة عليهم في شعره.

إنَّ المتنبي شعر بغربة أثناء وجوده في دار (نخلة)[١]، فيشبه تلك الغربة التي أحسَّ بها بالغربة التي أحسّ بها عيسىٰ عليه السلام أثناء وجوده عند اليهود.

وقال من قصيدة في صباه:

ما مُقامي بأرضِ نَخْلَةَ إلاّ كَمُقامِ المسيحِ بَينَ اليهود[٢]

وها هو يذكر النبي داود عليه السلام فيقول:

لأُمةٌ فاضَةٌ أضاةٌ دِلاصٌ أحكمتْ نَسْجَها يدا داود[٣]

---

(١) نخلة: هي قرية لبني كلب علىٰ بعد ثلاثة أميال من بعلبك.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣١٩.

(٣) لأمة: درع ملتئمة الصنعة.
القاضة: السابغة.
اضاة: صافية.
دلاص: البراق.
العكبري: جـ١ ص٣٢٠.

إنّ المتنبي شعر بأنّ الناس الذين يقيم بينهم لا يعرفون قدره كما لم تعرف ثمود قدر صالح:

أنا في أمّةٍ تدارَكها اللهُ غريبٍ كصالحٍ في ثمودِ[1]

كذلك يذكر ذا القرنين، وعازر، وعيسىٰ، وموسىٰ، وسليمان:

قال من قصيدة يمدح محمد بن زريق الطرسوسي:

لو كان ذو القرنيْنِ أعملَ رأيه لَمّا أتىٰ الظُّلماتِ صِرْنَ شُموسا[2]
أو كان صادفَ رأْسَ عازَرَ[3] سَيْفُهُ في يوْمِ معركةٍ لأعيا عيسى
أو كان لُجَّ البحر مِثْلَ يَمينِهِ ما انشقّ حتىٰ جاز فيه موسىٰ[4]

وقال يذكر سليمان:

ملاعِبُ جِنّةٍ لو سار فيها سُليمانٌ لسار بِتُرْجمانِ[5]

واسمعه يذكر الحواريين[6] من قصيدة قالها يمدح سيف الدولة سنة ٣٣٩هـ:

ولو رآه حواريّوهُمُ لَبَنَوْا على محبّتِهِ الشَّرْعَ الذي شرعُوا[7]

وقال يذكر المسيح عليه السلام في قصيدة قالها يمدح علي بن مكرم:

فآجَرَكَ الإلٰهُ علىٰ عليلٍ بَعَثْتَ إلىٰ المسِيحِ بِهِ طَبيبا[8]

---

(١) العكبري: جـ١ ص٣٢٤.
(٢) ذو القرنين: هو الإسكندر الذي ملك البلاد ودخل الظلمات: وهي بحار.
أعمل: استعمل.
(٣) عازر: رجل من بني إسرائيل هو الذي أحياه الله لعيسىٰ بن مريم.
(٤) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص١٩٨-١٩٩.
(٥) المصدر نفسه جـ٢ ص٢٥٢.
(٦) الحواريون: هم أصحاب عيسىٰ عليه السلام وفي تسميتهم بهذا الاسم أقوال أحدها أنهم كانوا قصّارين يبيضون الثياب، ومنه الحور البياض في عيونهم، وقيل الحواري هو الناصر وكانوا أنصار عيسىٰ بن مريم عليهما السلام، ومنه قوله ﷺ: «الزبير ابن عمتي وحواري من أمتي»، وقيل هم أصفياء الأنبياء وخاصتهم.
(٧) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢٢٥.
(٨) المصدر نفسه جـ١ ص١٤٥.

قال يذكر الخضر:

إذا ما ذَكَرْنا جُودَهُ كان حاضِراً نَأىٰ أوْ دَنا يَسْعىٰ علىٰ قَدَمِ الخِضْرِ[1]

٤ ـ الإيمان باليوم الآخر:

أبو الطيب يؤمن بالموت وأنَّ مصير الإنسان إلىٰ زوال فالحياة الدنيا دار زوال والحياة الآخرة دار قرار.

وللشاعر تأملات متنوعة حول الميت، فهو يعترف كما يعترف الجميع من قبله ومن بعده بأن الموت نهاية كل حي وكل أثر يخلفه الأحياء ولو بقي الأثر مدة بعد صاحبه.

بالموت يتميز الرجال ويعرف الشّجاع القادر علىٰ بذل حياته الغالية من الجبان الحريص علىٰ أنانيته الخاصة.

بالموت نختبر تمسّك الإنسان بمعتقداته ومحافظته علىٰ القيم التي يدعي الإيمان بها فأمام الموت يذوب التبجح.

والمتنبي يرىٰ أنّه ما دام الموت محيقاً بنا من كل جانب ظافراً بأرواحنا آخر الأمر، فما هو الموقف الذي توحيه علينا إنسانيتنا منه؟ هل هو السعي إلىٰ تجنبه، أو الهرب منه بكل وسيلة علت أو سفلت؟ هل هو الحرص علىٰ أيام وساعات قليلة نعيشها بمنجاة منه؟ لا إن منطق أبي الطيب هذا ضد منطق الضعفاء الجبناء المتخاذلين، إنه موقف الشجاعة.

وما دامت الحياة قصيرة فلن تستقر أو يهنأ بها صاحبها إذا زادت بعض الهنيهات، فما علىٰ الشخص إلا أن يلغي من قائمة أهدافه مطلب البقاء الذي لن يحصل عليه أبداً، وعليه أن ينشغل بالأهداف الأخرىٰ.

---

(١) العكبري: التبيان في شرح التبيان جـ٢ ص١٣٧.

إن أبا الطيب يطلب من الإنسان أن لا يجزع من الموت لأنه أمر طبيعي، قال من قصيدة يعزىٰ أبا شجاع عضد الدولة (وقد ماتت عمته):

نَحْنُ بنو المَوْتىٰ فما بالُنا ... تعافُ ما لا بُدَّ من شُربِهِ
تَبْخَلُ أيْدينا بأرْواحِنا ... علىٰ زَمانٍ هي مِنْ كَسْبِهِ
فهذه الأرْواحُ من جَوِّهِ ... وهذه الأجسامُ من تُرْبِهِ
يموتُ راعي الضأنِ في جَهْلِهِ ... مَوْتةَ جالينُوسَ في طِبِّهِ[1]

والموت مصير كل حي فما من أحد مخلد في هذه الحياة الدنيا والناس يسيرون في الحياة أفواجاً إثر أفواج بين الميلاد والموت.

قال من قصيدة يعزي سيف الدولة بمناسبة وفاة عبده يماك التركي:

سُبِقْنا إلىٰ الدّنيا فلو عاشَ أهْلُها ... مُنِعْنا بها مِنْ جيْئَةٍ وذُهوبِ
تَمَلَّكَها الآتي تَمَلُّكَ سالبٍ ... وفارقَها الماضي فِراقَ سليبِ[2]

وقال من قصيدة يمدح الحسين بن إسحاق التنوخي:

علىٰ ذا مضىٰ الناس: اجتماعٌ وفرقةٌ ... ومَيْتٌ ومولودٌ وقالٍ ووامِقُ[3]

وقال يمدح أبا المنتصر: شجاع محمد بن أوس بن الرضا الأزدي:

أبني أبينا نحنُ أهلُ منازلٍ ... أبداً غُرابُ البَيْنِ فيها يَنْعِقُ
نبكي علىٰ الدُّنيا وما مِنْ مَعْشَرٍ ... جَمَعَتْهُمُ الدُّنيا فلمْ يتفرّقوا
أيْنَ الأكاسِرَةُ الجبابرة الأُلىٰ ... كَنَزوا الكُنوزَ فما بقينَ ولا بَقُوا
والموتُ آتٍ والنّفوسُ نفائِسٌ ... والمُسْتَغِرُّ بما لَدَيْهِ الأحْمَقُ[4]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢١١-٢١٣.
(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٥٠.
(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص٣٤٢.
(٤) المصدر نفسه جـ٢ ص٣٣٤-٣٣٥.

وقال من قصيدة يَرْثي والدة سيف الدولة وقد توفيت سنة ٣٣٧هـ:

نُعِدُّ المَشْرَفِيّةَ والعَوالي ... وتقتُلُنا المَنُونُ بلا قِتالِ
ونرْتَبِطُ السوابقَ مُقْرباتٍ ... وما يُنْجينَ من خبَبِ اللّيالي
بدارٍ كُلُّ ساكِنِها غريبٌ ... طويلُ الهَجْرِ مُنْبَتُّ الحبالِ
يُدَفِّنُ بَعْضُنا بَعْضاً وتَمْشي ... أواخِرُنا علىٰ هامِ الأوالي[١]

وقال من قصيدة يرثي أبا الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة:

تخونُ المنايا عَهْدَهُ في سليلِهِ ... وتَنْصُرُهُ بَيْن الفَوارسِ والرَّجْلِ
وما المَوْتُ إلاّ سارقٌ دَقَّ شَخْصُهُ ... يصولُ بلا كَفٍّ ويسعىٰ بلا رِجْلِ
إذا ما تَأَمَّلْتَ الزَّمانَ وصرْفَهُ ... تَيَقَّنْتَ أنَّ الموتَ ضرْبٌ مِنَ القَتْلِ[٢]

وقال من قصيدة نظمها ليرثي بها أبا شجاع:

أيْنَ الذي الهَرْمان من بُنْيانِهِ ... ما قومُهُ ما يوْمُهُ ما المصرَعُ
تَتَخلَّفُ الآثارُ عَنْ أصحابها ... حيناً ويدْرِكُها الفناءُ فتتبعُ
لم يُرْضِ قَلْبَ أبي شُجاعٍ مَبْلَغٌ ... قَبْلَ المماتِ ولَمْ يَسَعْهُ مَوْضِعُ
وصلَتْ إليك يدٌ سواءٌ عندَها ... ألبازُ الأشهبُ والغُرابُ الأبقعُ[٣]

وقال من قصيدة بمصر لم ينشدها كافوراً[٤]:

غير أنَّ الفَتىٰ يُلاقي المنايا ... كالحاتٍ ولا يُلاقي الهوانا
ولو أنَّ الحياةَ تَبقىٰ لحيٍّ ... لعدَدْنا أضلَّنا الشُجْعانا
وإذا لم يكُنْ من الموتِ بدٌّ ... فمن العَجْزِ أنْ تكونَ جبانا

* * *

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٨، ١٥، ١٨.
(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص٤٧، ٤٨، ٥١.
(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص٢٧٠، ٢٧٤.
(٤) المصدر نفسه جـ٤ ص٢٤١.

الرابطة الدينية عند المتنبي

الرابطة الدينية في الإسلام هي الرابطة التي تربط المسلم مع أخيه المسلم في أي مكان، والمتنبي يعتز بالإسلام، فقد عاش شاعرنا في أسرة مسلمة علوية أو هاشمية، وهذه الأسرة وجهته توجيهاً دينياً حين ألحقته في كتّاب أشراف العلويين فحذق اللغة العربية شعراً ونثراً، وحفظ أجزاء كثيرة من كتاب الله القرآن الكريم، وتثقف بالثقافة الإسلامية التي كانت تسود في عصره.

وشاعرنا لم يُتهم بإلحاد أو زندقة، وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متورعاً موحداً.

إننا نلمس من دراسة ديوان الشاعر أنه يحمل عاطفة دينية قوية، ونزعة إسلامية ولا سيما عندما كان عند الأمير المجاهد سيف الدولة الحمداني، حيث اشترك في الجهاد ضد الروم، وحث المجاهدين علىٰ القتال في سبيل الله لكي تُرفع راية الإسلام وتذل راية الشرك، فانتصار المسلمين، انتصار لعقيدة التوحيد علىٰ عقيدة التثليث (الأب ـ الابن ـ الروح القدس).

إن أبا الطيب يفخر بأن أميره المجاهد هو الذي يُؤمن طرق الحجيج للمسلمين فلا يعترضها قاطع طريق أو عدو لئيم، كما أنه يحمي المنابر ويقيم الجُمع.

قال من قصيدة يمدح سيف الدولة:

لهذا اليومِ بَعْدَ غَدٍ أريجُ ... ونارٌ في العدوِّ لها أجيجُ

تَبيتُ بها الحواضِنُ آمناتٍ ... وتسلمُ في مسالِكها الحجيجُ[1]

وقال أيضاً:

مُخْلىً له المَرْجُ، مَنْصوباً بِصارِخَةٍ ... لَهُ المنابِرُ، مَشهوداً بها الجُمَعُ[2]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٣٧.

(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص٢٢٥.

والشاعر يمقت الخمرة ويتجنبها ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلا:

فُـــؤادٌ مـــا تُسَلّيـــه المـــدامُ وعُمْـــرٌ مِثْـــلُ مـــا تَهِـــبُ اللِّئـــامُ[1]

وقال عندما سأله أبو خميس الشرب:

أَلَـــذُّ مِـــنَ المُـــدَامِ الخَنْـــدريـــسِ وأَحْلـــىٰ مِـــنْ مُعـــاطـــاةِ الكُـــؤوسِ
معـــاطـــاةُ الصَّفـــائـــحِ والعَـــوالـــي وإقحـــامـــي خُمِيســـاً فـــي خميـــسِ[2]

وأبو الطيب صارم في تفضيله الإسلام علىٰ باقي الديانات السماوية، فهو عنده دين التوحيد، والباقون مشركون، فهو يعتبر الديانة النصرانية ديانة غير موحدة نتيجة إيمان النصارىٰ بعقيدة التثليث.

وأبو الطيب عدو لدود لليهود فإذا أراد أن يشوّه سمعة فعل أو شخص أو يحط من قيمته نَسَبَهُ إلىٰ اليهود، يقول شوقي ضيف: «إن الذي بلّغ نبأ عزمه علىٰ الثورة إلىٰ لؤلؤ وإلىٰ حمص، يهودي سماه المتنبي في بعض شعره ابن كروس الأعور»[3].

وإثارة الفتنة بين التنوخيين سببها يهودي، وقد نشب خلاف بين أبي الطيب وبين عامل كافور علىٰ دمشق وهو يهودي ويعرف بابن ملك[4] وذلك لأن الشاعر أَنِفَ من مدحه فحاول إفساد كافور عليه.

فاليهود عند أبي الطيب كانوا وما زالوا حتىٰ يومنا هذا ممثّلي الشر في العالم، فهم أهل كذب ودس واعتداء حتىٰ علىٰ رسل الله فهم لا يرعون عهداً ولا ميثاقاً، وهم أعداء لكل فضيلة وهم سبب نشر كل رذيلة في العالم.

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٦٩

(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص١٩١.

(٣) ابن كروس الأعور: يهودي شرير كان يمشي بين العرب بالعداوة والبغضاء. شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده ص٨٤. أما محمود شاكر فيقول عنه: كان ابن كروس الأعور من صنائع العلويين أو الفاطميين حاول أن يفسد بين المتنبي وبدر بن عمار.

(٤) ابن ملك: يهودي كان يعيش بدمشق هو من أهل تدمر طلب من المتنبي أن يمدحه فرفض. يوسف البديعي: ص١١٠.

اسمعه يقول من قصيدة يرثي محمد بن إسحاق التنوخي:

أليسَ عَجيباً أنْ بَيْنَ بني أبٍ ... لُنَجْلِ يهوديّ تَدِبُّ العقارِبُ[1]

وقال من قصيدة وهو في السجن:

فلا تَسْمَعَنَّ من الكاشحينَ ... ولا تَعْبأَنَّ بِمَحْكِ اليَهودِ[2]

وفي تفضيل الإسلام علىٰ سائر الأديان قال من قصيدة يمدح سيف الدولة عند منصرفه من بلد الروم سنة ٣٤٥هـ.

خَضَعَتْ لِمُنْصُلِكَ المناصِلُ عنوة ... وأذلَّ دينُكَ سائِرَ الأدْيانِ[3]

ومهذب أمَرَ المَنايا فيهمُ ... فأَطعْنَهُ في طاعَةِ الرحمٰنِ

إن هزيمة المسلمين للروم تعني هزيمة التوحيد للشرك، قال من قصيدة يمدح سيف الدولة في معركة الحدث سنة ٣٤٢هـ:

ولَسْتَ مَليكاً هازِماً لِنظيرِهِ ... ولكنَّكَ التوحيدُ للشِرْكِ هازِمُ[4]

المسلمون هم الموحدون وسيف الدولة يقاتل من أجل إعلاء كلمة الله لذلك يأمر المسلمين بالجهاد، فالمسلمون موحدون، أما النصارىٰ فيؤمنون بعقيدة فاسدة باطلة زائفة هي عقيدة التثليث، وقد نطق بهذا القرآن الكريم ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

قال من قصيدة بعث بها إلىٰ سيف الدولة بعد فراقه:

ويَسْتَنصِرَانِ الذي يَعْبُدانِ ... وَعِنْدَهُما أنَّه قد صُلِبْ

أرىٰ المسلمينَ مع المشركيـ ... ـنَ إمّا لِعَجْزٍ وإما رَهَبْ

وأنْتَ معَ الله في جانِبٍ ... قليلُ الرّقاد كثيرُ التَّعَبْ

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص١٠٨.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٣٤٧.

(٣) المصدر نفسه جـ٤ ص١٨٠-١٨٣.

(٤) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٩١.

كـــأنَّـــكَ وَحْـــدَكَ وَحّـــدْتَـــهُ ودانَ البـــريّـــةُ بـــابـــنٍ وأَبْ[1]

إن مدح المتنبي لابن حمدان بأنه سيف الدولة العباسية، وتكرار هذا وتسمية الدولة العباسية بالدولة الهاشمية أو دولة الخلافة وأنها خيرة الدول وتسمية الخلفاء العباسيين أئمة قريش، كل هذا دليل علىٰ تدينه وبرهان علىٰ أنه ما كان ينتحل إلاّ نِحْلة جمهور المسلمين في عصره.

اسمعه يقول في مدح بدر بن عمار:

حُســـامٌ لابـــنِ رائِـــقٍ المُـــرجَّـــى حُســـامِ المتَّقـــي أيّـــامَ صـــالا[2]

وقال من قصيدة نظمها في مدح سيف الدولة سنة ٣٣٧هـ:

لقد سلَّ سيفَ الدَّولة المجدُ معلِّما فلا المجدُ مُخْفِيَهُ ولا الضَّرْبُ ثالِمُهْ

علـىٰ عـاتِـقِ المُلْـكِ الأغَـرِّ نِجـادُهُ وفـي يَـدِ جبَّـارِ السَّمـواتِ قـائِمُـهْ[3]

وقال من قصيدة نظمها في مدح سيف الدولة:

وشَـرِكْـتُ دولـةَ هـاشِـمٍ فـي سيْفِهـا وشققْـتُ خِيسَ المُلْـكِ عـن ريبـالـه[4]

وقال من قصيدة نظمها في سيف الدولة عندما سار لنصرة أخيه:

لقـد رأت كُـلُّ عيْـنٍ منـكَ مـالِئَهـا وجرَّبتْ خيْرَ سيفٍ خيرَةُ الدُّولِ[5]

وقال يمدح سيف الدولة:

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص١٠٣-١٠٤.

(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص٢٢٦.

(٣) الأغر: الأبيض.

العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٤١.

(٤) خيس: أجمة الأسد.

الريبال: الأسد.

العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٥٩.

(٥) المصدر نفسه جـ٣ ص٤٠.

إنّ الخليفــةَ لــم يسمّــكَ سيْفَهــا حتىٰ ٱبتلاكَ فكنتُ عَيْنَ الصَّارمِ[1]

وقال من قصيدة نظمها يمدح سيف الدولة ويعتبره إمام الخلفاء العباسيين عند الجهاد:

إمــامٌ لــلأئمَــةِ مــن قُــريْــشٍ إلــىٰ مَــنْ يتّقــون لــه شِقــاقــا[2]

وقال يمدح سيف الدولة ويذكر الخيمة التي رمتها الريح:

لقــد رفــعَ اللهُ مِــنْ دولــةٍ لهــا منْــكَ يــا سيفَهــا مُنْصُــلُ[3]

وقال من قصيدة نظمها بمناسبة بناء سيف الدولة لمرعش:

هنيئــاً لأهْــلِ الثَّغْــرِ رأيُــكَ فيهــمُ وإنّكَ حزبَ اللهِ صِرْتَ لهم حِزْبا
لأَمْــرٍ أعــدّتْــهُ الخِــلافــةُ للعــدىٰ وَسَمَّتْه دونَ العالمِ الصارمَ العَضْبا[4]
فمن كان يُرضي اللؤمَ والكفرَ مُلكُه فهذا الذي يُرضي المكارِمَ والرَّبَّا

فأبو الطيب لم يمدح غير المسلمين، ومدح غير العرب بصفتهم مسلمين لذلك يخطىء من اعتبر المحور الأساسي للتجمع السياسي في نظرةِ القومية، لذلك لم يكن المتنبي شاعراً قومياً كما يقول مارون عبود[5] حيث لم تعرف القومية في زمانه ولم تعرف القوميات إلا في العصر الحديث.

إن المتنبي لم يقصد بالعروبة الانفصال عن جسم الدولة الإسلامية كما يقول حنا الفاخوري[6]: «فالعروبة عنده دائرة فرعية ضمن الدائرة الإسلامية الكبرىٰ»[7].

---

(١) الابتلاء: الاختبار والتجربة.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٤٩.
(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص٢٩٨.
(٣) المصدر نفسه جـ٣ ص٧١.
(٤) المصدر نفسه جـ١ ص٦٢، ٦٨، ٦٩.
(٥) مارون عبود: الرؤوس ص٢٣١-٢٤٤.
(٦) حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي ص٦٣٧-٦٤٠.
(٧) سهيل عثمان ومنير كنعان: المحصول الفكر عند المتنبي ص٢٢٨.

إن سبب ضعف المسلمين في زمن المتنبي وفي زماننا هذا هو فصل الطاقة العربية عن الطاقة الإسلامية، ولن تعود لنا كرامتنا ومجدنا وعزتنا إلا إذا عدنا إلىٰ الإسلام ومزجنا الطاقة العربية بالطاقة الإسلامية لتعود الدولة الإسلامية التي توحد المسلمين علىٰ المبدأ والعقيدة.

إن المتنبي يحاول في مدحه للأمراء والملوك أن يضفي علىٰ حكمهم هالة دينية ويجعلهم مكلفين بمهام إلٰهية أبرزها نصرة الدين الإسلامي.

والإسلام الذي يلحّ عليه أثناء حديثه هو الدين الإسلامي بشكل عام من غير تفضيل لمذهب علىٰ آخر، أو تدخل في شؤون الخلافات المذهبية وقصائده في الحمدانيين أكبر دليل علىٰ ذلك.

فهو يؤكِّد أن السيف سيف الله المجاهد دفاعاً عن الإسلام والمسلمين وعقيدتهم وعباداتهم وخلافتهم، ويستنهض المسلمين عموماً متجاهلاً خلافاتهم المذهبية، بل لا يستطيع المرء أن يعرف من قصائده مذهبه ولا مذهب ممدوحه.

فبالرغم من كون المتنبي من أسرة علوية أو هاشمية إلاّ أنه لا يركز علىٰ أحقية أهل البيت بالحكم، وأغلب الذين مدحهم لم يكونوا طالبيين، كما أنه لم يرد علىٰ لسانه ذم الصحابة ولا الانتقاص من أبي بكر أو عمر أو عثمان وإليك بعض الأبيات التي تثبت أنه يضفي علىٰ ممدوحيه هالة دينية ويجعلهم مكلفين بمهام إلٰهية.

ها هو أحد ممدوحيه ينتصب ممثلاً للحق ومنصوراً بالعناية الإلهية:

وقَدْ تيقَّنَّ أنَّ الحقَّ في يده ... وقد وَثِقْنَ بأنَّ اللهَ ناصرُه[1]

إن أميره الحمداني سيف دولة الخلافة الذي يجب أن يقدره المسلمون. قال من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويذكر استنقاذه أبا وائل بن داود من الأسر، فالأمير الحمداني سيف دولة الخلافة الذي يجب أن يقدره المسلمون ويساعدوه:

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص١٢٠.

أمـــا للخـــلافـــةِ مِـــنْ مُشْفِـــقٍ علـىٰ سَيـفِ دَوْلتِهـا الفـاصِـلِ[1]

وسيف الدولة سياج أمير المؤمنين:

صـانَ الخليفـةُ بـالأبطـالِ مُهجَتَـهُ صيـانـةَ الـذَّكَـرِ الهنـديّ بـالخِلَـلِ[2]

والدولة دولة هاشم العباسية وأميره سيفها:

وَشَـرِكْـتُ دولـةَ هـاشـمٍ فـي سَيْفِهـا وشقَقْتُ خيسَ المُلكِ عن ريباله[3]

ويظل سيف الدولة ضمن دائرة الخلافة الإسلامية وعاملاً تحت لوائها:

إنَّ الخليفـــةَ لـــم يُسَمِّـــكَ سيفَهـــا حتـىٰ ٱبتـلاكَ فكنْـتَ عيْـنَ الصَّـارم

وإذا تتـــوَّجَ كنْـــتَ دُرَّةَ تـــاجِـــهِ وإذا تختـمَ كُنْـتَ فـصَّ الخـاتـم

وإذا ٱنْتَضاك علىٰ العدىٰ في مَعْرِكٍ هلَكُـوا وضـاقَـت كفُّـهُ بـالقـائـم[4]

إن سيف الدولة تهتم به العناية الإلٰهية لأنه مجاهد في سبيل الله، قال من قصيدة في مدحه ويذكر الخيمة التي رمتها الريح:

فمـــا ٱعْتَمَـــدَ اللهُ تقـــويضَهـــا ولكـــنْ أشـــار بمـــا تفعَـــلُ[5]

وعَـــرَّفَ أنـــكَ مِـــن هَمِّـــهِ وأنَّـــكَ فـــي نَصْـــرِهِ تَـــرْفُـــلُ[6]

إن سيف الدولة سيف الخليفة الذي يعتبر رمز الدولة الإسلامية، قال من قصيدة نظمها في مدحه يوم عيد الأضحىٰ:

فيـا عَجَبـاً مـن دائـلٍ أنْـتَ سَيْفُـهُ أمـا يتـوقـىٰ شفـرتـي مـا تَقَلَّـدا

وها هو يؤكد علىٰ القيمة الدينية لسيف الدولة:

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣١.

(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٦.

(٣) المصدر نفسه جـ٣ ص٥٩.

(٤) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٤٩.

(٥) المصدر نفسه جـ٣ ص٦٩.

(٦) المصدر نفسه جـ٣ ص٧٥.

فـأنْـتَ حُسـامُ المُلْـكِ والله ضـارِبٌ وأنـت لـواءُ الـدّيـنِ واللهُ عـاقِـدُ[1]

وسيف الدولة من حزب الله.

هنيئـاً لأهْـلِ الثَّغْـرِ رأْيُـكَ فيهـمُ وأنّكَ حزْبَ الله صِرتَ لهُمْ حِزبا[2]

وقال في قصيدة نظمها بمناسبة معركة الحدث:

ولسـتَ مليكـاً هـازِمـاً لنظيـرِه ولكنّـك التـوحيـدُ للشِـرْكِ هـازِمُ[3]

هنيئـاً لضَـرْبِ الهـامِ والمَجْـدِ والعُـلا وراجيـكَ والإسـلامِ أنّـك سـالِـمُ

وقال من قصيدة نظمها في مدح دُلَّيْربن لشكروز سنة ٣٥٣هـ:

فتَمليـكُ دُلّيْـرٍ وتعظيـمُ قـدْره شهيـدٌ بـوحـدانيّـةِ الله والعـدل[4]

إن الله سبحانه وتعالىٰ يحقق النصر لدينه ويمهد النصر للمجاهدين في سبيله من أجل إعلاء كلمته:

وأخْلَـصَ اللهُ لـلإسـلام نُصْـرتَـهُ وإنْ تغلَّـبَ فـي آلائِـهِ الأُمَـمُ[5]

وقد سمّىٰ سيف الدولة سيف دولة هاشم، لأنه سيف للدولة العباسية وبها يصول علىٰ الأعادي:

يـا سيـفَ دَوْلـةِ هـاشـمٍ مَـنْ رامَ أنْ يَلْقـىٰ مَنـالَـكَ رامَ غَيْـرَ مَـرامِ[6]

* * *

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٦٢.

(٣) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٩١.

(٤) المصدر نفسه جـ٣ ص٢٩٨.

(٥) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٧٦.

(٦) المصدر نفسه جـ٤ ص١٣.

اقتباس المتنبي من القرآن الكريم وتأثره به

إن نشأة الشاعر الدينية بالكوفة هيأت له علاقة مبكرة بكتاب الله، وقد كان اهتمام الشاعر بالنحو واللغة العربية دافعاً لحفظ أجزاء كثيرة من القرآن الكريم، كان الشاعر يستند إليها في المناقشات التي دارت بينه وبين من أملىٰ عليهم ديوانه، وبين من ناظروه في كثير من مسائل النحو واللغة، لذلك نرىٰ الشاعر يستشهد بالقرآن الكريم في شرحه لبعض المفردات التي أوردها في شعره ويحتج ببعض الآيات في ملاحظاته النقدية التي وجهها لشعر غيره مثل قوله عن بيت الأعشىٰ:

وهل تنكر الشمس شمس النها ... والقمر الواضح الأبرص

عاب المتنبي علىٰ الأعشىٰ بسبب استعماله لفظ (الأبرص) قائلاً: لو كانت لفظة الأبرص في كتاب الله لكدرت شرب بلاغته ولما أراده الله تعالىٰ، كنّىٰ عنه بقوله: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢].

كذلك دللت بعض الملاحظات التي صدرت عنه علىٰ درايته باختلاف القراءات، وقد كان من الطبيعي ممن حفظ القرآن الكريم، أو حَفِظَ أجزاء منه، واطّلع علىٰ بعض المذاهب الدينية، أن تتسلل إلىٰ شعره بعض آثار هذا الاطلاع ممثلة في استلهام بعض القصص الديني، واستمداد بعض الصور القرآنية، والاستفادة من بعض الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم والاستعانة بمعاني بعض الآيات.

لقد استوحىٰ المتنبي قصة نوح عليه السلام والطوفان في تصوير كرم ممدوحه مساور بن محمد الرومي قائلاً:

لو كُنْتَ بحراً لم يَكُنْ لَكَ ساحِلٌ ... أو كُنت غَيثاً ضاقَ عَنْكَ اللُّوحُ[1]

وخَشيتُ منْكَ علىٰ البلاد وأهْلها ... ما كانَ أنذَرَ قومَ نوحٍ نوحُ[2]

---

(١) اللوح: الهواء ما بين السماء والأرض.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٥٤.

شبه الشاعر ممدوحه في البيت الأول بالغيث والبحر وجعل المشبه يفوق المشبه به في العطاء، إذ لا ساحل قد ضاق عنه الفضاء، فكان خوف المتنبي علىٰ البلاد من الطوفان، وقد كان إنذار نوح لقومه هنا وليد السياق، إذ كنىٰ به الشاعر عن الطوفان الذي ورد في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١]، فنقل الصورة من العذاب إلىٰ الكرم، ولولا ما سبق من تشبيه الممدوح بالغيث والبحر لكانت صورة نوح ضرباً من الإيحاء ساقته إليه القافية.

كما ذكر المتنبي ثموداً في قوله:

وفي جودِ كَفَّيْكَ ما جُدْتَ لي ... بِنَفْسي ولو كُنتُ أَشقىٰ ثَمودِ[1]

أراد (قدارا) عاقر الناقة.

وقد عرض في مدحه كافور الأخشيدي لقصة قميص يوسف قائلاً:

كأنَّ كُلَّ سُؤالٍ في مسامِعِهِ ... قميصُ يوسفَ في أجفانِ يعقوبِ
إذا غَزَتْهُ أعادِيهِ بمسألةٍ ... فقد غَزَتْهُ بِجيْشٍ غَيْرِ مغلوبِ[2]

لقد استوحىٰ المتنبي قصة يعقوب عليه السلام وقميص يوسف لكي يعطي صورة لكرم كافور الذي لا يرد سائلاً يقصده بل إنَّ سؤال طالبي رفده يجلب السعادة الغامرة إلىٰ قلبه، كفرحة وسعادة يعقوب بقميص يوسف.

أما النبي موسىٰ فقد ذكره الشاعر في عدة مواضع، ذكر انهيار الجبل أمام ناظريه، وانشقاق البحر، ولعنته للسامري.

قال يرثي محمد بن إسحاق التنوخي:

ما كُنْتُ آملُ قَبْلَ نَعْشِكَ أنْ أرىٰ ... رَضْوى علىٰ أيدي الرجالِ تسيرُ
خرجُوا به ولكُلِّ باكٍ خَلْفَهُ ... صَعَقاتُ موسىٰ يَوْمَ دُكَّ الطورُ[3]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٤٧.
(٢) المصدر نفسه جـ١ ص١٧٢.
(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص١٢٩.

لقد صور الشاعر مكانة من يرثيه عند قومه، فوصف النعش وقد حُمِل علىٰ أيدي الرجال كجبل شامخ «رضوىٰ» لفرط مهابته، ثم نقل الشاعر مشاعر مودعيه خلف النعش إلىٰ مثواه الأخير، وقد ملك الحزن قلوبهم فخرجوا باكين يصعقون كصعقات موسىٰ يوم الطور (الطور جبل كلم الله موسىٰ عليه) أي أن الباكين خلف نعشه كثير ولهم غشيان وصعقات وقال: (خلفه) لأن المشي عندنا خلف الجنازة أفضل.

واستمع إليه وقد استمد من قصة السامري في قصيدة مدح بها المغيث بن علي فقال:

لِمَنْ مالٌ تُمَزّقُهُ العطايا ... ويَشْرَكُ في رغائِبِهِ الأنامُ
ولا نَدْعوكَ صاحبَهُ فَتَرْضىٰ ... لأنَّ بِصُحْبةٍ يَجِبُ الذّمامُ[1]
تُحَايِدُهُ كأنّكَ سامريّ ... تُصافِحُهُ يد فيها جُذامُ[2]

استمد المتنبي من قصة السامري للتمثيل عن قلة اكتراث ممدوحه لكرم صاحبه لارتباط السامري بالقرآن بإيحاء تنفر منه النفوس كلعنة موسىٰ ووحشته ونفور الناس منه، ثم خوفه من أن يمسه أحد. بمعنىٰ آخر: أنت تجانب هذا المال وتنفر عنه كما ينفر السامريّ من مصافحة رجلٍ في يده جذام.

أما انشقاق البحر لموسىٰ (عليه السلام) فقد ذكره في قصيدة مدح بها محمد ابن زريق الطرسوسي.

أو كانَ لُجّ البَحْرِ مِثْلَ يَمينهِ ... ما انشقَّ حتّىٰ جازَ فيه موسىٰ[3]

فقد استمد الشاعر التصوير القرآني لانشقاق البحر لموسىٰ ليثبت صفة الجود لممدوحه، لو كان معظم البحر مثل كفه، يعني في الجود والعطاء والقوة لما انشقّ لموسىٰ.

---

(١) الذمام: العهد وقيل جمع ذمة وهو الأمان ومنه قول النبي ﷺ: ويسعىٰ بذمتهم أدناهم.
(٢) الجذام: برص ليس له دواء. العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٧٩.
(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص١٩٩.

ومن القصص التي ذكرها قصة ذي القرنين الذي يمثل شخصية حظيت بإرادة حديدية إلىٰ جانب ما زودت به من عطاء إلٰهي، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]، واستطاع بذلك أن يطوي الأرض حتىٰ بلغ أرض الظلمات، وأن يبني سداً منيعاً، وقد استمد صورة السد من قصة القرنين في قوله:

كأني دَحوتُ الأرضَ مِنْ خِبرتي بها كأني بَنى الإسكندرُ السَّدَّ مِن عزْمي[1]

وقد أشار في المصراع الأول إلىٰ كثرة تنقلاته وأسفاره التي أكسبته خبرة واسعة بالأرض ومجاهلها، وأنه قد خبر الأرض وعرفها مثل ذي القرنين، وقد أعانه علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧].

واستمع إلىٰ قوله في موضع آخر:

لـو كـانَ ذو القـرنيْـن أعمـلَ رأْيَـهُ لمَّا أَتىٰ الظُّلماتِ صِرْنَ شُموسا[2]

أي له رأي سديد لو استعمله لأضاءت له الظلمات.

وأشار الشاعر إلىٰ صنعة الدروع التي عملها الله لداود عليه السلام.

قَـواضٍ مـواضٍ نَسْـجُ داودَ عنـدهـا إذا وقعَـتْ فيـه كنَسْـجِ الخَـدرْنَـقِ[3]

يقول هذه الرماح قاضية علىٰ من يقصده ماضية علىٰ من يعتمده، كنسيج العنكبوت في سرعة خرقها له ونفاذها فيه قال تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١].

وقال:

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٥٢.

(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص١٩٨.

(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص٣٠٩.

والخدرنق: العنكبوت والجمع خدارق.

مَفْـرَشِـي صَهْـوَةُ الحصـان ولكـ ـنَّ قميصي مسرودَةٌ مِنْ حَديدِ[1]
لأمَـةٌ فـاضَـةٌ أضـاةٌ دِلاصٌ أحْكَمَـتْ نَسْجَهـا يَـدا داودِ[2]

إن المتأمل لمفردات هذين البيتين يَلْمَحُ إلحاح الشاعر علىٰ لفظ نسج حيث أوردَهُ في تركيبين إضافيين في البيت الأول نسج داود، الخدرنق وأورده في البيت الثاني إلىٰ جانب مرادفه مسرودة مما ينم عن استيحاء الشاعر لحديث القرآن عن النبي داود عليه السلام وصنعة الدروع. وذلك لأن داود أول من عمل الدروع. قال تعالىٰ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠-١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وقد أشار الشاعر إلىٰ اتساع ملك سليمان عليه السلام بقوله:

مَـنْ يـزرْهُ سليمـانَ فـي المُلـ ـكِ جَلالاً ويوسُفاً في الجَمالِ[3]

أي أنه هذا الممدوح إذا زرته فكأنما زرت سليمان في ملكه ويوسف في جماله وبهائه فاستعار لممدوحه هذه الصورة.

كما أنه ذكر المسيح وصالحاً عليهما السلام فقال:

مـا مُقـامـي بـأرضِ نَخْلَـةَ إلاّ كمُقـام المسيـحِ بَيْـنَ اليهـودِ
أنـا فـي أُمـةٍ تـدارَكهـا اللهُ غـريـبٌ كصـالـحٍ فـي ثمـودِ[4]

---

(١) المفرش: موضع الفراش.
الصهوة: مقعد الفارس من ظهر الفرس.
الحصان: الفرس الفحل.
مسرودة: المنسوجة من الحديد.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣١٩.
(٢) اللأمة: الملتئمة الصنعة.
الفاضة: السابغة.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٢٠.
(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٩٥.
(٤) المصدر نفسه جـ١ ص٣١٩-٣٢٤.

لقد صوّر لنا صورة الاغتراب التي أحسّ بها الشاعر في أرض نخلة وما لحقه من أذىٰ مثل ما أوذي المسيح ابن مريم عليهما السلام، وكذلك اغتراب صالح عليه السلام بين قومه ثمود الذين عقروا الناقة.

وقد شغلت عقيدة النصارىٰ جانباً واضحاً في الصور التي استقاها الشاعر من القرآن الكريم، ولعل الحروب المستمرة بين سيف الدولة والدولة البيزنطية قد أثارت في خيال الشاعر كثيراً من الآراء، وقد تطرق في شعره إلىٰ عودة المسيح لبني إسرائيل، وادعاء النصرانية لبنّوة المسيح لله، وحديث صلب المسيح، ومعجزات عيسىٰ كشفاء المرضىٰ، وإحياء الموتىٰ.

قال مشيراً إلىٰ ادّعاء النّصارىٰ بأنَّ المسيحَ ابن الله كما أشار إليه القرآن الكريم قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

قال المتنبي:

أرىٰ المسلمينَ مع المشركيـ ـنَ إمّا لعَجْزٍ وإمّا رَهَبْ
وأنْتَ معَ اللهِ في جانبٍ قليلُ الرُّقادِ كثيرُ التَّعَبْ
كأنّكَ وَحْدَكَ وَحّدْتَهُ ودان البريّةُ بابنٍ وأبْ[1]

ضمّن الأبيات السابقة مدح سيف الدولة لوقوفه في وجه العدوان البيزنطي النّصراني ووصف تقاعس غيره من المسلمين كالبويهيين والإخشيديين عجزاً ورهبةً من هذا الجهاد الذي خاضَهُ سيف الدولة لحماية المسلمين ونصرةِ الدّين، وكأنّ الشاعرَ لم يجدْ سبباً يُقْعِد هؤلاءِ المسلمينَ عن جهاد البيزنطيين، إلاّ أنْ يكونوا شركاء للنّصارىٰ في اعتقادهم وإيمانهم بعقيدة التثليث.

ثم يقول:

ويَسْتَنْصِرَانِ الذي يَعْبُدانِ وعِنْدَهُما أنّه قَدْ صُلِبْ
ويدفَعُ ما نالَهُ عَنْهُما فيا للرّجال لهذا العَجَبْ[2]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص١٠٤.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص١٠٣-١٠٤.

فقد سخر المتنبي من ملك الروم وقائده اللذين استنصرا المسيح، ليدفعَ عنهما ما ناله من الهلاك (من قتل اليهود في زعمهم) ثم تعجب من هذا فقال: كيف يقدر أن يدفعَ عنهما الهلاك، ولم يستطع دفعه عن نفسه، وقد عبّر بذلك عن رأي الإسلام في النّصارىٰ حول نهايةِ المسيح الذي أوْجَزهُ القرآن الكريم بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

واستوحىٰ في شعره المُعْجزات التي منحها لعيسىٰ عليه السلام من شفاء المرضىٰ وإحياء الموتىٰ فقال:

تَيمّمَنـيَ وكيلُـكَ مـادِحـاً لـي ... وأَنْشَـدنـي مـن الشِّعْـرِ الغَـريبـا
فـآجَـرَكَ الإلٰـهُ علـىٰ عليـلٍ ... بَعَثْـتَ إلـىٰ المسيـحِ بـه طبيـا[1]

أراد بذلك الشاعر الذي قصد المتنبي يفاخره بشعره الغث الرديء، شاعراً ملك ناصية النظم، فحاله كمن أرسل من يداوي المسيح وهو الذي وهبه الله القدرة علىٰ شفاء المرضىٰ وإحياء الموتىٰ.

وذكر قصة عزير الذي أحياه الله لعيسىٰ في موضعين من شعره. قال في أحدهما:

كَفَـلَ الثّنـاءُ لـه بـردِّ حيـاتِـهِ ... لمّـا انْطـوىٰ فكـأنّـه مَنْشـورُ
وكـأنمـا عيسـىٰ ابـنُ مـريـمَ ذِكْـرُهُ ... وكـأنَّ عـازرَ شَخْصُـهُ المقْبـورُ[2]

لقد استوحىٰ الشاعر قصة عزير الذي تمثل فكرة البعث بعد الموت للتنويه بفضائل المرثي ومكارمه التي أبقت ذكره حياً علىٰ الألسنة بعد مماته.

وقال في موضع آخر عن عازر:

أو كـان صـادَفَ رأسَ عـازرَ سيفُـهُ ... فـي يـومِ مَعْـرَكَـةٍ لأعيـا عيسـىٰ[3]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص١٤٥.
(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص١٣١-١٣٢.
(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص١٩٨.

وقال يذكر الحواريين من قصيدة أنشأها بعد هزيمة مُنِيَ بها سيف الدولة بالقرب من ثغر الحدث قال:

ولـــو رآه حـــواريـــوهُـــمُ لبنَـــوْا علىٰ محبّتِهِ الشَّرْعَ الذي شرعُوا[1]

فقد تحدث الشاعر عن عدل سيف الدولة في هذه الحرب التي خاضها ضد الروم وقائدهم الدُّمستق فقال: لو رأىٰ الحواريون سيف الدولة ورَأَوْا عدلَه وإنصافه، لألزموا الروم الدخول في طاعته، وهو مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ [الصف: ١٤].

يُبيِّنُ المتنبي أنّ سيف الدولة أحقّ بالنّصر من سواه، وتطرقَ الشاعر إلىٰ قصّةِ الإسراء والمعراج التي التقط منها الشاعر خبر البراق وأشار إليه بقوله:

مـــا رآهـــا مكَـــذِّبُ الـــرُّسْـــلِ إلاّ صَـدَّقَ القَـوْلَ فـي صفـاتِ البُـراقِ[2]

فاستعار في وصفه لفرسه صفات البراق الذي أضفت علىٰ الفرس صفات مثالية في السرعة والنشاط، ولو لم تكن كذلك لما اتخذت دليلاً علىٰ صدق المعجزات لدىٰ المكذبين بالرسل، وقد ظهر أثر القرآن الكريم في شعر المتنبي في استمداده بعض الصور البيانية واستخدامه بعض ألفاظه كقوله:

وضاقَتِ الأرضُ حتّىٰ كان هارِبُهم إذا رأىٰ غيـرَ شـيءٍ ظنَّـه رَجُـلا[3]

فقد استعار الفعل (ضاق) للأرض مُسْتَوْحياً ذلك من قوله تعالىٰ حين وصف المسلمين في حُنين حين استبدّ بهم الخوف.

قال تعالىٰ: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢٢٥.

(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص٣٦٦.

(٣) المصدر نفسه جـ٣ ص١٦٨.

وقد قدم في الشطر الثاني صورة الوهم الذي واجه هؤلاء الفارّين حتىٰ ليعود لهم مطارداً في كل مكان، وبذلك أكثرَ الاستعمال المجازي للفعل (ضاق) كما ورد في القرآن الكريم.

ومن ذلك أيضاً قوله في مدح كافور:

وبـأيـامِـهِ التـي انسلَخَـتْ عَنْـ ـهُ ومـا دارُهُ سِـوىٰ الهَيْجـاءِ[1]

تعمد الشاعر الاستعمال المجازي للفعل (انسلخ) في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس ٣٧].

وقال أيضاً:

أقـرَّ جِلـدي بهـا علـيّ فـلا أقْـدِرُ حتّـىٰ الممـات أجْحَـدُهـا[2]

حيث استعار للجلد الفعل أقر، كما استعيرت الشهادة للجلود في القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١].

أي إن جلدهم يعترف بنعم الممدوح، كما تعترف الجلود يوم القيامة بالذنوب، أو تقرّ بما اقترفوه من آثام.

وقد يستلهم المتنبي بعض الأبيات مستفيداً من الإيحاء الذي تمنحه بعض ألفاظها نحو قوله:

تُبـاري نُجـومَ القَـذْفِ فـي كـلِّ ليْلـةٍ نجـومٌ لـه مِنْهُـنَّ وَرْدٌ وأدْهُـمُ[3]

نلمح في هذا البيت من الشعر أثر قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٦-٩].

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٣.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٣١٢.

(٣) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٥٣.

فقد شبه الخيل في سرعتها وقطعها الأرض بالنجوم، ولكن إضافة القذف حمّل الصورة سمات أخرىٰ تضاف إلىٰ القوة المعهودة في خيل الحرب، مثل الانقضاض علىٰ الأعداء، وتطهير الأرض من جيوشهم التي تعبث فيها فساداً، كما تفعل النجوم بالشياطين إذ تقصيهم بعيداً عن السماء.

وقد أسهم اللفظ الذي استمده من القرآن الكريم في إعطاء صورة الخيل في المعركة عنصر الحركة والإيجابية في القتال، وفي مقام الرثاء أراد المتنبي أن يسبغ علىٰ المرثي صفات خاصة فاستعار من القرآن الكريم وصف الجنة التي وعد بها الصالحون وما فيها من حور عين نحو قوله تعالىٰ: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣].

وقدم البيت لفظ الحور الذي ارتبط بحسن الجزاء في الجنة فقال:

يُبْكَى عَلَيْه وما استقرّ قرارُهُ في اللّحد حتّىٰ صافَحَتْهُ الحورُ[1]

ومن ذلك قوله:

إلىٰ سَيّدٍ لو بَشَّرَ اللهُ أمةً بغَيْرِ نبيٍّ بشّرَتنا به الرُّسُلُ[2]

لارتباط التبشير في القرآن بذكر الأنبياء في نحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: ٢٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقد يقتبس الشاعر بعض الصور القرآنية نحو قوله:

يَرىٰ حدّه غامِضاتِ القلوبِ إذا كُنْتُ في هَبْوةٍ لا أراني[3]

فقد وصف تكاثف الغبار في المعركة، مستنيراً بالتصوير القرآني للظلمة الحالكة التي تحول دون رؤية المرء ليده الممتدة أمام ناظريه في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠].

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص١٣٢.

(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص١٨٥.

(٣) المصدر نفسه جـ٤ ص١٩١. الهبوة: الغبرة.

وقد استمد هذه الصورة ليؤكد ما وصف به سيفه من إصابة الهدف التي عبّر عنها في استعارة (يرىٰ) للسيف.

وقد يستمد بعض المعاني القرآنية فيقدمها في صورة جديدة، فعندما شبّه القرآن أناساً لم ينتفعوا بما ميزهم الخالق بأنهم كالأنعام في قوله تعالىٰ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

استمد التشبيه القرآني ومثل له معتمداً علىٰ الاستخدام اللغوي لأسماء الاستفهام للعاقل وغير العاقل لقول الشاعر:

حَـولـي بكـلِّ مكـانٍ منهُـم خلـقٌ تُخْطي إذا جِئْتَ في استفهامها بمَنِ[1]

أي حولي من هؤلاء الناس جماعة كالبهائم فإذا قلت مَنْ أنتم؟ أخطأت في القول لأنَّك خاطبت ما لا يعقل بما يخاطب به من يعقل، بل إذا أردت أن تقول لهم من أنتم؟ فقل: ما أنتم؟

ومن دلائل تأثره بالقرآن الكريم قوله:

دعـوْتـك عنـد انقطـاع الـرَّجـاءِ والمـوتُ منـي كحبْـل الـوريـدِ[2]

حيث اقتبس من الآية القرآنية في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [قَ: ١٦].

واستلهامه معاني بعض الآيات القرآنية يحمله علىٰ الاحتفاظ ببعض ألفاظها أحياناً كما في قوله:

وجُـرمٍ جَـرَّهُ سفهـاءُ قَـوْمٍ وحَـلَّ بغَيْـر جـارمِـهِ العـذابُ[3]

يبدو من أثر قوله تعالىٰ: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أو من قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٢١٠.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٣٤٦.

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٨١.

الفقه عند المتنبي

يعد الفقه من آثار الثقافة الدينية التي ظهرت في شعر أبي الطيب، حيث اتخذ الشاعر من شعره معرضاً لبعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالحدود والمواريث وغيرها من الأحكام.

ومن أوائل شعره الذي ظهر فيه هذا الأثر الفقهي قصيدته التي نظمها في سجنه ومطلعها:

أيـــا خَـــدَّدَ اللهُ ورْدَ الخُـــدودِ وقـــدَّ قُـــدودَ الحِســـانِ القُـــدودِ[1]

وقد حاول الشاعر في هذه القصيدة تبرئة نفسه مما اتهم به فاستعان ببعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالحدود، ومما عرض له السن الذي فيها يجب إيقاع الحد علىٰ مرتكب الإثم قال:

تَعَجَّـــلُ فـــيَّ وجـــوبُ الحـــدودِ وحـــدّي قبـــل وجـــوبِ السُّجـــودِ[2]

فقد أشار الشاعر إلىٰ أنه لم يصل إلىٰ سن البلوغ الذي يجب عليه الحد إذ ما يزال دون سن السجود، وقد كان ذلك محاولة لنفي التهمة التي لصقت به بتصغير نفسه أمام الحاكم.

واستطرد إلىٰ التفريق بين إرادة الفعل، والفعل نفسه، إذ لا يعاقب الناوي فعل الحرام حتىٰ يرتكب الإثم بالوقوع فيه، وذلك في قوله:

وكُـــنْ فـــارِقـــاً بيـــنَ دعـــوىٰ أَرَدْتُ ودعـــوىٰ فَعَلْـــتُ بشـــأْوٍ بعيـــدِ[3]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٤١.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٣٤٦.

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٣٤٧.

ثم تعرض للشروط التي يجب توافرها في الشهادة حتىٰ يعتمدها أولو الأمر فقال:

فمـــا لَـــكَ تَقْبـــلُ زورَ الكـــلامِ وقَـــدْرُ الشَّهـــادَةِ قَـــدْرُ الشُّهـــودِ
فـــلا تسْمعَـــنَّ مِـــنَ الكـــاشحيـــنَ ولا تَعْبـــأنَّ بِمَحْـــكِ اليَهُـــودِ[1]

أشار بذلك إلىٰ بطلان الحكم عليه بالسجن إذ إن من شهد ضده لم تتوافر فيه شروط الشاهد العدل، والطعن بالشهود ردّ للتهمة من أساسها واجتثاث لها من الجذور، وإذا كان الشهود أكثر من كذابين فماذا يبقىٰ للشهادة من قيمة؟ وفي هذا الاتجاه لا يزال المنطق قائماً علىٰ الفقه، ولكنه يأخذ حيثية أخرىٰ، وهي حيثية الطعن بالشهود وتجريدهم من صفة العدالة ومن الواجب فقهياً أنْ يكونَ الشاهد عادلاً، قال تعالىٰ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

ويطلب الشاعر من الحاكم ألاّ يسمع لهؤلاء الذين يضمرون العداوة (الكاشحين) ويقصد بذلك العلويين الفاطميين[2] ويزعمون وما أظنُّ ذلك إلاّ صحيحاً أنّ جدهم كان يهودياً وأسلم ليدخل علىٰ الإسلام العقائد الفاسدة.

وقد تكون شخصية الممدوح واتصالها ببيئة الفقهاء والقضاء دافعاً يقود الشاعر إلىٰ إضفاء مسحة فقهية علىٰ صوره وألفاظه نلمح ذلك في قصيدة مدح بها القاضي الأنطاكي، قال فيها:

ألْقىٰ الكرامُ الأولىٰ بادوا مكارِمَهُم علىٰ الخَصيبيِّ عندَ الفرْضِ والسُّنَنِ
فهُنَّ في الحَجْر منه كلّما عرضَتْ لـه اليتـامىٰ بـدا بـالمجْدِ والمِنَـنِ[3]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٤٧.
(٢) محمود شاكر: المتنبي جـ١ ص١٠٨.
(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٢١٤.

أي أنَّ الكرام الذين هلكوا ورّثوه مكارمهم فهو يستعملها عندما يلزمه من الفريضة والسنّة أي هي تحت تصرفه، يتكفل أمرها، شأْنها في ذلك شأْن من يتولىٰ أمرهم من اليتامىٰ، وقد قادته شخصية القاضي الذي يمدحه إلىٰ جعل المكارم في صورة الأيتام بإيقاعها تحت الحجر، وكانت هذه الصورة وراء ذكره في البيت الأول ليمهد لذكر اليتامىٰ في البيت الثاني.

وهكذا جمع المتنبي في البيتين بعض الألفاظ التي اتصلت ببيئة الفقهاء «الفرض، السنن، اليتامىٰ، الحجر».

وترىٰ ذلك في مدحه القاضي أبي الفرج أحمد بن الحسين المالكي حيث قال:

أقاضينا هذا الذي أنْت أهلُهُ غَلِطْتُ ولا الثُّلثان هذا ولا النِّصْفُ
وذنبي تقصيري وما جِئْتُ مادحاً بذَنْبي ولكنْ جئتُ أسأَلُ أن تَعْفو[1]

فقد استمدّ الشاعر بعض الألفاظ التي ترد في أحكام المواريث كما أضفىٰ علىٰ البيت القالب الحسابي أو العددي، ومثل هذه الألفاظ المتعلقة بقوانين الميراث والوقف قوله في مدح محمد بن زريق الطرطوسي:

لَوْ جادَتِ الدُّنْيا فَدَتْكَ بأهلِها أو جاهَدَتْ كُتِبَتْ علَيْكَ حبيسا[2]

والحبيس: المحبوس وهو الوقف الذي لا يباع ولا يوهب.

أي لو كانت الدنيا ذات جود لأبقت عليك وفدتك بمن فيها، ولو كانت غازية مجاهدة في سبيل الله لجعلت نفسها محبوساً عليك، فكانت لا تغزو إلاّ لك وعنك وبأمرك.

وقد تكون هذه الإشارات الفقهية وليدة السياق الذي وردت فيه من ذلك قوله:

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢٩١.
(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص٢٠٢.

كـأنَّ سخـاءَكَ الإسـلامُ تَخْشـىٰ إذا مـا حُلْـتَ عـاقِبـةَ ارتِـدادِ[1]

فقد جعل سخاء ممدوحه بمنزلة اعتقاده دين الإسلام، فيقول: أنْتَ تدين بالسخاء وتعتقده كما تدين بالإسلام وتعد تحوّلك عنه كأنه الردة فتخاف هذا التحول كما تخاف الردة عقابها القتل ودخول النار، وهو مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ . . . ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقد جعل العطاء والقتال فريضة حيث يقول:

ويَـدٌ كـأنَّ قِتـالَهـا ونَـوَالَهـا فَـرْضٌ يَحِـقُّ عَلَيْـكَ وهْـوَ تَبَـرُّعُ[2]

فقد مدح فاتكاً بالتزامه النوال والقتال كأنَّه أمام فرائض وجب عليه أداؤها علىٰ الرغم من كونها في الحقيقة نوافل.

وتلوح سمة الفقه علىٰ البيت في ألفاظه المنتقاة من الفقه والتي هي «الفرض التبرع».

ومن أقواله التي يبدو فيها الأثر الفقهي واضحاً قوله:

وزارِكَ بـي دونَ الملـوكِ تحـرُّجـي إذا عَنَّ بَحْرٌ لم يَجُزْ لي التَّيَمُّمُ[3]

لم يبح الشاعر لنفسه أن يتوجه بشعره إلىٰ غير ممدوحه إذ لا أحد يغني عنه وهل يجوز لمن أراد الطهارة أن يتيمم والماء موجود.

وقد استخدم الشاعر هذا الحكم في التمثيل علىٰ التي ذكرها في الشطر الأول مما زادها إبانةً ووضوحاً، ويظهر أثر الفقه أيضاً في الغزل حيث قال:

قفي تغْرَمِ الأولىٰ من اللَّحْظ مُهْجتي بثـانيـةٍ والمُتْلِـفُ الشَّـيءَ غـارِمُـه[4]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٥٩.
(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص٢٧٣.
(٣) المصدر نفسه جـ٤ ص٩١.
(٤) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٣٠.

لقد تمنىٰ الشاعر أن تُعيدَ الحبيبة النظر إليه إذْ إنَّها أضاعت مهجته بنظراتها الأولىٰ، فوجب عليه ردّها إذ إنّ من أتْلَف شيئاً وجب عليه غرامته كما يقول الفقهاء، وقد صاغ الشاعر بيته صياغة عقلية مستعيراً الحكم الفقهي (المتلف لشيء غارمه).

وقد ٱستمد بعض الأحكام الفقهية وأوردها في صورة علىٰ غير ما وردت عليه في الأصل، نحو قوله في وصف الحُمّى:

وزائِـرَتـي كـأنَّ بهـا حَيـاءً ... فليـس تـزورُ إلا فـي الظّـلامِ
بـذلْـتُ لها المطـارِفَ والحَشَـايا ... فعـافَتْها وبـاتـتْ فـي عِظـامـي
يضيـقُ الجلـدُ عـن نَفْسـي وعنْهـا ... فتـوسِعُـهُ بـأنـواع السّقـام
إذا مـا فـارقَتْنـي غَسَّلَتْنـي ... كـأنّـا عـاكفـانِ علـىٰ حـرام[1]

فالإشارة الفقهية في البيت الرابع وليدة السياق، فقد بدأ الشاعر حديثه عن الحمىٰ، بجعلها زائرة له في الظلام إلىٰ آخر ما ورد في الأبيات التي تلت ومن ثم فقد جعل العرق الذي أصاب جسده المحموم بمثابة الغسل والطهارة التي يستوجبها الجماع، وقد عاب النّقاد قوله «حرام» اعتراضاً منهم علىٰ استخدام المأثور الفقهي علىٰ غير وجهه الصحيح، فقال الحاتمي: «الحلال أولىٰ بالغسل وأخص من الحرام فكيف خصصت الحرام بوصف يشركه منه غيره، وله به اختصاص فوق اختصاصه؟».

وقد نقل الحاتمي دفاع المتنبي «أتيتُ بأحدها فدل علىٰ الآخرة، وإنْ لم أذكره»[2]، وفي القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، وهي تقي من البرد أيضاً.

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٤٦.

(٢) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي ص١٨٩.

أما ابن الشجريّ فقد ذكر[1]: «أنه خصّ الحرام لأنه جعلها زائرة غريبة ولم يجعلها زوجة ولا مملوكة» وهذا التعليل صحيح، إذ يناسب الصورة التي أرادها الشاعر للحمىٰ في الأبيات السابقة ويوحي بما يعقب زيارتها من آلام وأوجاع.

وقد يكون استمداده لبعض الإشارات الفقهية معبراً عن إدراكه لاختلافات الفقهاء في بعض الأحكام حيث قال:

أرادَتْ كــلابٌ أنْ تقــومَ بــدَوْلــةٍ لمَنْ تَرَكَتْ رَعْيَ الشّوَيهاتِ والإبْلِ[2]
أبىٰ رَبُّها أنْ يتركَ الوَحْشَ وَحْدَها وأنْ يُؤمنَ الضَّبَّ الخبيثَ من الأكْلِ

يمكن القول إطلاق صفة الخبيث علىٰ الضَّبّ، إيماء إلىٰ اختلاف الفقهاء في أكله واستناد كل طائفة علىٰ ما رُوي في الأثر من إباحته وتحريمه.

❊ ❊ ❊

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٤٦.
(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص٢٩٥.

التصوف الإسلامي

عاصر أبو الطيب المتنبي فترة مزدهرة من تاريخ التصوف الإسلامي في أوائلِ القرن الرابع الهجري، حيث ٱنتشرت الصوفية في أنحاء العالم الإسلامي، وٱنتظموا طوائف وجماعات، وأصبحَ لهم مريدون وأنصار، وٱستطاع كثير منهم التعبير عن تأملاتهم ومواجيدهم في أشعارهم التي تعدّ من دواعي ٱزدهار التصوف.

لقد كان للتصوف أثرٌ كبيرٌ في شعر أبي الطيب المتنبي، ومن يقرأ ديوان الشاعر يجده يستوعب حيزاً واسعاً من خواطره وأفكاره.

ولعل الصوفية من أبرز الجماعات التي تحدث المؤرخون والنّقاد عن أثرها في شعر أبي الطيب، يقول ابن جني[1]: «وكثيراً ما يسلك المتنبي طريقة المتصوفة» أمّا الثعالبي فقد خصص فصلاً في يتيمة الدهر عن امتثال الشاعر لأساليب المتصوفة.

يقول شوقي ضيف[2]: «إنَّ المتنبي حين عدل بشعره إلىٰ العبارة الصوفية كان قد أسلم هذا الشعر إلىٰ صعوبات في التركيب».

لقد عدّ النقاد أثر التصوف في شعر المتنبي من العيوب التي رأوْا فيها خروجاً علىٰ عمود الشعر، وتقاليده الموروثة.

اقرأ هذه الأبيات التي يقولها في ممدوحه:

ذا السّراجُ المنيرُ هذا النّقيُّ الـ ـجَيْبِ هذا بَقِيَّةُ الأَبْدالِ
فَخُذا ماءَ رِجْلِهِ وٱنضحا في الـ ـمُدْن تأمَنْ بوائقَ الزَّلْزالِ
وٱمسحا ثوبَهُ البقيرَ علىٰ دا ئِكُما تُشْفَيا من الأَعْلالِ[3]

---

(١) هدىٰ الأرناؤوط: ثقافة المتنبي في شعره ص٧٤.

(٢) محمد عبد الرحمٰن شعيب: المتنبي بين ناقديه ص٢٩٧.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٩٦-١٩٧.

عند قراءة هذه الأبيات تحس بأنَّكَ إزاء شاعرٍ صوفي يصوغ معانيه صياغة صوفية، أليس يمدح صاحبه كما يمدح الصوفية أقطابهم فيجعله بقية الأبدال؟

يقول العكبري: «الأبدال سُموا أبدالاً لأنهم أبدال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، في إجابة دعواتهم ونصحهم للخلق، وقيل إذا مات أحدهم أبدال الله مكانه آخر، فهم لا ينقضون حتىٰ تقوم الساعة ويقال هم أربعون رجلاً في أقطار الأرض».

يقول شوقي ضيف: «ليس كل ما في هذه الأبيات من أثر التصوف هو أنه استعار لفظة الأبدال من الصوفية، بل إننا نراه يتحدث عن ممدوحه كأنه يتحدث عن رجل مبارك من رجالهم، وإلاّ فما هذا الماء الذي يمنع الزلزال ويشفي الأعلال؟ والحق أن المتنبي كان ينزع بشعره منزعاً صوفياً يحاول أن يجدد في فنه ولكنه تجديد غريب»[1].

أمّا هدىٰ الأرناؤوطي[2] فإنها تقول: «لقد جعل ممدوحه في مقام القدسية والتقرب إلىٰ الخالق، وجعل آيته إتيانه المكرمات، ومن الكرامات التي أضفاها عليه بركته التي تمنع الخراب والدمار الذي يحدثه الزلزال في المدن، ومعالجته المرضىٰ بمس ثوبه الطاهر المبارك».

وعلىٰ هذا النمط من الفكر الصوفي يذكر الخِضْر في قوله:

إذا ما ذَكَرْنا جُودَهُ كانَ حاضِراً نأىٰ أوْ دنا يَسْعىٰ علىٰ قَدَمِ الخِضْرِ[3]

أي شبه الممدوح بالخضْر، ويقال: إنَّ الخضر لا يذكر في موضع إلا حضر والخضر عند الصوفية حيّ يرزق[4]، ويتميز بالكرامات وخوارق العادات، استمع إلىٰ هذا البيت من قصيدة مدح بها بدر بن عمار:

---

(١) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر الحديث ص٣١٤.

(٢) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي ص١٩٧.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص١٣٧.

(٤) المصدر نفسه جـ٢ ص١٣٧.

تجلّـــىٰ لنـــا فـــأضَـــأنـــا بِـــهِ كـــأنّـــا نُجُـــومٌ لَقينـــا سُعُـــودا[1]

فالشاعر يتصنع فكرة التجلي التي يؤمن بها الصوفية، وهكذا نرىٰ أنّ المتنبي يستعمل كثيراً من اصطلاحات القوم وألفاظهم.

استمع إلىٰ الشاعر في هذين البيتين وهو يستعير اصطلاح «الحال».

وحـــالاتُ الـــزّمـــانِ عَلَيْـــكَ شتّـــىٰ وحـــالُـــكَ واحِـــدٌ فـــي كـــلِّ حـــال[2]

وقوله:

ولكِـــنْ تفـــوقُ النـــاسَ رَأْيـــاً وحِكمـــةً كمـــا فُقتَهُـــمْ حـــالاً ونفســـاً ومَحْتَـــدا[3]

والحال عند الصوفية: معنىٰ يرد علىٰ القلب من غير تعمد ولا اجتلاب من طرب أو حزن[4].

أما اصطلاح «الخواطر» فهو في مثل قوله:

عليـــمٌ بـــأسْـــرَارِ الـــدِّيـــانـــاتِ واللُّغَـــىٰ له خَطراتٌ تفْضَحُ النَّاسَ والكُتْبا[5]

واصطلاح الباطن والظاهر (الحجاب) في قوله:

مَـــنْ كـــانَ ضَـــوْءُ جبينِـــهِ ونَـــوالُـــهُ لَـــمْ يُحْجبـــا لـــم يَحْتَجِـــبْ عَـــنْ نـــاظِـــرِ
فـــإذا احتجبْـــتَ فـــأنـــتَ غيـــرُ محجَّـــبٍ وإذا بَطَنْـــتَ فـــأنـــتَ عَبْـــنُ الظـــاهِـــرِ[6]

قال الشاعر هذين البيتين حين حجبه بدر بن عمار، فذكر أن صورة بدر وعطاءه انطبعا في قلبه، حتىٰ لا يحول الحجاب دون رؤيته لها، ولعل هذه الفكرة ذكرته بصورة الحجاب عند الصوفية، ويذكر اصطلاح الحضور والغيبة فيقول:

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٦٦.
(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص٢٠.
(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٢٨٩.
(٤) هدىٰ الأرناؤوطي: ثقافة المتنبي ص١٨٠.
(٥) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٦٢.
(٦) المصدر نفسه جـ٢ ص١٣٨.

فَدَتْكَ نُفُوسُ الحاسدينَ فإنَّها مُعَذَّبةٌ في حَضْرةٍ ومغيبِ[1]

وبذكر اصطلاح «الزمان» في مثل قوله:

نحنُ مَنْ ضايقَ الزمانُ له فيـ ـكَ وخانتْهُ قُربَكَ الأيّامُ[2]

أما «الوقت» فهو من المفردات التي تكررت في شعر المتنبي كقوله:

قَدْ استراحَتْ إلىٰ وقْتٍ رقابُهُمُ من السّيوفِ وباقي القومِ يَنْتَظِرُ[3]

ومثل قوله:

فتىً يشتهي طولَ البلادِ ووقتُهُ تَضيقُ به أَوْقاتُهُ والمقاصِدُ[4]

وقد استمد المتنبي من القرآن الكريم إحدىٰ الآيات التي اعتمد عليها الصوفية في مبحثهم عن القرب في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [قَ: ١٦]، فقال:

دعوتك عند انقطاعِ الرجاءِ والموتُ مِنِّي كحبْلِ الوريدِ[5]

* * *

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٥٦.

(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٤٣.

(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص٩٨.

(٤) المصدر نفسه جـ١ ص٢٧٥.

(٥) المصدر نفسه جـ١ ص٣٤٦.

شعر الجهاد

الجهاد هو: بذل الوسع في القتال في سبيل الله مباشرة أو معاونة بمال أو رأي أو تكثير **سواد** أو غير ذلك، فالقتال لإعلاء كلمة الله هو الجهاد، أما الجهاد بالرأي في سبيل الله فهو إن كان رأياً يتعلق مباشرة بالقتال في سبيل الله فهو جهاد وإن كان لا يتعلق مباشرة فليس جهاداً شرعاً، ولو كانت فيه مشقات، ولو ترتبت عليه فوائد لإعلاء كلمة الله، لأن الجهاد شرعاً خاص بالقتال ويدخل فيه كل ما يتعلق مباشرة بالقتال، ومثل الرأي الكتابة والخطابة إنْ كانت متعلقة مباشرة بالقتال كخطبة في الجيش لتحمسه ليباشر القتال، أو مقال تحريضي لقتال أو قصيدة تلهب النفوس لقتال الأعداء فهو جهاد وإلاّ فلا. وعلىٰ ذلك فلا يطلق علىٰ الكفاح السياسي جهاد، ولا علىٰ مقارعة الحكام المسلمين الظالمين جهاد وإن كان ثوابه كبيراً، وفوائده للمسلمين عظيمة، فالمسألة ليست بالمشقة ولا بالفائدة، وإنما هي بالمعنىٰ الشرعي الذي وردت فيه هذه الكلمة، والمعنىٰ الشرعي هو القتال وكل ما يتعلق به من رأي وخطابة وشعر وكتابة ومكيدة وغير ذلك وسبب الجهاد ليس الجزية وإن كنا نكف عنهم عند قبول الجزية وإنما سبب الجهاد هو كون الذين نقاتلهم كفاراً امتنعوا عن قبول الدعوة، قال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، أي قاتلوهم لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

وقد جاء في آية أخرىٰ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [النساء: ٧٦]، وقال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٢]، وقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]، وهذه الآيات كلها أمر بالقتال لوصف معين هو سبب القتال وهو الكفر.

والجهاد فرض بنص القرآن والحديث قال تعالىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال أيضاً: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»، وقال ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله»، وقال أيضاً: «الجهاد ماضٍ إلىٰ يوم القيامة»، وعن زيد بن خالد قال: قال رسول الله ﷺ: «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا».

والجهاد فرض كفاية ابتداء، وفرض عينٍ إذا هجم العدو علىٰ من هاجمهم وفرض كفاية علىٰ غيرهم، ولا يسقط الفرض حتىٰ يطرد العدو وتطهر أرض الإسلام من رجسه، ومعنىٰ كون الجهاد فرض كفاية ابتداء هو أن نبدأ بقتال العدو وإن لم يبدأنا، وإن لم يقم بالقتال ابتداء أحد من المسلمين في زمن ما أثم الكل بتركه والقتال ابتداء إذا قام به أهل مصر سقط عن أهل أندونيسيا إذ قد وُجِد فعلاً قتال من المسلمين للكفار المحاربين فحصل فرض الجهاد، أما إذا نشب القتال بين الكفار والمسلمين ولم تحصل الكفاية بقتال الكفار من قبل أهل مصر وحدهم فلا تسقط فرضيته عن أهل الباكستان وأندونيسيا بقيام أهل مصر والعراق بل يفرض علىٰ الأقرب فالأقرب من العدو وإلىٰ أن تحصل الكفاية فلو لم تحصل الكفاية إلاّ بكل المسلمين صار الجهاد فرضاً علىٰ كل المسلمين حتىٰ يقهر العدو.

والجهاد عمل جماعي ولا يتأتىٰ إلاّ أن يكون جماعياً، لأن عمل الجهاد لا يمكن أن يقوم به فرد، فهو قتال للكفار جميعاً لإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، ولذلك فإن الجهاد من المسؤوليات الملقاة علىٰ عاتق الأمة جميعها، والتقصير فيه يعرض الأمة جميعها للهلاك، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والجهاد هو مبادأة العدو بالقتال وإنه من أجل تحطيم الحواجز المادية التي تقف في طريق الدعوة الإسلامية للوصول إلىٰ الناس ليخرجهم من الظلمات إلىٰ النور.

يَرىٰ بعض الناس ممن يدّعون العلم أن الجهاد ليس مبادأة العدو بالقتال، بل هو للدفاع فقط، ويَرىٰ فريقٌ آخر ممّن يتظاهر بالإسلام بأن الفتوحات الإسلامية كان غرضها الاستعمار.

ولإزالة الشبهة نقول للذين يزعمون أن الجهاد استعمار نقول لهم: إنكم قستم الفتوحات الإسلامية علىٰ الفتوحات الاستعمارية، وأنكم لم تستنيروا بنور الإسلام لتفرقوا بين النور والظلام.

وأما الفريق الذي قال بأن الجهاد دفاع أي ليس مبادأة العدو بالقتال فقد استدل علىٰ رأيه بقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ويبدو أن مَن يقول بهذا الرأي متأثر بتشويش المستشرقين علىٰ الإسلام وخاصة موضوع الجهاد بالذات لأن الغرب كان يهمه إلىٰ جانب إضعاف العقيدة في نفوس المسلمين إظهار أن الجهاد وحشية وهمجية.

ولإظهار الحقيقة نقول: إن أدلة الجهاد عامة ومطلقة وتشمل الحرب الدفاعية، ومبادأة العدو بالقتال، والحرب المحدودة والحرب الوقائية وغير ذلك، فهي تشمل كل أنواع القتال للعدو لعمومها أو إطلاقها فتخصيصها بالحرب الدفاعية أو تقييدها بأن تكون حرباً دفاعية لا هجومية يحتاج إلىٰ نص يخصّصها أو إلىٰ نص يقيّدها، ولم يرد أي نص يدل علىٰ ذلك لا من الكتاب ولا من السنة، لذلك تبقىٰ علىٰ عمومها تشمل كل حرب من الحروب وكل قتال للعدو ولنأخذ آيات الجهاد التي وردت في سورة التوبة لأن سورة التوبة من آخر ما نزل حتىٰ لا يبقىٰ مجال لادعاء التخصيص أو التقييد أو النسخ، قال تعالىٰ: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقال أيضاً: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

من هذا التعريف للجهاد علينا أن نثبت أن الشاعر المتنبي قد اشترك في الجهاد والذي يثبت ذلك ما قاله من شعر فإلىٰ ديوان المتنبي لنتعرف علىٰ شعر الجهاد عند الشاعر.

جاهد المتنبي في سبيل الله إذ اشترك في المعارك التي خاضها سيف الدولة منذ عام ٣٣٩هـ-٣٤٥هـ وجاهد بلسانه حيث قال الشعر محرضاً المسلمين علىٰ القتال في سبيل الله.

إن قصائد المتنبي الجهادية العديدة التي قالها خاصة في سيف الدولة تلحّ علىٰ الجهاد وعلىٰ الجانب الديني، فالمعارك بين معسكرين، معسكر الإيمان يقوده ممدوحه وأنصاره ومساعدوه وحلفاؤه، ومعسكر الكفر يقوده الدمستق باسم ملكهم مع حلفائهم من بلغار وروس.

إنّ الصفةَ البارزةَ للمعسكر الأول أنه مسلمٌ موحد، يَرْضىٰ عنه الله لأنه حزبه الذي ينصر دينه، ويُؤمِّن حجيجه ويقطع دابر أعدائه، والصفة البارزة للمعسكر الثاني أنه كافر مشرك وبالجملة نصراني يؤمن بعقيدة التثليث.

في هذه الجهاديات تكرار ملحّ علىٰ الجانب الديني في الحرب فيما يكاد يذكر الروم حتىٰ يلحقهم بدينهم وما يكاد يذكر الحمدانيين حتىٰ يطيل الكلام في إسلامهم ويتردد ذكر المقدسات الدينية كمنابر المسلمين وحجيجهم وصلبان النصارىٰ وأديرتهم.

لذلك يتحدث الباحثون عن شعر أبي الطيب الذي قاله في الجهاد ـ في حرب سيف الدولة مع الروم ـ.

والحق أن المتنبي إنما برز في شعر الجهاد ـ الحرب ـ لذلك نعته النقاد بأنه قائد عسكر[١] وجعله شفيق جبري[٢] وصاف معارك. ولا غرابة في ذلك فالمتنبي

---

(١) مصطفىٰ الشكعة: مملكة سيف الدولة ودولة الأقلام ص٢٠٧.

(٢) سهيل عثمان، منير كنعان: المحصول الفكري عند المتنبي ص٣١٠.

برز في هذا النوع من الشعر ـ شعر الحرب ـ منذ يفاعته، ولم يتوقف عن ذكر الحرب حتىٰ آخر حياته، والذي دعا الشاعر إلىٰ ذكر الحرب الأوضاع السياسية والعسكرية التي كانت سائدة، حيث كانت البلاد في اضطراب والأمصار في تطاحن.

لقد وُلد شاعرنا وقعقعة الأعنة، وصهيل الخيول، وغمار الوقائع، وصليل السيوف يصدع الآذان، ويملأ الآفاق، والجيوش تتحرك في كل مكان ولا مَجْد إلا للمقاتلين.

لقد كانت الحروب البيزنطية العربية مَنْبعاً خصيباً للشعراء الذين عاصروا هذه الحرب أمثال أبي تمام والبحتري، فقد مجّد هؤلاء المأمون والمعتصم وقادتهما، ولكن أعظم الشعراء المتغنين بالحرب البيزنطية العربية دون منازع هو أبو الطيب المتنبي، الذي بكبريائه الفطرية، وحبّه المفرط للمجد كان مؤهلاً كل التأهيل لأن يغدو الشاعر الذي يصطفيه لأمجاده، أمير ماجد شغله الشاغل الجهاد، فخلال السنوات ٣٣٩-٣٤٥هـ كان المتنبي رفيق سيف الدولة في غاراته الكثيرة، فالمعارك التي خاضها الأمير سيف الدولة، ودارت رحاها في آسيا الصغرىٰ وسوريا وبلاد ما بين النهرين، وبسالة سيف الدولة وجرأته أوحت للشاعر بالعديد من قصائده.

إنّ أبا الطيب قد تَفَوّق علىٰ أقرانه في هذا الضرب من الشعر، أو وصف الجهاد بين المسلمين والروم، لأنه شاعر يصدر عن وعي، وعن صحبة للموضوع الذي ينشد فيه، فلقد اختبر بنفسه هول الحرب ومرارة الصراع، وخاض غمار القتال مع المقاتلين فنقل تجربته شعراً.

لقد كان الشاعر مُبْدعاً في تصوير الأحداث الحربية ومن أبْرزِ سِمات إبداعه الفَهْم التّام لحقائق الحياة التي عاشها وتوغل فيها، وكان نجاحه في الربط بين المعرفة الحقيقية لآمال أمته، وما أوتي من قوة المشاعر عاملاً أساسياً في إبداعه.

لقد وقف أبو الطيب مع مآثر الأفراد الذين عايشهم وبطولاتهم، وتفوق في تصوير مآثرهم «فكان لسانه إذا خاض في وصف معركة أمضىٰ من نصالها،

وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها، حتىٰ تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا، كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما أدىٰ عيانه»[1].

لقد اختلف المتنبي عن أقرانه في وصف المعارك، فلا أبو تمام ولا البحتري ولا غيرهما من كبار شعراء العباسيين يبلغون شأوه في هذا الميدان، لأن هؤلاء لم يفرغوا لهذا الفن كما فرغ، ولم يقفوا عليه أكثر جهدهم كما وقف عليه أكثر جهده، ثم هم لم يشتركوا في الجهاد كما اشترك فيه، ولم يشهدوا مواقع الحرب كما شهدها، ولم ينعموا كما نعم، ولم يشقوا كما شقي، فهم كانوا يقولون الشعر في وصف الجهاد مع الأعداء متأثرين بفنهم وحده، ولكنه كان يقول متأثراً بما يرىٰ قبل كل شيء، لذلك فإنك إذا قرأت وصف المتنبي لهذا الجهاد وجدت فيه ناراً تضطرم ولا تكاد تمس قَلْبَك حتىٰ تشيع فيه، وإذا قلبك يضطرم أيضاً حماسة ونشاطاً[2].

لقد أدرك المسلمون أن الحرب تعني كسر كل الحواجز التي تقف في وجه الدعوة الإسلامية ومن ثم التقدم في بلاد الأعداء لفتحها ورَفْعِ راية الإسلام فوقها، وقد تكون الحرب دفاعية لرد العدوان، وقد أكد هذه الحقيقة الدين الإسلامي يوم نادىٰ بالمسلمين، قال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

لقد كان في عصر أبي الطيب أمة ممزقة الأوصال، وكان هناك أعداء يتربصون بها الدوائر، وكان هناك إمارة عربية واقفة بشموخ متحدية الأقدار، رافضة الانهزام معلنة بقاء الأمة علىٰ الرغم من محنتها وتشتتها، وكان هناك رجال مخلصون اعتبرهم المتنبي والتاريخ رمزاً للإنسان العربي المسلم.

---

(١) ابن الأثير: المثل السائر ص٢٣١.

(٢) طه حسين: مع المتنبي ص١٧٤.

لقد كان لكلمات المتنبي دورها الفاعل في ذروات التحدي، وكانت عاملاً أساسياً في تحريك الأمة نحو مواطن الأعداء، وبيان مكامن الأخطار، لقد كان يدعو إلىٰ الثورة من أجل التخلص من ربقة الأعداء، ومن زمر الأعداء المتخاذلين.

لقد وجد أبو الطيب نفسه عند أمير عربي مجاهد لا يكتفي بإذاعة فضائله ووصف وقائعه بل يشاركه في القتال ويحضّ الجند علىٰ خوض غمار المعارك.

لقد ٱستطاع أبو الطيب أن يَجْمعَ في شعره بين الفن والفروسية، فهو شاعر استطاع أن يرسمَ بمهارته الفنية وإحساسه المرهف، وخياله الواسع أروع اللوحات المتجانسة الخطوط والألوان النابضة بالحركة والحياة للمعارك التي خاضها مع سيف الدولة والتي شاهدها عن قرب، لذلك امتاز شعره الجهادي ببراعة التصوير وأصالة الفن والدقة في تتبع أحداث المعركة بالصورة والصوت، لذلك جاء شعره عبارة عن عدسة تصويرٍ ناطقة تنقل إليك صورة الجيشيْن المتحاربيْن، فالأعداء جاؤوا غارقين بالسلاح والحديد.

وإذا نظر الإنسان إلىٰ خيولهم خُيِّلَ إليه أنها بلا قوائم، وإذا لمع السلاح تحت أشعة الشمس لم نستطعْ أن نميزَ بينَ السيف من غيره لأنّ السلاح قد غطىٰ أجسادهم، وأنّك واجدٌ المتنبي وهو يصوّر المعركة، يعرض عليك صوراً حية للكتائب المتصارعة وتعبئتها، خططها الحربية، طرقها في التقدم والهجوم وما يصادفها عَبْر هذا الاندفاع من استحكامات عسكرية وعوارض طبيعية، وما أنْ يقف بك في حومة الوغىٰ والصراع حتىٰ تسمعَ هتافاتِ الجند وأنين الجرحىٰ، وصهيل الخيول وجلجلة الأسلحة.

الحرب عند أبي الطيب تحتاج إلىٰ قيادة واعية مبدعة مخلصة لدينها وتحتاج إلىٰ تخطيط سليم من أُناس مختصين في شؤون الحرب، وإلىٰ أمة متفانية من أجل الدفاع عن عقيدتها، وقد وجد ذلك في الأمير المجاهد سيف الدولة.

لذلك تجد في وصف المتنبي لجهاد سيف الدولة عند الثغور فتوة عربية، وترىٰ هذه الفتوة العربية تشيع في وصف المتنبي حيّة قوية مضطربة شديدة

الاضطراب كأنها الكهرباء، لا تكاد تتصل بهذا الشعر حتىٰ ينتقل إليك ما صوّر فيه المتنبي الثقة، والإيمان بالحق، والارتفاع عن صغائر الأمور دائماً[1].

إن المتنبي ارتقىٰ بشعر الجهاد حتىٰ انتهىٰ به إلىٰ أقصىٰ ما كان قد قدّر له من كمال، وإنك تشعر هذا شعوراً قوياً واضحاً حين تقرأ شعر المتنبي وشعر أبي فراس في وصف هذا الجهاد، فكلا الشاعرين قد شهد المواقع واشترك فيها، وذاق لذاتها وآلامها، ثم وصف ما تركت في نفسه، وفي نفس غيره من الأثر ولكنك تجد في وصف المتنبي قوة وفتوة ونشاطاً وعنفاً لا تجدها في شعر أبي فراس الذي ظهرت فيه دقة الحس، ورقة العاطفة، فهو لا يخلو من فتور لا يلائم هذه الحياة العنيفة التي كان يحياها العرب من المسلمين في ذلك الوقت.

إن أشعار المتنبي في وصف المعارك تعطينا من الانطباع البصري والسمعي الحقيقي للزحوف والمعارك والتعقيبات والمجازر أكثر مما تعطينا الحكايات التاريخية، وهي أفضل من الحكايات التاريخية في كونها تقدم لنا لوحة حيّة عن أبهة حفلات استقبال الشعراء وعظموتها التي لم يأت عليها المؤرخون إلا بكلمات معدودات، فالقصائد تعجّ بهذه التفاصيل التي تشرئب إليها تطلعاتنا العصرية وذلك لاستحضار الماضي بصورة دقيقة[2].

إنّ أبا الطيب كان يقول الشعر متأثراً بما يرىٰ قبل كل شيء، ويُحْكَىٰ عنه أنّه كان لا يريد أنْ يصف الوقائع التي لم يشهدها مع الأمير سيف الدولة ومن هنا نفهم السبب الذي تحسه حين تقرأ وصفه لهذا الجهاد بين المسلمين والروم.

إنّ شعر الجهاد الذي نحن بصدده هو عبارة عن وثائق تاريخية، لم تتهيأ لشاعر قبله من حيث الواقع والكثرة، فهو يذكر دقائق الأمور في المعارك فحين تقرأ شعر الجهاد، ترىٰ نفسك أمام جيش المسلمين المظفّر يقوده البطل المجاهد ويعلن البشائر بعد كل نصر حاثاً الأمير علىٰ ضَرْبِ الكافر المعتدي.

---

(١) طه حسين: مع المتنبي ص١٧٤.

(٢) ماريوس كنار: المتنبي والحرب البيزنطية العربية، مجلة المورد عدد ٢ ص٧٥-٧٦.

لقد نظم الشاعر في سيف الدولة (١٥١٢) بيتاً من الشعر في أكثر من ثمان وثلاثين قصيدة وإحدىٰ وثلاثين قطعة، وهذا الشعر يُعَدّ ثلث شِعْر الشاعر وهي ولا شك أفضل ما في ديوان الشاعر، منها ثماني عشرة قصيدة ومقطوعة في جهاده ضد الروم، كان شاعرنا فيها يَنْفُخُ مزاميرَ الحرب، ويدقُ طبولها، وهذه القصائد تمثل قمة العنف في الصراع مع الروم، لذا غدت موكباً للقوة، وحشداً معنوياً في تصوير هذه القوة[١].

يقول نصرت عبد الرحمٰن[٢]: «إن سيفيات المتنبي تدور في ثلاثة أفلاك:

أولاً: إنّ العرب وعلىٰ رأسهم سيف الدولة لا يُقْهرون.

ثانياً: إنّ الرومَ مُنْهَزمون وإن جمعوا الجيوش ومهما بلغت قوتهم.

ثالثاً: إنّ سيفَ الدولة خَيْرُ أمراء العرب والمسلمين بطولة وذَوْداً عن ديار الإسلام».

لقد جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس كما يقول ابن رشيق القيرواني وسيظل شعره في الحرب ملحمة المسلمين الكبرىٰ.

لقد كان المتنبي أعظم شاعر خلّد حروب المسلمين مع البيزنطيين فبذّه بذلك كل شاعر قبله[٣]، ولقد عُدّ أشعر المسلمين[٤] في شعر الجهاد، ومنهم من عدّه شاعر الإسلام[٥]، وبطل المتنبي في شعر الجهاد ـ الحروب ـ رجل الدولة[٦] ساهر علىٰ مصالح الأمة وذائد عنها عاديات الشر، عارف مواضع الشدة ومواضع اللين.

---

(١) عبد الوهاب عزام: ذكرىٰ أبي الطيب بعد ألف عام ص٨٤.

(٢) نصرت عبد الرحمٰن: شعر الصراع مع الروم ص٣٣١.

(٣) ماريوس كنار: المتنبي والحروب البيزنطية العربية، مجلة المورد عدد ٢ ص٧٧-٨٤.

(٤) الزركلي: الأعلام جـ١ ص١١٠.

(٥) الرافعي: تاريخ آداب العرب جـ٢ ص١٨٣-١٨٤.

(٦) هادي نهر: مع المتنبي في شعره الحربي ص٣٢٢.

لم يكن في شعر المتنبي أعذب نظماً ولا أبعد أثراً من شعره في قصائد الجهاد التي نسجها على هفوف الصحراء، ومزجها بحمحمات الخيل صافقة سنابكها علىٰ درب الروم تسم عليها صدور البزاة بمقدوح الشرر[١].

إن قصائد المتنبي الجهادية فوق ما حوته من قيمة أدبية فإنها تجمع في أبياتها قيمةً تاريخية، وجغرافية غالية القدر وتُعَدّ وثائق في غاية الخطورة لكتابة التاريخ السياسي والتحقيق الأدبي في عصر سيف الدولة[٢].

إن الأحداث الرئيسية للحرب الناشئة بين بيزنطة وسيف الدولة التي شهدها المتنبي، كان لها صداها في أشعاره، فلم يَدَعْ أيّةَ غارة تمر دون أنْ يقول فيها قصيدة أو قصيدتين، وبالاستعانة بشراح المتنبي بعد شعر المتنبي نفسه بوسعنا أن نعيد تمثيل تاريخ شبه كامل عن هذه الحروب التي اندلعت بين سنة ٣٣٧-٣٤٥هـ.

في عام ٣٣٦هـ حرر سيف الدولة «حِصْنَ برزويه» والتقىٰ بالمتنبي في أنطاكية فمدحه بقصيدة هذا مطلعها:

وفاؤكما كالرَّبْعِ أَشْجَاه طاسِمهْ بأن تُسْعَدا والدَّمْع أشْفاه سَاجِمه[٣]

في عام ٣٣٩هـ قام سيف الدولة بحملة كبيرة في أرض الروم ووصل خرشنة وقال في هذه المناسبة قصيدتين الأولىٰ قبل المعركة وهي الجيمية ومطلعها:

لهَذَا اليَوْمِ بعد غدٍ أريجُ ونارٌ في العَدُوّ لها أَجيجُ[٤]

والثانية العينية التي قالها بعد الهزيمة ومطلعها:

غَيْرِي بأكْثرِ هذا النَّاسِ يَنْخَدِعُ إنْ قاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعوا[٥]

---

(١) زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب ص٢٧٥.

(٢) المصدر نفسه ص٢٧٤.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٢٥.

(٤) المصدر نفسه جـ١ ص٢٣٧.

(٥) المصدر نفسه جـ٢ ص٢٢١.

وفي عام ٣٤٠هـ نهض سيف الدولة للقاء الروم ليغسل عن المسلمين وعن نفسه عار الهزيمة التي أصابتهم عام ٣٣٩هـ وكان المسلمون علموا أن جيوش العدو ضخم كثير العدد فهابوه، وتقدم الأمير إلىٰ الشاعر ليثبت قلوب المسلمين ويحرضهم علىٰ القتال فأنشد نونيته:

نَـزورُ ديـاراً مـا نُحِـبُ لهـا مَغْنـىٰ ونَسْـألُ فيهـا غَيْـرَ سُكَّـانِهـا الإذْنـا[١]

وفي نفس عام ٣٤٠هـ قال يمدح سيف الدولة ويذكر هجوم الشتاء:

عـواذِلُ ذاتِ الخـالِ فـيَّ حـواسـدُ وإنّ ضجيـعَ الخَـوْدِ منّـي لمـاجِـدُ[٢]

وفي أوائل عام ٣٤١هـ زحف سيف الدولة علىٰ مرعش وعاد مظفراً فأنشد المتنبي:

فـديْنـاكَ مـنْ رَبْـعٍ وإنْ زِدْتَنـا كَـرْبـاً فإنّك كُنْتَ الشّرْقَ للشّمسِ والغَرْبا[٣]

وفي عام ٣٤١هـ أرسل ملك الروم وفداً يطلب الهدنة فقال المتنبي:

لِعَيْنَيْـكِ مـا يَلقـىٰ الفُـؤادُ ومـا لَقِـي وللْحُبّ ما لم يَبْقَ منّي وما بقي[٤]

وفي عام ٣٤٢هـ زحف سيف الدولة علىٰ بلاد الروم ثم عاد مظفراً وأسر قسطنطين بن برواس فوكاس فأنشد:

ليـالـيَّ بَعْـدَ الظَّـاعِنيـنَ شُكـولُ طِـوالٌ وليـلُ العـاشِقيـنَ طـويـلُ[٥]

وفي نفس عام ٣٤٢هـ هنأ المتنبي سيف الدولة بعيد الأضحىٰ فقال:

لكـلِّ امْـرِىءٍ مِـنْ دَهْـرِهِ مـا تَعَـوَّدا وعاداتُ سَيْفِ الدَّولة الطَّعْنُ في العِدَا[٦]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٦٥.
(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٢٦٨.
(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٥٦.
(٤) المصدر نفسه جـ٢ ص٣٠٤.
(٥) المصدر نفسه جـ٣ ص٩٥.
(٦) المصدر نفسه جـ١ ص٢٨١.

وفي عام ٣٤٣هـ انهزم الرّوم أمام سيف الدولة هزيمة نكراء فأنشدَ المتنبي:

علىٰ قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تأتي العزائمُ وتأتي علىٰ قدْرِ الكرامِ المكارمُ[١]

وفي نفس عام ٣٤٣هـ أقبلَ سفراء الروم، فأدخلوا علىٰ سيف الدولة في حفل رهيب، فأنشدَ الشاعر:

ظُلْمٌ لذا اليَوْمِ وَصْفٌ قَبْلَ رُؤْيَتِهِ لا يَصْدُقُ الوَصْفُ حتىٰ يصدقَ النظرُ[٢]

وقال المتنبي أيضاً في نفس عام ٣٤٣هـ:

دُرُوعٌ لِمَلْكِ الرّوم هَذي الرسائِلُ يَرُدُّ عن نفسِهِ ويُشاغِلُ[٣]

وفي محرم عام ٣٤٤هـ أقبل سفراء ملك الروم يطلبون الهدنة فقال:

أراع كذا كُلَّ الملوكِ هُمامُ وَسَحَّ له رُسُل الملوكِ غَمامُ[٤]

وفي عام ٣٤٤هـ نقض الروم الهدنة ولكنّ سيف الدولة نهض إليهم فلمّا علموا بمقدمه جَلَوْا وعادوا أدراجهم فأنشد أبو الطيب:

ذي المعالي فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تعالىٰ هكذا هكذا وإلاّ فلا لا[٥]

وفي محرم عام ٣٤٥هـ علم سيف الدولة أن الروم قد هموا بالغارة علىٰ آمد فنهض إليهم فقال المتنبي هذه القصيدة بهذه المناسبة.

الرَّأيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجعانِ هو أولٌ وهي المحَلُّ الثَّاني[٦]

وفي سنة ٣٤٥هـ قال قصيدته الميمية وهي آخر قصيدة قالها بحضرة سيف الدولة:

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٧٨.
(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص٩٨.
(٣) المصدر نفسه جـ٣ ص١١٢.
(٤) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٩٣.
(٥) المصدر نفسه جـ٣ ص١٣٤.
(٦) المصدر نفسه جـ٤ ص١٧٤.

عُقْبىٰ اليمينِ علىٰ عُقْبىٰ الوغىٰ نَدمُ ماذا يزيدُكَ في إقدامِكَ القَسَمُ[1]

والآن وبعد أن ذكرنا القصائد الجهادية التي قالها المتنبي في سيف الدولة لا بدّ لنا من العودة إلىٰ التفصيل في هذه الجهاديات أو ما تسمىٰ بـ «السيفيات» لنرىٰ قيمة هذا الشعر ومقدار روعته ومدىٰ مساهمته في المعارك.

معركة عام ٣٣٦هـ[2]:

كان الروم قد مَلَكوا حصن برزويه وهو أحد الحصون الحربية الهامّة فانطلق سيف الدولة سنة ٣٣٦هـ[3] إلىٰ الحصن وأطال حصاره فانتهز القائد الروماني الفرصة وحاصر الحدث، ونجح كل من القائدين في مهمته، حيث استردّ سيف الدولة حصن برزويه، وفتح لاون بن برداس الحدث وخرّب سورها، فلما عاد سيف الدولة إلىٰ حلب مرّ بأنطاكية وكان ذلك سنة ٣٣٧هـ، وكان المتنبي موجوداً هناك عند الأمير أبي العشائر فأنشده المتنبي قصيدته الجميلة التي مطلعها:

وفاؤكُما كالرّبْعِ أَشْجَاهُ طاسِمه بأنْ تُسْعدا والدَّمْع أشفاه ساجمه[4]

بعد ذلك يسجل هذه الصورة حيث يراها في مظلة ذات عمودين نصبت لسيف الدولة بعد انتصاره في حصن برزويه ويستغلها ليعظم الأمير:

وأحْسَنُ مِنْ ماءِ الشّبيبَةِ كُلِّهِ حَيَا بارقٍ في فازَةٍ أنا شائِمُه[5]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٥.

(٢) مصطفىٰ الشكعة: سيف الدولة الحمداني ص١٢٤.

(٣) سامي الكيالي: سيف الدولة وعصر الحمدانيين ص٨٤.

(٤) الشجو: الهم والحزن، شجاه: أحزنه، مادة (شجو) مختار الصحاح ص٣٣٠.
شجو: الشين والجيم والحرف المعتل يدل علىٰ شدة وصعوبة، مادة (شجو) معجم مقاييس اللغة.
الشجو: الهم والحزن والشجا ما اعترض في حلق، مادة (شجو) لسان العرب ص٢٧٥.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٢٥.

(٥) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٣٤.

ثم ينتقل الشاعر ليطعنَ بالرّوم وليبينَ أنّ الحربَ دينيةٌ بين مؤمنين وكافرين استمع إليه كيف يصور الكفّار الروم ساجدين لسيفِ الدولة، وقد خضعوا له يقبّلون بساطه بأفواههم، عندما يقعون له سجداً لأنهم لا يقدرون علىٰ تقبيل كُمّه ويده لارتفاعه وعلو مكانه لأنه أعظم منهم شأناً.

وفي صورةِ الروميِّ ذي التّاج ذِلَّةٌ ... لأبلَجَ لا تيجانَ إلاّ عمائِمُهْ
يُقَبِّلُ أفواهُ الملوكِ بساطَهُ ... ويَكْبُرُ عنها كُمُّهُ وبراجمُهْ[1]
قياماً لِمَنْ يشفى من الداءِ كيُّهُ ... ومَنْ بَيْنَ أُذْنى كُلِّ قَرْمٍ مواسمه[2]

ثم ينتقل الشاعر إلىٰ وصف عسكر سيف الدولة فيقول:

له عَسْكرا خَيْلٍ وطَيْرٍ إذا رمىٰ ... بها عسكراً لم يبقَ إلاّ جَماجِمُهْ[3]

أي إنّ له عسكرين خيله والطير التي ٱعتادت أنْ تصحبه لكثرة وقائعه حتّىٰ تأكل من لحوم القتلىٰ، لأنّ عسكر الخيل يقتلهم وعسكر الطير يأكل لحومهم.

ويستمر في تصوير قوة جيش الأمير سيف الدولة وبلائه في المعارك فيقول: كفاه أنَّ ما يوضعَ علىٰ ظهر الخيل ما هو إلا ثياب كل طاغٍ من ملوك الروم.

أجلّتُها من كُلِّ طاغٍ ثيابُهُ ... ومَوْطِئُها من كلِّ باغٍ ملاغمُهْ[4]

---

(١) البراجم: الأصابع وهي رؤوس السلاميات من ظاهر الكف.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٣٥-٣٣٦.
(٢) القرم: السيد.
المواسم: جمع ميسم وهو الذي يوسم به.
(٣) الجماجم: جمع جمجمة وهي عظم الرأس.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٣٦.
(٤) الأجلة: جمع جُلّ، ما يجعل علىٰ ظهر الدابة.
الملاغم: ما حول الفم، مفردها ملغم.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٣٧.

يستمر الشاعر في تسجيل هذا العراك حيث كان الأمير سيف الدولة يغير علىٰ الروم عند الصبح وهذا من عادات العرب في غاراتها ليغافلوا القوم لذلك فقد ملّ الصبح وضجر مما تغير فيه، كما أن رماح الأعداء ملّت من دقّ سيف الدولة أعاليها، إن سيف الدولة جعل الطير التي تطير فوق عسكره سحاباً، وجعل جيشه سحاباً لما فيه من بريق الأسلحة، وصبّ الدماء، وصوت الأبطال.

فقَدْ مَلَّ ضَوْءُ الصُّبْحِ مما تُغيرُه ... ومَلَّ سَوادُ اللّيْلِ مِمَّا تُزاحِمُهْ
ومَلَّ القَنا ممّا تَدُقُّ صدورَهُ ... ومَلَّ حديدُ الهِند مما تُلاطِمُهْ[1]
سَحابٌ منَ العِقْبانِ يَزْحَفُ تحتَها ... سحابٌ إذا استسْقتْ سقتها صوارِمُهْ[2]

ولا ينسىٰ المتنبي أن يؤكد أن عمل سيف الدولة هو رسالة إلٰهية موكل إليه القيام بها، ولا يخفىٰ ما في ذلك من إشارة الىٰ واقع تاريخي، واقع الخليفة من حماية الدين وواقع أمير حلب من أنه سيف يتقلده الخلفاء ويضرب الله به أعداءه.

علىٰ عاتِقِ المُلْكِ الأغرّ نِجادُهُ ... وفي يَد جبّارِ السَّمواتِ قائِمُهْ[3]

معارك عام ٣٣٩هـ[4]:

نظم الشاعر في هذا العام قصيدتين الأولىٰ في «السنبوس» قبل أن يدخل غمار المعركة وذلك من أجل تحريضِ الجَيْشِ علىٰ القتال، وتثبيت المسلمين وحثّهم علىٰ الهجوم وإنذار النصارىٰ بما سيصب عليهم من نار الحرب.

---

(١) القنا: الرماح.

(٢) العقبان: جمع عقاب، وهو طائر كبير من الجوارح.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٣٧-٣٣٨.

(٣) نجاده: النجاد هو ما وقع علىٰ العاتق من حمائل السيف، النجاد: بالكسر حمائل السيف.
مختار الصحاح ص٦١٦.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٤.

(٤) مصطفىٰ الشكعة: سيف الدولة الحمداني ص١٢٠، سامي الكيالي: سيف الدولة ص٥٥.

تقدم سيف الدولة في الأرض البيزنطية فاتِحاً مُكْتَسِحاً، وقد أخذته نَشْوَة النّصر، فظلّ يَضْرِبُ في الأرض والحصون تتساقط أمامه وتحت سنابك خيله حصناً بعد حصن، وأسر كثيراً من جنود الروم، وفتح «سَمِنْدو» و«خَرْشَنة» وظل يتقدم حتىٰ وصل إلىٰ «صارخَه» وهي غير بعيدة عن العاصمة «القسطنطينية» ففزع الروم من هذا النصر الذي احتشد له سيف الدولة واشترك فيه كثير من أهل الثغور خاصة فرسان طرسوس فانهزم الجيش البيزنطي أقبح هزيمة.

انْتَشىٰ المجاهدون بالنَّصر، وٱستهانوا بالجيش البيزنطي وعلىٰ رأسه «الدمستق» وبدا ذلك جلياً في قصيدته التي مطلعها:

لهـذا اليـومِ بَعْـدَ غَـدٍ أريـجُ ونـارٌ فـي العـدوِّ لهـا أجيـجُ[1]

ومن مطلع القصيدة يطل علينا المتنبي المؤرخ ليعلن إشارة السير إلىٰ المعركة وليحددها وليتنبأ بظفر الأمير المجاهد فيقول: سيكون لهذا اليوم الذي أنت سائر فيه لحرب الروم نشر طيب، وسيكون له نار حرب تكوي الأعداء:

تَبيـتُ بـهِ الحَـواضِـنُ آمِنـاتٌ وتَسْلَـمُ فـي مَسَـالِكِها الحَجِيـجُ[2]

في هذا البيت رد لاعتبار الحجيج الذين كانوا مهددين بالقتل وطرقهم غير مؤمنة بسبب هجمات الأعداء عليهم.

---

(١) أريج: قال ابن سيده: الأريج: الريح الطيبة وجمعها أرائج ومثل توهج ريح الطيب. لسان العرب جـ١ ص٤٤.

الرازي: مختار الصحاح ص١٣٠. أريج: توهج ريح الطيب.

أجيج: صوت النار. قال الشاعر:

أصـرف وجهـي عـن أجيـج التنـور كـأن فيـه صـوت فيـل متحـور

لسان العرب مادة (أجج) ص٢٣ جـ١.

العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٣٧.

(٢) الحواضن: العفائف من النساء.

العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٣٧.

بعد ذلك يقرر الشاعر أن الصراع بين المسلمين والروم هو حرب دينية يكثر فيها الدّعاء ويتطاحَنُ أبناء الديانتين والفوز فيها للمسلمين أصحاب عقيدة التوحيد اسمعه يقول:

تُحاوِلُ نفْسَ مَلْكِ الرّوم فيها ... فتَفْديه رعيَّتُهُ العُلوجُ[1]
أبا الغَمَراتِ توعِدُنا النَّصارىٰ ... ونَحْنُ نُجُومُها وهِيَ البُرُوج
وفينا السّيْفُ حَمْلَتُهُ صَدوقٌ ... إذا لاقىٰ وغارَتْهُ لَجُوجُ
نُعَوّذُهُ منَ الأعيانِ بَأْساً ... ويَكْثُرُ بالدّعاء له الضّجيجُ[2]

يستمر الشاعر في التحدي فيقول لو أوقف الروم زحفنا في هذا المكان ففيما أحرزناه من النصر كفاية، وإن أحجم الإمبراطور عن حربنا فإننا واصلون إلىٰ الخليج أي البسفور ويعني بذلك القسطنطينية.

رَضِينا والدُّمُسْتُق غيرُ راضٍ ... بما حَكمَ القَواضِبُ والوَشيجُ[3]
فإنْ يُقْدمْ فَقَدْ زُرْنا سَمَنْدو ... وإنْ يُحجِمْ فمَوْعِدُهُ الخليجُ[4]

إنّ هذه القصيدة كانت تحريضاً للجيش الإسلامي علىٰ الجهاد لكي يقاتلوا أعداءَهم بكل قوة، وتثبيتاً لقلوب المسلمين في المعركة وحثاً لهم علىٰ الهجوم ليحرروا البلاد من الظلم والاستعباد، كما أنّها إنذارٌ للنصارىٰ بما سيصب عليهم من نار الحرب.

---

(١) العلوج: جمع علج الواحد من كفار العجم مختار الصحاح ص٤٤٩. الرجل من كفار العجم والأنثىٰ علجه ويقال للرجل القوي الضخم من الكفار، وفي الحديث: «فأتني بأربعة اعلاج من العدو». لسان العرب جـ١ ص٨٥٨.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٣٨-٢٣٩.

(٣) القواضب: جمع قاضب وهو السيف القاطع. القضب: القطع. مادة (قضب) مختار الصحاح ص٥٣٩. القضب: من السيوف اللطيف قال ابن الأثير: السيف اللطيف الدقيق. لسان العرب مادة (قضب) جـ٣ ص١٠٨.

الوشيج: مادة وشج شحر الرماح لسان العرب جـ٣ ص٩٢٨.

(٤) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٣٩-٢٤٠.

لقد كان الشاعر في هذه القصيدة عظيم الأمل، واثقاً كل الثقة بالفوز ثم كانت مسيرة المسلمين بعد هذه القصيدة محققة لذلك الأمل، فقد انتصر المسلمون في غزوهم وهزموا عدوهم في كل موطن، وكان الأمير يريد أنْ يمضي في الغزو ولكن بعض الجند سئموا من الحرب وأشفقوا في الإمعان في الغزو، فطلبوا الرجوع إلىٰ أوطانهم، وألحّوا في ذلك، فاستمع لهم الأمير، فلما رجعوا مثقلين بالغنائم والأسرىٰ تبعهم العدو منقضاً عليهم أثناء قفولهم، آخذاً عليهم الطرق حتىٰ كانت الهزيمة، وقد أثارت هذه الهزيمة نفسية المتنبي فقال القصيدة الثانية.

القصيدة الثانية عام ٣٣٩هـ:

سبق أنْ قُلنا بأنَّ سيف الدولة تقدم في الأرض البيزنطية، وأحرزَ نَصْراً مؤزراً، وغنم أسْلاباً كثيرة، وغرّ سيف الدولة مثل هذا الظفر، فآبوا مترنحين بنشوة الظفر، ومعهم حوالي مائةٍ وعشرين بطريقاً، فأخذهم الروم علىٰ غرّة، حيث لم يعلم سيف الدولة أنّ الروم قد ارتدّوا بقيادة «قسطنطين برداس» فسدّوا عليهم الطرق، وآخذوا عليهم بعض مخارم الجبال، فصبوا عليهم الصخور، وأصلوهم غارة شعواء، وأمعنوا فيهم قتلاً، حتىٰ تشتت جيش سيف الدولة، وفرّ جمعه وتقطع جنده، فجعل سيف الدولة يستفزهم فلا ينفرون، فلم يجد بداً من أن يقتل أسراه خلاصاً من عبثهم وغدرهم.

وقد حاول سيف الدولة أن يَنْتَحِرَ خشية الوقوع في أيدي الروم، فقفز بفرسه صَوْب وادي سحيق حتىٰ يتفادىٰ كميناً للأعداء، فوقع الفرس قائماً ونجا الأمير.

لقد كانت هذه المعركة عجيبة الشأن حيث إنها جمعت بين طرفي النقيضين النصر المؤزر والهزيمة التي كادت تذهب بالأمير[1].

أنشد المتنبي قصيدته مصوّراً للانفعالات التي صادفت نفسَه الحزينة ونفس الأمير الكليمة، لذلك نراه لم يبدأ القصيدة بالغزل كعادته، وإنما بدأها بذكر من

---

(١) مصطفىٰ الشكعة: سيف الدولة الحمداني ص١٢٢.

يخدعون بالرجال ويظنون بهم بأساً وما هؤلاء الرجال إلا أدعياء شجاعة جبناء عند القتال، والآن دعنا نعيش مع القصيدة.

غَيري بأكْثرِ هذا النّاسِ ينْخَدِعُ ... إن قاتلوا جَبُنُوا أو حدَّثوا شجعوا
أهلُ الحفيظَةِ إلا أنْ تُجَرِّبَهُمْ ... وفي التَّجاربِ بعد الغَيّ ما يَزَعُ
وما الحياةُ ونفسي بعد ما عَلِمَتْ ... إنّ الحياةَ كما لا تَشْتَهي طَبَعُ
ليسَ الجمالُ لِوَجْهٍ صحَّ مارِنُهُ[1] ... أَنْفُ العزيز بقَطْعِ العِزِّ يُجْتَدَعُ
أأطرحُ المَجْدَ عن كِتْفي وأطلُبُهُ ... وأترُكُ الغَيْثَ في غِمْدي وأنْتَجِعُ[2]
والمشرفيَّةُ لا زالتْ مُشَرَّفَةً ... دواءُ كُلِّ كَريمٍ أوْ هيَ الوَجَعُ[3]

في الأبيات السابقة يصور الشاعر أدب الحرب وشروط الفروسية فليست الفروسية جمال وجه، وإنّما هي بأسُ وكفاح.

إن الفارس عند أبي الطيب هو الذي يثبتُ في حومة الوغىٰ علىٰ ظهر فرسه ويوقرها إذا خَفّت وأرادَتْ الفرار وكان دمه هو الذي ينسكب من أعطافها فيقول في شرط هذا الفارس المجاهد.

وفارسُ الخَيْلِ من خفَّتْ فوقَّرَها ... في الدَّرْبِ والدَّمُ في أعْطَافِها دُفَعُ[4]

بعد هذه الأبيات التي بدأت حزينة ثم انتهت بحَثّ المجاهدين ينتقل إلىٰ وصف المجاهدين، ويذكر مسرىٰ الأمير الذي ينقض علىٰ بلاد الأعداء كالصاعقة، ثم يستطرد الشاعر واصفاً حال الروم وقد نزلت عليه جيوش سيف

---

(١) المارن: مقدم الأنف وهو ما لان منه. مختار الصحاح ص٦٢٢ مادة (مرن).
(٢) الانتجاع: طلب الكلأ.
(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢٢١-٢٢٢.
(٤) فوقرها: ثبت مادة (وقر)، مختار الصحاح ص٧٣٢. قال تعالىٰ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.
الدرب: الطريق الذي يسلك. معجم البلدان جـ٢ ص٤٤٧.
الأعطاف: جمع عطف وهو الجانب. مادة (عطف) ص٤٤٠ مختار الصحاح.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢٢٣.

الدولة فدارت رحىٰ الحرب وتقارعت السيوف، واشتبكت القنا، فأصبحوا من كثرة القتلىٰ طعاماً للطيور التي لا تميز لكثرة الدماء بين القتيل والحي فأذهل ذلك المنظر عين الدمستق حتىٰ كاد يكذب نفسه:

حتىٰ أقامَ علىٰ أرْباضِ خَرْشَنَةٍ ... تَشْقىٰ بها الرّومُ والصُّلْبانُ والبيَعُ
للسَّبْي ما نَكَحُوا، والقتلِ ما وَلَدُوا ... والنَّهْبِ ما جَمَعُوا والنّارِ ما زرعُوا
مُخْلىً لهُ المَرْجُ منْصوباً بصارِخَةٍ ... لهُ المنابِرُ مَشْهوداً بها الجُمَعُ[1]
يُطَمِّعُ الطَّيْرَ فيهم طولُ أكْلِهِمِ ... حتّى تكادَ علىٰ أحيائهمْ تقَعُ
ولو رآهُ حواريّوهُمْ لبَنَوْا ... علىٰ محَبَّتِهِ الشَّرْعَ الذي شَرَعُوا
ذمَّ الدُّمُسْتُقُ عَيْنَيْهِ وقَدْ طَلَعَتْ ... سودُ الغَمام فظَنُّوا أنَّها قَزَعُ[2]
فيها الكماةُ التي مفْطومُها رَجُلٌ ... علىٰ الجيادِ التي حَوْلِيُّها جَذَعُ[3]

ويبلغ الشاعر ذروة العظمة في وصف الروم المنهزمين أمام المجاهدين المسلمين وكيف أنّ قائدهم قد هرب، إلا أن الكثرة من جنوده وقعوا صرعىٰ، وكلهم أكرم منه وأشجع، لأنهم صمدوا دونه، ولم يلوذوا بالفرار، ومع ذلك فإنّ من كُتِبَ لهم النجاة عاشوا فزعين في حالة الأمن، خائفين مذعورين في أيام السّلام، لأنّ المنايا تطاردهم وتقضّ مضاجعهم:

إذا دعا العِلْجُ عِلْجاً حالَ بينَهُما ... أظْمىٰ[4] تفارِقُ منه أخْتَها الضِّلَعُ
أجلُّ منْ وَلَدِ الفُقّاسِ[5] مُنْكَتِفُ ... إذا فاتهُنّ وأمضىٰ منهُ مُنْصَرِعُ

---

(١) المرج: موضع بلاد الروم.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٣٢٤-٣٢٥.
(٢) القزع: المتفرق من السحاب.
(٣) الجذع: الذي أتىٰ عليه حول وجمعه جذعان وجذاع.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢٢٥-٢٢٦.
(٤) أظمىٰ: الرمح.
(٥) الفقاس: الدمستق.

وما نَجا مِنْ شِفارِ البيضِ[1] مُنْفَلِتٌ ... نجا ومنهُنَّ في أحشائِهِ فَزَعُ
يباشر الأمْنَ دَهْراً وهو مختبَلٌ ... ويَشْرَبُ الخَمْرَ حوْلاً وهو مُمْتَقَعُ[2]
كَمْ مِنْ حُشَاشةِ بِطْريقٍ تَضَمَّنها ... للباتراتِ أمينٌ ما لَهُ وَرَعُ[3]
يقاتِلُ الخَطْوَ عنهُ حينَ يطلُبُهُ ... ويطرُدُ النَّوْمَ عنه حين يضْطَجِعُ
تغدو المنايا فلا تنْفكُّ واقفَةً ... حتىٰ يقولَ لها عُودي فتَنْدَفِعُ[4]

بعد ذلك يتعرّض الشاعر لأمرٍ دقيق غايةِ الدقة وهو هزيمة المسلمين، فيطرق الهزيمة ببراعة تامة، وتصرف حسن، حتىٰ يكاد يجعل منه نصراً، لقد جعل أولئك الأسرىٰ من جيش المسلمين الذين وقعوا في قبضة كفار الروم عسكراً خونة متخاذلين جازاهم الله بما صنعوا من خذل الأمير حين استنفرّهم، وقد وصف هؤلاء الجنود لتهاونهم علىٰ الحرب بأنّهم كالأموات فليس يأكلهم إلا الضباع، وقد جاء أسر هؤلاء تنقية لجيش المسلمين إذ تخلّص منهم سيف الدولة، وكانوا جنوداً فيهم الفسل الدنيء، وفيهم الرعديد، حتىٰ إذا عاد جيش المسلمين إلىٰ حلب عاد وهو خالص من أولئك الجنود المأسورين:

قل للدُّمُسْتُقِ إنَّ المسلمينَ لَكُم ... خانوا الأميرَ فجازاهُمْ بما صَنعُوا
وَجَدْتُموهُمْ نِيَاماً في دمائِكُمُ ... كأنَّ قتلاكُمُ إياهُمُ فَجَعوا
ضَعْفي تعفُّ الأيادي عنْ مِثالِهِم ... من الأعادي وإنْ هَمُّوا بهمْ نَزَعوا[5]
لا تَحْسَبُوا مَنْ أسرْتُم كان ذا رَمَقٍ ... فليس يأْكُلُ إلا المَيِّتَ الضَّبُعُ

---

(١) شفار البيض: حد السيوف.
(٢) مختبل: الذاهل المضطرب.
ممتقع: متغير اللون.
(٣) الحشاشة: النفس.
البطريق: الفارس من الروم.
(٤) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢٢٨-٢٢٩.
(٥) نزع الشيء: رغب عنه وأعرض. مادة (نزع) مختار الصحاح ص٦٥٤.

هلاّ علىٰ عَقَبِ الوادي وقَدْ صَعِدَتْ أُسْـدٌ تَمُـرُّ فُـرادىٰ ليْـس تَجْتَمِـعُ
تَشُقّكُـمْ بقِنـاهـا كُـلُّ سَلْهَبَـةٍ والضَّرْبُ يأخذُ منكُمْ فوقَ ما يَدَعُ
وإنمـا عـرّضَ اللهُ الجنـودَ بِكُـمْ لكيْ يكونوا بلا فَسْلٍ[1] إذا رَجَعوا
فكُـلُّ غـزوٍ إليكُـمْ بَعْـدَ ذا فَلَـهُ وكُـلُّ غـازٍ لسَيْـفِ الـدَّوْلَـةِ التَّبَـعُ[2]

وليس من المبالغة في شيء إذا قلت إنّ هذه الأبيات من القصيدة لترتفع إلىٰ مُسْتوىٰ الإعجاز، فتعليل المتنبي للهزيمة تعليلٌ رائع، وتحويل الهزيمة إلىٰ تنقيةِ الجيش من الجُبناء الأنذال العاجزين، وتجربة ودرسٌ للمرات القادمة بالطريقة التي صاغها بها المتنبي لفظاً ومعنىً وصوغاً وشعراً، ترفع القصيدة إلىٰ مستوىٰ فريد في هذا اللون من شعر الجهاد والحرب، والذي يعتبر المتنبي بحق مبتكره وصاحبه.

إن المتنبي وضع لشعر الحرب أسساً وطيدةً، فصوّر المعارك كاملة المناظر بما لم يصوره شاعر عربي من قبل، حتىٰ إنّ النقّاد العرب حينما تحدثوا عن أبرز نواحي عبقريته قالوا: «إنّه سريعُ الهجومِ علىٰ المعاني ونعْتِ الخيل والحرب من خصائصه»[3].

أما بلاشير من المستشرقين الفرنجة فإنه يقول: «إنّ قصائد المتنبي ترتفع إلىٰ جلال الملاحم وهو جلال لا مثيل له في الشعر العربي من قبل»[4].

بعد ذلك يلتفت الشاعر إلىٰ بطله المجاهد الكبير سيف الدولة بعد أنْ حوّل نصر الدمستق إلىٰ هزيمة بهذه التعليلات البارعة، والمتنبي يلتفت إلىٰ سيف الدولة في هذا المقام ليصبره ويذكر له أنّ تلك الهزيمة لا تشينه، لأنه برغم ذلك كلّه فارس زمانه الذي يعتلي مكانه فوق محلّ الشمس، والدهر يسعىٰ للأمير بالقدر والسيف مؤتمر بأمره ينتظر يوم الانتقام، يوم الفصل من الروم.

---

(١) الفسل من الرجال: الرذل والدنيء العاجز. مادة (فسل) من مختار الصحاح ص٥٠٤.
(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢٢٩-٢٣١.
(٣) مصطفىٰ الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص٣٩٨.
(٤) بلاشير: المتنبي.

يمشي الكرامُ علىٰ آثارِ غيرِهِم ... وأنتَ تخلُقُ ما تأتي وتَبْتَدِعُ
وهَلْ يشينُكَ وقتٌ أنتَ فارِسُهُ ... وكان غَيْرَكَ فيه العاجِزُ الضَّرَعُ
من كانَ فوقَ محل الشَّمْسِ موضِعُه ... فليسَ يرفَعُهُ شَيءٌ ولا يَضَعُ
الدَّهْرُ مُعْتَذِرٌ والسيفُ مُنْتَظِرٌ ... وأرضُهُم لكَ مُصطافٌ ومُرْتَبَعُ
إنَّ السلاحَ جميعُ الناسِ تحملُهُ ... وليس كُلُّ ذواتِ المِخْلَبِ السَّبُعُ[1]

معارك عام ٣٤٠هـ:

قرّر سيف الدولة أنْ يَرُدَّ الصاع صاعين في مكان يعرف بـ «السنبوس» ولما بلغه أن جيش الروم مزودٌ بأربعين ألفاً من الرجال، تهيبهم جيش المسلمين، فأنشد المتنبي هذه القصيدة أمام الجند، مُحَرِّضاً إياهم علىٰ الجهاد في سبيل الله فرد إلىٰ جيش المسلمين الثقة بأنفسهم، وأثار فيهم الحماس وحب التضحية من أجل إعلاء كلمة الله، مما كان له الأثر الفاعل في اندفاعهم نحو جيش الكفر، ومكنهم من الإيقاع في جيش العدو والفوز بالظفر والنصر.

لقد اكتسح سيف الدولة العدو أمامه اكتساحاً، وأمعن في الغزو، وكان يريد أن يصل إلىٰ خرشنة، لكن الشتاء أقبل وسقط الثلج، فلم يستطع الأمير أن يتقدم، فعاد بجيشه مظفراً، ولم يستطع الروم أن يضايقوه، ولا أن يأخذوا عليه الطريق، وقد قال في هذه المناسبة القصيدة الجهادية التالية:

نزورُ دِياراً ما نُحِبُّ لها مَغْنىٰ ... ونَسْأَلُ فيها غَيْرَ سُكَّانِها الإذْنا[2]
تقودُ إليْها الآخذاتِ لنا المَدىٰ ... عليها الكُماةُ المحسِنونَ بها الظَّنَّا[3]
ونُصْفي الذي يُكْنىٰ أبا الحسنِ الهوىٰ ... ونُرْضي الذي يُسمىٰ الإلٰه ولا يُكْنىٰ

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٢٣١-٢٣٤.

(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص١٦٥-١٦٩.

(٣) المدى: البعد.

الكماة: الكمي: الشجاع المتكمي بسلاحه أي المتغطي المتستر بالدرع والجمع كماة. مختار الصحاح مادة (كمي) ص٥٧٩. الكمي: ملابس السلاح وقيل هو الشجاع المتقدم الجريء، كان عليه سلاح أو لم يكن، مادة (كمي) لسان العرب المعكوس ص٢٩٩.

في البيت الثالث من هذه القصيدة تلمح أن للمعركة عند المتنبي وجهين: وجهاً خالص المودة لسيف الدولة، ووجهاً آخر هو إرضاء الله في مجاهدة الكفار الروم، ثم يعلن المتنبي حقيقة في القتال عرف بها سيف الدولة في مجال تذكيره للروم وتخويفه لهم، حيث يقول لا تغتر الروم بتركنا أرضهم خلفنا، فإنَّ عَوْدَتنا لتلك الأرض أسرع من رجوعنا عنها، وإذا صار الموت صريحاً في الحرب، بارزاً ليس دونه قناع، توسلنا إلىٰ ما نطلب ونريد من الحوائج، بطعن الأعداء بالرماح وضربهم بالسيوف، وإننا نتقدم إلىٰ الموت ونقصده، كما يقصد من يحب لقاؤه.

وقَدْ عَلِمَ الرّومُ الشَّقِيّونَ أنَّنا ... إذا ما تَرَكنا أرضَهُمُ خلْفنا عُدْنا
وإنّا إذا ما الموْتُ صرَّحَ[1] في الوَغىٰ ... لَبِسْنا إلىٰ حاجاتنا الضَّرْبَ والطَّعْنا

إن العدو عندما رأىٰ جيش المسلمين متقدماً نحوهم حثّوا خيولهم علىٰ الإقبال علينا، فلما اقتربنا وعرفونا حثوا خيولهم علىٰ الهرب منا.

وخَيْلٍ حَشَوْناها الأسِنَّةَ بعدَما ... تَكَدَّسْنَ مِنْ هَنّا علينا ومَن هَنَّا[2]
ضُرِبْنَ إلينا بالسِّياطِ جهالةً ... فلمَّا تعارفْنا ضُرِبْنَ بها عَنَّا

يقول المتنبي لسيف الدولة: تجاوز القرىٰ إلىٰ الصحراء، وحارب بنا جيش الروم وادنُ بنا إليهم دنو الملابس، تظفر يدك بما تشتهي، من ضرب وطعن وسبي، فنحن أناس قد تقادم عهدنا بسفك دماء الروم، وقد برد ما سفكناه، وعادتنا أن نتبع البارد من دماء الأعداء السخن منها، أي لا ننفك من سفك دمائهم، وإذا برد دمهم اتبعناه دماً طرياً حاراً.

تَعَدَّ القُرىٰ والمُسْ بنا الجيشَ لَمْسَةً ... نُبارِ إلىٰ ما تَشْتهي يَدُكَ اليُمنىٰ
فَقَدْ بَرَدَتْ فَوْقَ اللُّقانِ دماؤُهمْ ... ونَحْنُ أناسٌ نُتْبِعُ البارِدَ السُّخْنا

---

(١) صرّح: برز وظهر وكشف مادة (صرح) مختار الصحاح ص٣٦٠.
(٢) التكدس: التجمع، تكدسن: اجتمعن وركب بعضها بعضاً من كثرتها.
هنّا: ههنا.

يحث الشاعر جيش المسلمين علىٰ الجهاد، عندما لمس ترددا في أوساط الجيش لخوض المعركة فانطلق يبعث الهمة ويقوىٰ العزم.

فنَحْنُ الأُلىٰ لا نَأْتَلي لَكَ نُصْرةً وأنْتَ الذي لو أنَّهُ وَحْدَهُ أغْنىٰ
يقيكَ الرَّدىٰ من يَبْتَغي عندكَ العُلا ومن قال لا أرْضىٰ مِنَ العَيْش بالأدنىٰ

ثم يختتم الشاعر قصيدته بهذا البيت الذي يؤكد ما استنتجناه من تردد:

وما الخَوْفُ إلا ما تَخوّفَهُ الفتَىٰ ولا الأمْنُ إلاّ ما رآه الفَتىٰ أمْناً

معركة عام ٣٤٠هـ:

قال المتنبي هذه السيفية يمدح سيف الدولة ويذكر هجوم الشتاء الذي أعاق الأمير عن غزو خرشنة:

عواذِلُ ذات الخال فيَّ حواسدُ وإنَّ ضجيجَ الخَوْدِ مِنّي لماجِدُ[1]

بدأ الشاعر قصيدته بالغزل بالنساء الجميلات، ثم تكلم عن نفسه وما بها من آلام وأحزان، ثم انتقل يتحدث عن فرسه، وكيف عرفت منزل الحبيب، ثم يقول إنّ مطلبه عظيم، وإذا عظم المطلوب قل من يساعده، ثم يتحدث عن كيفية اقتحامه المصاعب. بعد هذا كله ينتقل ليفتخر بأميره البطل العربي والمجاهد الكبير الذي يمثل معسكر الجهاد في سبيل الله لرفع راية التوحيد، ثم يصف الكفر والكفار فيقول إنَّ أشقىٰ بلاد الله هي التي أهلُها الروم، لذلك فإنّ غارات سيف الدولة علىٰ بلاد الروم متلاحقة، وهدف تلك الغارات رفع راية التوحيد وإذلال راية الشرك، لقد شاع الخوف في بلاد الروم حتىٰ بات الذي في أقصىٰ بلادهم لا ينام خوفاً، إنّ هذه البلاد صارت ملطخة بدماء الكفار فكأنها مساجد مخلّقة، وهم كالسّجّد فيها لانكبابهم علىٰ وجوههم، وأهلها مقتولون مصروعون فكأنها مساجد

---

(١) الخود: المرأة الحسنة الخلق الناعمة، جمع خود: خود.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٦٨.

طليت بالخلوق، وكأنّهم سجّد وإنْ لم يكونوا يسجدون حقيقة، لقد جعل خيلهم كالجبال لهم يتحصنون بها، وجعل تنكيسهم عنها إنزاله لهم من الجبال للقتل والأسر، وجعل مَكايده فيهم كالرماح تقوم مقام الرماح التي تطعنهم بها.

وأشقىٰ بلادِ اللهِ ما الرّومُ أَهْلُها ... بهذا وما فيها لِمَجْدِكَ جاحِدُ
شَنَنْتَ بها الغاراتِ حتىٰ تَرَكْتَها ... وجَفْنُ الذي خلْفَ الفَرَنْجَةِ ساهِدُ[1]
مخضّبةٌ والقومُ صرعىٰ كأنّها ... وإنْ لم يكونوا ساجدينَ مساجدُ
تُنكِّسُهُمْ والسّابِقَاتُ جبالُهُمْ ... وتطْعَنُ فيهم والرّماحُ المكايِدُ[2]

إن سيف الدولة يضرب الروم ضرباً يقطع لحمهم، فيجعله هبراً، لقد هرب الروم من الأمير، وحفروا مطامير تحت الأرض ليسكنوها كما تسكن الحيات في التراب.

إنّ جيوش الأمير تحيط بالجبال العالية إحاطة القلائد بالأعناق، وقد أهلكت جنوده جيش الروم حين غارت عليه، وأخذت قسماً من جيش الروم أسرىٰ حتىٰ ابيّض آمد[3] من كثرة الغلمان والجواري.

إن جيشك أيها المجاهد حاصر حصني الصفصاف والسابور، وهما حصنان منيعان للروم، وقد ألحقت الثاني في التخريب بالأول حتىٰ سقط كسقوطه، وذاق الموت أهل هذين الحصنين، لأنك حرقتهما بالنّار.

وتَضْرِبُهُمْ هَبْراً وقَدْ سَكَنُوا الكُدَىٰ ... كما سَكَنَتْ بَطْنَ التُّرابِ الأساوِدُ[4]
وتُضْحي الحُصُونُ المُشْمَخِرّاتُ في الذُّرىٰ ... وخَيْلُكَ في أعناقِهِنَّ قلائِدُ

---

(١) الفرنجة: قرية بأقصىٰ بلاد الروم.
ساهد: ساهر، مادة (سهد) مختار الصحاح ص٣١٨.
(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٧٣.
(٣) آمد: بلد في أول بلاد الروم.
(٤) الكدىٰ: جمع كدية وهي الصلبة من الأرض.
الأساود: ضرب من الحيات.

عَصَفْنَ بهِمْ يومَ اللُّقانِ وسُقْنَهُمْ بِهِنْزيطَ حتّىٰ ابيضَّ بالسَّبْى آمِدُ[1]
وأَلْحَقْنَ بالصَّفْصافِ سابورَ فانْهَوىٰ وذاقَ الردَّىٰ أهلاهُما والجَلامِدُ[2]

إنّ غزوات سيف الدولة علىٰ بلاد الروم لا تنقطع إلا عند جمود نهر «سيحان» هذا النهر الذي يجمد ماؤه في الشتاء، فلا تفتر سيوفه عن رقاب الروم إلا وقت الشتاء، وقت جمود النهر المذكور، لم يُبْق القتل من الروم إلاّ كل امرأة حماها من السيوف جمالها، وسُمرة شفتيها وارتفاع نهديها.

فتىً يَشْتهي طولَ البلادِ ووقْتُهُ تَضيقُ به أوقاتُهُ والمَقاصِدُ
أخو غَزواتٍ ما تُغِبُّ سُيُوفُهُ رِقابُهُمُ إلا وسَيْحانَ جامِدُ
فَلَمْ يَبْقَ إلا مَنْ حَماها مِنَ الظُّبا لمى شَفَتَيْها والثُّدِيُّ النَّواهِدُ[3]

إنّ سيف الدولة أَهْلَكَ الروم في هذه الموقعة ولم يبق منهم إلا النساء، والذي حماهنّ من السيوف هو أنوثتهن، ومنهن بنات البطاريق وقادة الروم، وقد أُسِرْن وبقي آباؤهن يبكونهن وهنّ مطروحات عند المسلمين لا يرغبون فيهن.

تُبَكِّي عَلَيْهِنَّ البَطاريقُ في الدُّجىٰ وهُنَّ لَدَيْنا مُلْقَياتٌ كواسِدُ[4]

وأخيراً يرجع ليقول في سيف الدولة: إنك أيها الأمير للملك بمنزلة الحسام لكن الضارب به هو الله جلّ جلاله، وأنت للدين لواء والله عاقد لا غيره، ويؤكد في البيت القيمة الدينية عند الشاعر.

---

(١) اللقان: بلد الروم وراء خرشنة.
هنزيط: من الثغور الرومية.
آمد: بلد في أول بلاد الروم.
(٢) الصفصاف: حصن من حصون الروم.
سابور: حصن من حصون الروم.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٧٤.
(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٧٥.
(٤) المصدر نفسه جـ١ ص٢٧٦.

فـأنْـتَ حُسـامُ المُلْـكِ واللهُ ضـارِبٌ وأنْـتَ لِـواءُ الـدّيـنِ واللهُ عـاقِـدُ[1]

وأخيراً جعل أميره بمنزلة عظيمة إذ جعله بين الملوك كالشمس والبدر وغيره من الملوك كالنجوم الخفية.

قال أبو الفتح: «جعل أميره بالنسبة إلىٰ أعدائه كالشمس والقمر إلىٰ السها والفرقدين».

أُحِبُّـكَ يـا شَمْـسَ الـزمـانِ وبَـدْرَهُ وإن لامَني فيكَ السُّها والفَراقِدُ[2]

معركة عام ٣٤١هـ[3]:

لمّا أتىٰ الدمستق (مرعش) بعد معركة خرشنة أوقع في سورها تهديماً، فشخص سيف الدولة سنة ٣٤١هـ لطرد الروم، ففرق المال علىٰ أهل الثغور الفقراء، وبنىٰ السور فأقامه وعلاه، وبنىٰ القلعة في شاهق السور، وكان شخوصه بجيش لجب يسد الفضاء ويملأ وجه الليل، ولم يكن المتنبي في تلك المعركة، وإنما لبث في حلب، ولمّا قفل سيف الدولة من طرد الدمستق وأغاثه المنكوبين من أهل الثغور خرج أبو الطيب للقائه، فلما استشرف وفد اللقاء الذي فيه المتنبي، ترجل وصحبه للإلمام بسيف الدولة كرامة أن يصلوا إليه راكبين في مكان لقائه، ويقول مصطفىٰ الشكعة[4]: «إن سيف الدولة قلل من شأن الروم سنة ٣٤١هـ فبعث لهم بالأمير الشاب الفارس أبي فراس الحمداني».

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٢٨٠.

(٣) مصطفىٰ الشكعة: سيف الدولة الحمداني ص١٢٧.
أحمد صالح فاعور: الدولة الحمدانية في حلب ص١٧٢.
زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب ص٢٨٢.
سامي الكيالي: سيف الدولة وعصر الحمدانيين ص٨٦.
هادي نهر: مع المتنبي في شعره الحربي ص٢٢٠.

(٤) مصطفىٰ الشكعة: سيف الدولة الحمداني ص١٢٧.

وينظم المتنبي هذه القصيدة بمناسبة بناء مرعش والتي مطلعها:

فَدَيْنـاكَ مِـنْ رَبْـعٍ وإنْ زِدْتَنـا كَـرْبـاً فإنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ للشَّمْسِ والغَرْبا[1]

وجد المتنبي في سيف الدولة خاصة وفي معاركه ضد الروم مثالاً للفرد العربي الشجاع المقاتل، فأطال الحديث عنه، وقد جعل أميره كفاية أمته، وهو سيف عند أعدائها، وعقل واع يحقق لأمته طموحاتها، وهو عربي من ولد نزار فالخوف منه أولىٰ من الخوف من سيوف الحديد.

تُهـابُ سُيـوفُ الهِنْـدِ وهْـيَ حَـدائِـدٌ فكيـفَ إذا كـانـتْ نِـزاريـةً عُـرْبـا[2]

إنّ سيف الدولة عالم أديب، عالم بخفيات الديانات، وهو يعلم منها ومن اللغات ما لا يعلمه غيره، وله خواطر في العلم تفضح العلماء وكتبهم لأنهم لم يبلغوا في العلم ما يجري علىٰ خاطره.

عليـمٌ بـأَسْـرارِ الـدِّيـانـاتِ واللُّغَـىٰ له خَطَراتٌ تَفْضَحُ النَّاسَ والكُتْبا[3]

إنّ سيفَ الدولةِ مسلمٌ مؤمن بالله وهو من حزب الله، يعمل من أجل تطبيق حكم الله، من أجل انتصار الحق علىٰ الباطل، انتصار الإيمان علىٰ الكفر.

هَنيئـاً لأهْـلِ الثَّغْـرِ رأيُـكَ فيهـمُ وأنّكَ حِزبَ اللهِ صِرْتَ لَهُم حِزْبا[4]

وهذه هي مآثرك أيها الأمير المجاهد.

فيَـوْمـاً بِخَيْـلٍ تَطْـرُدُ الـرومَ عنهُـمُ ويَوْماً بِجودٍ يَطْرُدُ الفَقْرَ والجَدْبا[5]

حروب وقتال وظفر مؤكد، ونجدة كريمة، وعون وكرم يقضيان علىٰ الفقر وينبتان الخير والبركة.

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٥٦.

(٢) المصدر نفسه جـ١ ص٦١.

(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٦٢.

(٤) المصدر نفسه جـ١ ص٦٢.

(٥) المصدر نفسه جـ١ ص٦٣.

المتنبي شاعر مسلم صادق الإحساس في شعره، يصور المعارك التي تدور بين معسكر المؤمنين ومعسكر الكفر أصدق تصوير، فهو عبارة عن وسيلة إعلام في لغة اليوم، فهو يصف الحرب وانتصار المسلمين علىٰ الروم بأنه يدرّ علىٰ البلاد الخير والبركة، يصف فرق المجاهدين تتوالىٰ علىٰ المعركة، وتنكشف المعركة عن العدو فإذا هو علىٰ أسوأ حال، حيث هرب القائد، وترك جنده قتلىٰ وأمواله نهبىٰ.

تقدم جيش المسلمين بقيادة المجاهد سيف الدولة نحو مرعش، فلما أتىٰ هذا الثغر أتاه مسروراً، فالبعيد عليه قريب لنشاطه، فلما أقبلت إليه أدبر منهزماً، فالقريب عليه بعيد لخوفه، وما لحقه من الذّعر، ففي إقباله أتىٰ مسروراً، كأن الأرض تطوى له، فلمّا أدبر طالت عليه الطريق.

إن قائد الروم كان باللُّقَّان، فلما أقبل سيف الدولة، انهزم ذليلاً، انهزمت جموع جيش الكفر بعدما تشاجرت الرماح ساعة، كما تختلط الأهداف الأعالي بالأسافل عند القوم.

انهزم القائد الرومي وبالأحرىٰ هرب، وبقي من دهشته لا يدري ما يصنع فكان يلمس جنبه، هل يجد روحه بين جنبيه من الذهول والفزع.

انهزم القائد وترك وراءه العذارىٰ والبطاريق والرهبان والقرابين ولم يلتفت إليهم لهول ما رأىٰ.

سَراياكَ تَتْرىٰ[1] والدُّمُسْتُقُ هارِبٌ ... وأَصْحابُهُ قَتْلىٰ وأموالُهُ نُهبىٰ
أتىٰ مَرْعَشاً[2] يَسْتَقْرِبُ البُعْدَ مُقْبِلاً ... وأَدْبَرَ إذْ أَقْبَلْتَ يَسْتَبْعِدُ القُرْبا
كذا يَتْرُكُ الأعداءَ مَنْ يَكْرَهُ القَنَا ... ويَقْفِلُ مَنْ كانَتْ غنيمَتُهُ رُعْبا
وهَلْ رَدَّ عنه باللُّقانِ وقُوفُهُ ... صُدورَ العَوالي والمُطَهّمَةَ القُبّا[3]

---

(١) تترىٰ: متتابعة قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾. مادة (وتر) ص٧٠٧ مختار الصحاح.

(٢) مرعش: حصن ببلد الروم من أعمال ملطية.

(٣) اللقان: ثغر ببلد الروم.

المطهم: الفرس الذي يحسن منه كل شيء علىٰ حدته والقب: جمع أقب وهو الصفا والبطن.

مَضىٰ بعد ما الْتَفَّ الرماحانِ ساعةً كما يَتَلَقّىٰ الهُدْبُ في الرَّقْدَةِ الهُدْبا[1]
ولكنّـهُ وَلـىٰ ولِلطَّعْـنِ سَـوْرَةٌ[2] إذا ذَكَـرَتْهـا نفسُـهُ لَمَـسَ الجَنْبـا
وخَلَّىٰ العذارىٰ والبطاريقَ والقُرَىٰ وشُعْثَ النَّصارىٰ والقَرابينَ والصُّلْبا[3]

ثم يصور لنا الشاعر الجبان ويقصد به قائد الروم، والشجاع ويقصد الأمير سيف الدولة، فيقول إن الجبان يتقي الحرب حبّاً لنفسه، والشجاع يرد الحرب دفعاً عن مهجته ومحاماة عن نفسه، والشجاع مهيب لا يهجم عليه أحد، والجبان يعتدى عليه.

فحُـبُّ الجَبـانِ النَّفْـسَ أوْرَدَهُ التُّقـىٰ وحُبُّ الشُّجاع النَّفْسَ أوردَهُ الحَرْبا
ويَخْتَلِـفُ الـرِّزْقـانِ والفِعْـلُ واحـدٌ إلـىٰ أن يُـرىٰ إحْسـانُ هـذا لـذا ذَنْبـا

بعد ذلك يبيّن لنا الشاعر مكانة سيف الدولة من الخلافة حيث يقول: إن الخلافة سمّته دون الناس بسيف دولتها، أعدّته لأمر من الأمور، وذلك لأنه بلغ من الشجاعة والحزم والسياسة مبلغاً لم يبلغه أحد وأي شيء أهم من قتال الكفار الروم والانتصار عليهم.

لأمْـر أعـدَّتْـهُ الخِـلافَـةُ لِلْعِـدىٰ وسَمَّتْهُ دونَ العالَمِ الصارِمَ العَضْبا[4]

وأخيراً يوضح رسالة سيف الدولة في الحرب بأنه كريم مؤمن يرضىٰ المكارم بجوده ويرضىٰ الله تعالىٰ بجهاده في سبيل الله.

---

(١) الرماحان: يقصد رماح الفريقين.
الهدب: أشفار العين مادة (هدب) ص٦٩٢ مختار الصحاح.
(٢) السورة: الارتفاع.
(٣) العذارىٰ: جمع عذراء وهي البكر من النساء.
البطاريق: جمع بطريق وهم أمراء الجيش وفرسانه.
شعث النصارىٰ: الرهبان.
القرابين: خواص الملك.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٦٤.
(٤) المصدر نفسه جـ١ ص٦٨.

فَمَنْ كان يُرْضي اللؤمَ والكُفْرَ مُلكُهُ فهذا الذي يُرْضي المكارِمَ والرَّبا[1]

خواطر وأحداث وشعر يطلقه المتنبي صافياً معبراً، يحمل النبرة اللاهبة والتجاوب الصادق، ويظل مع التاريخ قوياً حيّاً لأن الشاعر رفع من مستوىٰ التاريخ إلىٰ ذروة الخلق المبدع.

حوادث ٣٤١هـ[2]:

كان ملوك الروم في تاريخ حروبهم مع المسلمين يطلبون منهم الهدنة أو الفداء أو تبادل الأسرىٰ، وتدفعهم في ذلك أسباب من فتن السياسة التي كانت تقع في القسطنيطينية، ومن ضعف الجيوش البيزنطية، أو اختلاف قادتها، أو لوجود كثرة في الأسرىٰ، وقد يطلب المسلمون الفداء أو تبادل الأسرىٰ وقد يطلبون الهدنة.

وقد حصلت المفاداة والهُدْنة بعد أنْ أرسل ملك الروم وَفْداً إلىٰ سيف الدولة عقب معركة خرشنة وسرية مرعش، أقبل رسول ملك الروم في آخر سنة ٣٤١هـ في سبيل الفداء، فاستقبله سيف الدولة في حفل ضخم، يريد أن يلقي الرعب في نفسه، وجاء غلمان الأمير بلبؤة مقتولة فألقوها في طريق الفداء ومن حولها أشبالها أحياء، وأقبل المتنبي لينشد قصيدته التي أعدها للحفل فلما رأىٰ اللبؤة وأشبالها ارتجل هذه الأبيات.

لَقيتَ العُفاةَ بآمالِها ... وزُرْتَ العُداةَ بآجالِها
وأقْبَلتِ الرُّومُ تَمْشي إليكَ ... بَيْنَ اللُّيُوثِ وأشْبالِها
إذا رأتِ الأسْدُ مَسْبِيَّةً ... فأيْنَ تفرُّ بأطْفالِها[3]

ثم قام بعد ذلك بين يدي الأمير فأنشد القافية التي هيأها لهذا المقام ومطلعها:

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٦٩.
(٢) كامل العبد الله: شعراء من الماضي ص٢٦٩-٢٧١.
(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٩٢-٩٣.

لعَيْنَيْكِ ما يَلْقىٰ الفُؤادُ وما لَقي وللحبِّ ما لم يَبْقَ منِّي وما بقي[1]

وبعد مقدمة طويلة تحدث فيها الشاعر عن المعارك الحربية التي تدور رحاها بين الروم البيزنطيين من جهة وبين المجاهدين المسلمين من جهة ثانية خاطب سيف الدولة قائلاً له:

لما علم ملك الروم طربك وميلك إلىٰ الكرم، خضع لك السائل، فخلّىٰ الرماح، ورجع صاغراً إلىٰ ما طلبته منه.

إنك أيها الأمير الشجاع لا تحارب إلا شجاعاً، لذلك كاتبك من بُعْدٍ يطلب الهدنة والصلح، لأنّ أرضه وإن كانت بعيدة لكنّها قريبة علىٰ خيلك، «لقد أقبل رسول ملك الروم يمشي إليك بين السمّاطين، فتصور له منك البحر في السخاء والبدر في العلاء، فلم يدرِ أيهما يمشي، فغشيهُ من هيبته، وملأ قلبه من جلالته، ما لا يعرض مثله إلا لمن قصد مُصمّماً إلىٰ البحر، وارتفع مرتقياً إلىٰ البدر، يعظم ما عاين من هيبته»[2]، ثم يقول: إن أعطيته مطلوبه من الأمان فقد أذعن ملك الروم بطاعتك وصرح بمسألتك، وإن نعطه حد السيف غير قابل لمسألته، ولا مسعف لرغبته فما أخلقك بذلك، لأنه كافر حربي وعادتك لا ترحمهم.

رأىٰ مَلِكُ الرّوم ارتياحَكَ للنَّدىٰ فقامَ مقامَ المُجْتدي المُتَملِّقِ[3]
وخلّىٰ الرِّماحَ السَّمْهَرِيَّةَ[4] صاغِراً لأدْرَبَ منهُ بالطِّعان وأحْذَقِ
وكاتَبَ مِنْ أرضٍ بعيدٍ مَرامُها قريبٍ علىٰ خَيْلٍ حَوالَيْكَ سُبَّقِ

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٢ ص٣٠٤.

(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص٣١٢.

(٣) الارتياح: الطرب.
المجتدي: السائل.
المتملق: الذي يخضع ويلين كلامه.

(٤) السمهرية: منسوبة إلىٰ سمهر ازوج ردينة، كانا يقومان الرماح. مادة (سمهر) مختار الصحاح ص٣١٥.
والسمهر: الرمح الصلب العود.

وقَدْ سارَ في مَسْراكَ[1] مِنْها رَسُولُهُ ... فما سارَ إلا فَوْقَ هامٍ مُفلَّقِ
فلمّا دَنا أخْفىٰ عليه مكانَهُ ... شُعاعُ الحديدِ البارقِ المتألِّقِ
فأقبلَ يَمْشي في البِساطِ فما دَرىٰ ... إلىٰ البحرِ يَمْشي أمْ إلىٰ البَدْرِ يَرْتَقي؟
ولَمْ يَثْنِكَ الأعداءُ من مُهجاتِهم ... بمثْلِ خُضُوعٍ في كلامٍ مُنَمَّقِ
وكُنْتَ إذا كاتَبْتَهُ قبلَ هذه ... كتَبْتَ إليهِ في قَذالِ[2] الدَّمُسْتُقِ
فإنْ تُعْطِهِ مِنْكَ الأمانَ فَسائِلٌ ... وإنْ تُعْطِهِ حَدَّ الحُسامِ فأخْلِقِ
وهل تَرَكَ البيضُ الصّوارمُ مِنْهُمُ ... أسيراً لفاد أو رقيقاً لِمُعْتِقِ[3]

معركة الثغور عام ٣٤٢هـ[4]:

في هذا العام أصَرّ العدو أنْ يَثْأرَ لنفسه فكمن بجيش كثيف عند «مَوْزار» وبحيلة بارعة من سيف الدولة سحب جيش البيزنطيين إلىٰ مكان يصلح أرضاً للمعركة، والتحم الفريقان في حرب ضروس، انتصر فيها المسلمون علىٰ الروم انتصاراً باهراً، وظل الجيش الإسلامي يضرب في الروم باسطاً سلطانه علىٰ «سمنين» و«حصن الران» وغيرهما من المواقع، فانتهز العدو هذه الفرصة وأغار علىٰ بعض أطراف الدولة الإسلامية، فبلغ سيف الدولة الذي انطلق إليه وأدركه عند نهر «جيحان» وكانت معركة رهيبة، جرح فيها القائد البيزنطي «برداس فوكاس» وأسر ابنه «قسطنطين».

---

(١) المسرىٰ: الموضع الذي يسار فيه بالليل. مادة (سرىٰ) مختار الصحاح ص٢٩٧.
(٢) قذال: مؤخر الرأس: مادة (قذل).
(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣١١-٣١٣.
(٤) زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب ص٢٨٥.
هادي نهر: مع المتنبي في شعره ص١٥٣.
طه حسين: مع المتنبي ص٢٢٨.
مصطفىٰ الشكعة: سيف الدولة الحمداني ص١٢٨.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٩٥.

كانت هذه الهزيمة شديدة الوقع علىٰ القائد البيزنطي، فلم يتحمل إهانتها ولذلك دخل الدير مترهباً، وانتهز شعراء سيف الدولة هذه الحادثة فقالوا شعراً كثيراً يصور المعركة وفي هذه المناسبة قام شاعرنا الأكبر المتنبي ونظم هذه القصيدة التي مطلعها:

لِيَالِيَّ بَعْدَ الظَّاعنينَ شُكُولُ طِوالٌ ولَيْلُ العَاشقينَ طَويلُ

إن هذه القصيدة من قصائد المتنبي الخالدات[1] في وصف معارك المسلمين ضد الروم، في هذه المعركة عَبَر سيف الدولة الفرات إلىٰ «دلوك» إلىٰ قنطرة «صنجة» إلىٰ «درب القلعة» فشنّ الغارة فعطف عليه العدو فقتل كثيراً منهم ورجع إلىٰ «ملطية» حتىٰ ورد الفرات، فتواردت إليه أنباء دخول الروم في بعض الأطراف الإسلامية.

لقد عدّ طه حسين[2] هذه القصيدة من أروع ما قال المتنبي في سيفيّاته من الشعر، إن الحوادث تجري في حركة ملحمية قوية، وكل نكسة من نكسات هذه الحملة بارزة بشكل تفننت فيه قريحة الشاعر المصور، فترىٰ فيالق الأمير تغطي الجبال في منطقة دلوك وصنجة ونلمح انقضاضها علىٰ العدو. وانتحاب المأسورات وهنّ يمزقن ثيابهن في حرقة، والانسحاب المعرقل في درب الموزار والرجوع إلىٰ ملطية التي تضرم فيها النيران ويسال الدم، واجتياز «قباقب» التي تسحقها كراديس الخيل، وعبور الفرات الذي فزع من هذه السيول البشرية المنقضة عليه، والمذابح الجديدة في هنزبط، ووصول الجيوش المنهكة إلىٰ حصن الران في ديار الإسلام، تلك الجيوش التي أدركها الإعياء من شدة الزحف، ثم يعود الزحف إلىٰ سيرته الأولىٰ في القطر المضطرب الذي يمتد من هناك إلىٰ سُمَيْساطَ ويَزْحَفُ الجيش ليلاً ونهاراً، إذ ينبغي عليه مداهمة العدو العائد من سورية مثقلاً بالأسرىٰ.

---

(١) هادي نهر: مع المتنبي في شعره الحربي ص١٥٣.

(٢) طه حسين: مع المتنبي ص٢٣٨.

وتدور المعركة قرب «مرعش» وتحيق الهزيمة بالروم، ويتعقب سيف الدولة قادتهم وتحطم ضرب السيوف بيض رؤوسهم، وأخيراً يبدو الدمستق مقهوراً منتحباً مدمىٰ لأنه جرح في وجهه جرحاً وآخر في قلبه أبلغ وأعمق وذلك لتركه ولده قسطنطين إلىٰ خطيّة العرب المسلمين.

يبدأ شاعرنا قصيدته بغزل جميل فيه حنان ورقة، ثم يصف رحيل حبيبته والفراق الذي حل محل الوصال، بعد ذلك يلمح في الشكوىٰ، ويخلص بعد ذلك من هذه الغزلية الرقيقة المزدحمة بالألوان البهية لكي يمدح سيف الدولة ذاكراً موقعته مع الروم.

إن المتنبي حريص كل الحرص في كل شعره الحربي أن يذكر الخيل ويصفها أوصافاً مختلفة وهو المولع فيها العارف بحقيقة صفاتها، فرسمها وقد رمىٰ سيف الدولة درب الروم إلىٰ العدىٰ، فانطلقت وكأنها السهام، ومضت وهي تغذ الركض رافعة أذنابها، وهي في مرح وصهيل تحت الفرسان إلىٰ أن كبست الروم فما شعروا حتىٰ رأوها تمطرهم بالحديد وتظلهم بالسيوف.

رَمَىٰ الدَّرْبَ بالجُرْدِ[1] الجِيادِ إلىٰ العِدَا ... وما عَلِمُوا أنّ السِّهامَ خُيُولُ
شَوائِلَ[2] تَشْوَالَ العقاربِ بالقَنا ... لها مَرحٌ من تَحْتِهِ وصهيلُ
وخَيْلٌ بَراها الرَكْضُ في كلِّ بَلدَةٍ ... إذا عَرَّسَتْ فيها فلَيْسَ تَقيلُ[3]

إن خيول المسلمين قد انتهت إلىٰ آخر السهل عند «دلوك» و«صنجة» وإذا هي تصعد مرتقية في الجبال، وإذا هي تبلغ قمم الأطواد فتزحمها بنفسها وحركاتها، كما تملأ الجو الرايات والأعلام، والعدو مع كل هذه ساهٍ لاهٍ لا يعرف ما دُبِّرَ له.

---

(١) الجرد: الخيل التي شعر جلدها قصير، مادة (جرد) لسان العرب المعكوس جـ١ ص٤٣٢.

(٢) شوائل: الخيل التي ترفع أذنابها عند الجري وهو دليل علىٰ قوتها. في لسان العرب ص٣٨٤: سالت الناقة ذنبها تشوله شولاً أي رفعته.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٩٩-١٠٠.

فلمّـا تَجَلّـىٰ مِـنْ دَلُـوكَ وصَنْجَـةٍ عَلَـتْ كُـلَّ طَـوْدٍ[1] رايـةٌ ورعيـلُ
علىٰ طُـرُقٍ فيهـا علـىٰ الطُّـرْقِ رِفْعـةٌ وفي ذِكْرِها عندَ الأنيس خُمُولُ[2]

ثم يأتي إلىٰ مباغتة الجيش الإسلامي لقوات الرّوم واكتساحها، فكانت خيول المسلمين قبيحة في أعين الروم لسوء فعلها بهم، وهي مع ذلك جميلة الخلق وقد اندفعت بِكُماتِها كالسحاب لما فيها من برق الأسلحة، وصياح الأبطال تصبّ الموت علىٰ الأعداء، وتمطرهم بالسيوف والأسنَّة فتغسل كل مكان بما تسفكه من الدماء.

فمـا شَعَـروا حتـىٰ رَأَوْهـا مُغيـرَةً قِبـاحـاً وأمَّـاً خَلْقُهـا فَجَميـلُ
سَحـائِـبُ يُمْطِـرْنَ الحـديـدَ عَلَيْهِـمُ فكُـلُّ مكـانٍ بـالسُّيُـوفِ غَسيـلُ[3]

وانجلت المعركة عن انتصار المجاهدين المسلمين، وانسحاب جيش الكفر الروم مخلّفين قتلاهم وعدّتهم التي غنمها المجاهدون، وعادوا بها، وفي طريق العودة اعترضهم الروم من جديد، ودارت بين الفريقين معركة ثانية، اندفع خلالها المجاهدون المسلمون نحو ملطية فاكتسحوها.

وعـادَتْ فظنّـوهـا بمَـوْزارّ قُفَّـلاً وليـسَ لهـا إلا الـدُّخـولَ قُفُـولُ
تُسـايِـرُهـا النيـرانُ فـي كُـلِّ مَسْلَـكٍ بـه القـومُ صَـرْعـىٰ والـدّيـارُ طُلـولُ
وكـرّتْ فمَـرَّتْ فـي دمـاءِ مَلَطْيَـةٍ مَلَطْيَـــةُ أمٌّ للبنيـــنَ ثَكُـــولُ[4]

وما أبدع تصوير المتنبي لاندفاع جيش المسلمين نحو الفرات وعبوره، فيرسم لنا الشاعر وهو في غمرة وصف زحف جيوش الأمير، وبصورة تأخذ بألبابنا السرعة الصاعقة لهذه الكتائب الخفيفة التي تنقض علىٰ العدو فتسحقه، رغم تفوق العدو واندفاعها نحو النهر مثيرة فيه الفزع فكأنَّها تنحدر عليه سيولاً بالرجال، وكأن الموج يجفل عند قوائم الخيل ويجري أمامه وهي تتبعه:

---

(١) طود: الجبل. مادة (طود) مختار الصحاح ص٣٩٩.
(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٠٠.
(٣) المصدر نفسه جـ٣ ص١٠١.
(٤) المصدر نفسه جـ٣ ص١٠٢.

وأضْعَفْنَ ما كُلِّفْنَهُ من قُباقِبٍ فأضْحي كأنَّ الماءَ فيه عليلُ
ورُعْنَ بنا قَلْبَ الفُراتِ كأنّما تخِرُّ عليه بالرِّجال سُيولُ
يُطارِدُ فيه موجَهُ كُلُّ سابِحٍ سواءٌ عَلَيْهِ غَمْرَةٌ ومَسيلُ
تراهُ كأنَّ الماءَ مرَّ بجسمِهِ وأقْبَلَ رأسٌ وحدَهُ وتَليلُ[1]

بعد ذلك يصف الشاعر المواقع التي جرت في «هنزيط» و«سمنين» فكانت الخيل تبيد الأعداء، وكانت الحصون لطول ما ملّت النّزال تلقىٰ إلىٰ جيش سيف الدولة بأهلها، لقد اندفع جيش المسلمين نحو حصن الروم في أرض وعرة، فاكتسحها واحداً واحداً، ثم يذكر الشاعر مراحل أخرىٰ من الفتوح والقتال في حِصْن الرّان فسميساط، وعند مرعش تدور الدائرة علىٰ جيش الروم:

وفي بَطْنِ هِنْزيطٍ وسِمْنين للظُّبا وصُمَّ القَنا مِمَّنْ أبَدْنَ بديلُ
وبِتْنَ بحِصْنِ الرّانِ رزْحىٰ مِنَ الوجىٰ وكلُّ عزيزٍ للأميرِ ذليلُ
ودونَ سُمَيْساطَ المطاميرُ والملا وأوْدِيَةٌ مُجهولَةٌ وهُجُولُ
لَبِسْنَ الدُّجىٰ فيها إلىٰ أرضِ مَرْعَشٍ وللرّومِ خَطْبٌ في البلادِ جَليلُ[2]

بعد أن تعب الشاعر من هذه الغزوات المتلاحقة السريعة، لم يجدْ بدّاً من أن يترك غبار المعركة وقعقعة السلاح، وصليل السيوف، وصهيل الخيول، وعبور الأنهار واقتحام الحصون وتسلق القمم، لكي يفيء إلىٰ ظلّ شجرة يستريح إلىٰ جانب غصن لكي يُصوّر الجانب النّفْسي والسّياسي من المعركة ويخلص إلىٰ أميره الذي لم يذكره بشخصه إلا ببضعة أبيات لأنه انشغل بنفسه، وبالجيش الذي يرافقه.

يلتفت الشاعر إلىٰ سيف الدولة ويصفه بما يوصف به عظماء المجاهدين من أنّ الرماح عنه قصيرة والسّيوف عنه كليلة لا تُؤثر فيه، وهو جواد بماله وبخَيْلِهِ وبجنده، لا يوردهم موارد الهلاك، وإنّما يدفعهم إلىٰ حيث مواكب النصر ومواقع

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٠٢-١٠٣.
(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص١٠٣-١٠٤.

الظفر، ثمَّ يتعرض الشاعر لأهم ما حدث في المعركة وهو أسر قسطنطين ابن الإمبراطور القائد ويتوعده بالعودة ويتهكم عليه في سخرية لاذعة وأنّه هرب جريحاً وترك ابنه أسيراً.

فلما رأوْهُ وَحْدَهُ قَبْلَ جَيْشِهِ ... دَرَوْا أنّ كُلَّ العالمينَ فُضُولُ
وأنَّ رماحَ الخَطِّ عنه قصيرةٌ ... وأنّ حديدَ الهِنْدِ عنهُ كَليلُ[1]
فأوْرَدَهُمْ صدْرَ الحصانِ وسَيْفَهُ ... فتىً بأسُهُ مِثْلُ العَطاءِ جزيلُ
جوادٌ علىٰ العلّاتِ بالمالِ كُلِّهِ ... ولكنَّهُ بالدّارعينَ بخيل
فودَّعَ قتلاهُمْ وشَيَّعَ فلَّهُمْ ... بضَرْبٍ حُزونُ البَيْضِ فيه سُهولُ
علىٰ قلْبِ قسطنطينَ منهُ تعجُّبٌ ... وإنْ كان في ساقيْهِ منهُ كُبولُ
لعلَّكَ يوماً يا دُمستُقُ عائِدٌ ... فكم هاربٍ مما إليه يَؤولُ
نجوْتَ بإحدىٰ مُهْجَتَيْكَ جريحة ... وخلّفْتَ إحدىٰ مُهْجَتَيْكَ تَسيلُ
أتُسْلِمُ للخطيَّةِ ابنَكَ هارِباً ... ويسكُنُ في الدُّنْيا إليكَ خَليلُ[2]

والحق أنّ هذه القصيدة تُعَدّ من أجمل ما قال المتنبي، ولعل من أسباب روعتها أنه جعل من الخيل أبطالاً لقصة المعركة وإلىٰ آخرها فأظهرها علىٰ مسرح القصيدة ووصفها في الصف الأول ووضع الجنود بين السطور وخلف النار[3] وعدّها طه حسين[4] من أروع ما قاله المتنبي وقال عنها هادي نهر[5] من القصائد الخالدات.

---

(١) الخط: قال الجوهري: الخط باليمامة، وهو خط هجر، تنسب إليه الرماح الخطية. قال ابن سيدة: الخط سيف البحرين وعمان وقيل إن كل سيف خط وقيل الخط مرفأ السفن بالبحرين تنسب إليه الرماح. مادة (خط) لسان العرب جـ١ ص٨٥٩.
كليل: لا يقطع. مادة (كليل) مختار الصحاح ص٥٧٦.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٠٤-١٠٦.

(٣) مصطفىٰ الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص٤٠٤.

(٤) طه حسين: مع المتنبي ص٢٣٨.

(٥) هادي نهر: مع المتنبي في شعره الحربي ص١٥٣.

معركة عام ٣٤٢هـ:

قال المتنبي يمدح سيف الدولة ويهنئه بعيد الأضحىٰ، لم يدع أبو الطيب ذكرىٰ معركة الثغور الكبرىٰ سنة ٣٤٢هـ التي وقعت في بلاد كثيرة من الثغور.

فقد ردد هذه الذكرىٰ حين هنأ سيف الدولة بعيد الأضحىٰ، إذ أنشده في ميدان حلب وتحت دار سيف الدولة وهما علىٰ فرسيهما قصيدة التهنئة بالعيد والنصر التي مطلعها:

لكُـلّ امـرىءٍ مـنْ دهـرِهِ مـا تعـوَّدا وعاداتُ سيفِ الدولةِ الطّعْنُ في العِدا[1]

وصف المتنبي ابن الدمستق الذي وقع في الأسر كأنه قد مات وقد عاش أبوه لفراره ونجاته، وشرح أبو الطيب في هذه القصيدة أيضاً أنّ الجيش كلّه قد وقع في الأسر، وأنَّ «برداس» الهارب لم يجد له عزاء سوىٰ لبس المسوح التي يلبسها الرهبان والاعتكاف في الدير، وكان ذلك دأب القادة البيزنطيين حين يخسرون الحروب فيلجأون إلىٰ الديارات للسلوىٰ[2]، صوّر أبو الطيب كل ذلك وخلع علىٰ فنه فيه مسحة تهكُّم حيث وصفه بأنه أصبح يتوكّأ علىٰ عكاز يطوف في جنبات الدير في حسرة بادية وذلّةٍ وانكسار بعد أنْ كان يتمنطق بالسيف ويتّشح بالدّرع مصطنعاً الكرّ والفرّ علىٰ الجياد، ثم يذكر الشاعر أنْ هذا الترهيب ليس بمنجيه من بطش الأمير:

لـذلـك سَمَّىٰ ابـنُ الـدُّمُسْتُـقِ يَـوْمَـهُ مَمَـاتَـاً وسَمَّـاهُ الـدُّمُسْتُـقُ مَـوْلِـدا
سريْتُ إلىٰ جَيْحانَ من أرضِ آمِدٍ ثـلاثـاً لقـد أدنـاك رَكْـشٌ وأَبْعَـدَا
فـولّـىٰ وأعْطَـاكَ ابنَـهُ وجيـوشَـهُ جميعـاً ولـم يُعْـطِ الجميـعَ لِيُحْمَـدا
عَـرَضْـتَ لـهُ دونَ الحيـاةِ وطَـرْفِـهِ وأبصَـرَ سَيْـفَ اللهِ منـكَ مُجَـرَّدا

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٨١.
(٢) زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب ص٢٨٧.

وما طَلَبَتْ زُرْقُ الأسِنَّةِ[1] غيرَهُ ... ولكنَّ قسطنطينَ كانَ لهُ الفِدا
فأصبحَ يجتابُ المسوحَ مخافةً ... وقد كان يجتابُ الدّلاصَ المُسَرَّدا[2]
ويَمْشي به العُكّازُ في الدّيْرِ تائِباً ... وما كان يَرْضى مَشْيَ أشْقَرَ أجْرَدَا
وما تابَ حتّىٰ غادَرَ الكرّ وُجْهَهُ ... جريحاً وخلّىٰ جَفْنَهُ النَّقْعُ أرْمَدا
فلو كانَ يُنْجي من عليٍّ ترهُّبٌ ... ترهَّبَتِ الأملاكُ مَثْنىٰ ومَوْحَدا[3]

ثم يهنّىء الشاعر الأمير بالعيد الذي يفرح به الناس فيقول له:

إنَّك عيد لكل الناس، الناس تفرح بسلامتك، والعيد يفرح بوصوله إليك، فأنْت عيده، أي تحلّ فيه محلّ العيد، فأنت أيها الأمير عيد كل مسلم مؤمن مجاهد.

هنيئاً لكَ العيدُ الذي أنتَ عيدُهُ ... وعيدٌ لمَنْ سَمَّىٰ وضَحَّىٰ وعَيَّدا[4]

ثم يهاجم خليفة المسلمين في بغداد تصريحا لا تلميحا ويرسل إليه نذيرا لا لبس فيه، وذلك لأنه يرىٰ بطله يقضي حياته في جهاد الكفّار بينما هو قابع لا يملك من نفسه شيئاً.

فيا عَجَباً من دائِلٍ أنت سيفُهُ ... أما يَتَوقَّىٰ شفْرَتَيْ ما تَقَلّدا
ومن يَجْعَلِ الضرغامَ بازاً لِصَيْدِهِ ... يُصَيِّرهُ الضّرغامُ فيما تَصَيَّدا[5]

في هذه القصيدة يظهر النضج الفني لدىٰ الشاعر، وخصب الشاعرية لذلك ترىٰ كثيراً من أبيات القصيدة حكماً متلاحقة.

---

(١) الأسنة: جمع سن وهو الزج الذي في أسفل الرمح.

(٢) المسوح: جمع مسح وهو ما ينسج من الشعر يقطعها ويدخل فيها من خوفه منك، الكساء من الشعر. مادة (مسح) لسان العرب ص٤٨.
المسرد: المنظوم المنسوج بعضه في بعض. مادة (سرد) لسان العرب جـ٢ ص١٣٠.
الدلاص: الدروع الصافية البارقة. مادة (دلص) لسان العرب جـ١ ص١٠٠٧.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٢٨٣-٢٨٥.

(٤) المصدر نفسه جـ١ ص٢٨٥.

(٥) المصدر نفسه جـ١ ص٢٨٧.

معركة الحدث[1] سنة ٣٤٣هـ[2]:

حصن الحدث هو أحد المنافذ إلىٰ بلاد الروم، كان الروم قد ضربوه سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة حتىٰ لا يكون شوكة في ظهورهم، فصمم سيف الدولة في سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة علىٰ إعادة بنائه، ووضع الأساس بيده، وبينما هو قائم علىٰ البناء، إذ القائد الرومي «نقفور فوكاس» يرميه بجيش عدّته خمسون ألفاً من الرجالة والفرسان فيهم البلغار والأرمن، وكان معه ابنه «تيسفور فوكاس» ولم يكن مع سيف الدولة سوىٰ بضع مئات من فرسان قيل خمسمائة من حرسه الخاص.

احتدمت المعركة وغلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة، بل لقد دمرتها تدميراً إذ سقط في الميدان ثلاثة آلاف من الروم، ووقع كثير من البطارقة أسرىٰ، وكان ممن سفك دمه ابن بنت «برداس» وصهره، أما هو فقد فرّ بجلده.

لقد كان قائد الروم «فوكاس» وقد اصطحب معه البطارقة ومنهم «تودس الأعظم» صهر الدمستق، وكان يتقدمهم الصليب، وكان هدفهم الانتقام من الأمير المجاهد سيف الدولة.

كان المتنبي مرافقاً لسيف الدولة في هذه المعركة، وأبلىٰ بلاء حسناً، حتىٰ إذا انتهت نهايتها المظفرة الرائعة، وقف بين يدي الأمير ينشده هذه السيفية الخالدة، وقد بلغ فيها الذروة في التعبير عن بطولة أميره وفرسانه الشجعان، وإحساس المسلمين العميق بالعداء المستعر بينهم وبين الروم.

---

(١) الحدث: قلعة حصينة بين ملطية وسميساط ومرعش من الثغور، ويقال لها الحمراء لأن تربتها جميعاً حمراء، وقلعتها علىٰ جبل يقال له الأحيدب. معجم البلدان: الحموي جـ٢ ص٢٢٧.

(٢) مصطفىٰ الشكعة: سيف الدولة الحمداني ص١٢٨، ٢٧٦.
زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب ص٢٧٦.
سامي الكيالي: سيف الدولة الحمداني ص٨٧-٨٨.
أحمد صالح فاعور: الدولة الحمدانية ص١٦٥.

بدأ الشاعر هذه القصيدة الجهادية بأبيات حماسية تناسب جوّ المعركة ذاكراً العظماء وما يأتونه من عظائم الأمور.

علىٰ قَدْرِ أهْلِ العَزْمِ تَأْتي العزائِمُ وتأتي علىٰ قَدْرِ الكرامِ المكارمُ[1]

ثم يتعرض لذكر الموقعة، ويصفها بالحمراء من كثرة الدم الذي صبغ أرضها من جنود الروم، وكيف أن السماء كانت تُمطر عليها الجماجم بدلاً من المطر، وكيف بناها سيف الدولة وقد اصطرعت السيوف وتقارعت القنا، وأحاط بها الفناء، وظللتها المنايا كأنها البحار الزاخرة الغائِرَة، وكانت قبل ذلك مجنونة لما يصيب المسلمين من أهلها من ظلم الروم، فهدّأ سيف الدولة من جنونها بتمائم كتبها لها، ولم تكن تلك التمائم إلا جثث الظالمين.

هَلْ الحَدثُ الحمراءُ تعرِفُ لونَها وتَعْلَمُ أيُّ السَّاقِيينِ الغمائِمُ
سَقَتْها الغَمامُ الغرُّ قبْلَ نُزُولِهِ فلمّا دَنا مِنْها سَقَتْها الجَماجِمُ
بناها فأعْلىٰ والقَنا تَقْرَعُ القَنا ومَوْجُ المَنايا حَوْلَها مُتلاطِمُ
وكان بها مِثْلَ الجُنونِ فأصْبَحتْ ومِنْ جُثَثِ القَتْلىٰ عليها تَمائمُ
طريدةُ دَهْرٍ ساقَها فَرَدَدْتَها علىٰ الدِّينِ بالخَطِّيِّ والدّهْرُ راغِمُ[2]

فالمتنبي في الأبيات السابقة يعجب من تكليف سيف الدولة لكتائبه الصغيرة أن تنهض بِهِمَّةٍ في الحرب، وهي هِمَّة أعظم من أن تخصص بها الجيوش الضخمة، ومع ذلك فإن جيش سيف الدولة القليل بعدده وعدّته ينتصر علىٰ جيش الروم الكثير العدد والعدّة ويحقق عليه انتصارات رائعة.

بعد ذلك الوصف الرائع الجميل يلتفت المتنبي إلىٰ الأمير معجباً به مفتوناً بقوته وعظمته ذاكراً له أنه قادر علىٰ فعل المعجزات وأن الروم والروس عاجزون عن هدم المدينة طالما أنّ دعائمها قائمة علىٰ الطعن الشديد والحرب المظفرة التي أنْصفت المظلومين من أهلها وشتت الظالمين.

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٧٨.

(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٨٠-٣٨٢.

إذا كـانَ مـا تَنْـويـهِ فِعْـلاً مُضـارِعـاً مَضَىٰ قَبْلَ أنْ تُلْقىٰ عليه الجَوازمُ[1]
وكيف تُرجَّىٰ الرومُ والروسُ هَدْمَها وذا الطَّعْـن أسـاسٌ لهـا ودعـائـمُ
وقـد حـاكمـوهـا والمنـايـا حـواكِـمٌ فما ماتَ مظلومٌ ولا عاش ظالِمُ[2]

إن الشاعر منصف في وصف المعارك، فليست مهمته تزكية المسلمين وتمجيدهم وحدهم لذا لم يفته أن يكون دقيقاً في استعراضه لوصف المعركة، فلم يحط من قدر قوة الروم ولم يهوّن من شأنهم، بل وصف جيشهم الكبير الذي كان تحت إمرة أكبر قائد رومي عرفته الإمبراطورية في القرن العاشر الميلادي وهو «نقفور فوكاس» الذي قاد المعارك براً وبحراً في الشام وكريت وصقلية في دقة تامة أشاد بها جميع المؤرخين، يصف الشاعر ذلك الجيش ونظامه ودقته فيقول إنه جيش كثيف، زحف بشرق الأرض وغربها، تقارع أصواته آذان السماء، وهي أصوات أخلاط من البيزنطيين ومن وراءهم من الأوروبيين، أصوات مستعجمة قبيحة.

ويصور فرسان الروم يثقلهم ما يلبسونه وما تلبسه خيولهم من الحديد والفولاذ فعلىٰ رؤوسهم الخوذ، وعلىٰ أجسادهم الدروع، وفي أيديهم التروس الضخمة وعلىٰ الخيل السروج والحديد المصفح الذي لا تكاد تبين فيه قوائمها، وكل هذا الحديد يلمع تحت الشمس، وقد يكاد الإنسان يميز بين سيوفهم وما يلبسونه إذ كل ذلك حديد يلمع ويبرق، لله يوم هذه المعركة، فقد محا تمويه من يتظاهرون بالبطولة والفروسية، وكأنه نار صهرت التمويه والغش والخداع، فلم يبق يثبت سوىٰ الصارم، والسيف القاطع، والضيارم والأسد الشجاع، أما السيف الكليل فقد تقطع وأما الجبان فقد ولّىٰ الأدبار.

---

(١) الفعل المضارع: ما كان فيه إحدىٰ الزوائد الأربع، الألف للمتكلم، النون للجماعة، الياء للغائب، والتاء للمخاطب، والنحويون يسمون المستقبل المضارع وهو يصلح للحال والاستقبال حتىٰ تدخل عليه سوف والسين، فيصير للمستقبل خاصة، وأراد أبوا لطيب الاستقبال ليصح له المعنىٰ، لأن الفعل الحاضر لا يجوز أن ينوي ويتوقع ولا يؤمر به.
الجوازم: أحرف الجزم، وأحرف الشرط، فهذه الحروف إذا دخلت علىٰ المضارع الصحيح سكنته وإذا دخلت علىٰ المعتل حذفت حرف العلة منه.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٨٢-٣٨٣.

أتَـوْكَ يجُـرّونَ الحـديـدَ كـأنَّهُـمْ سـرَوْا بجيـادٍ مـا لَهُـنَّ قـوائِـمُ
إذا بَـرقـوا لـمْ تُعْـرَفِ البيـضُ منهـمُ ثيـابُهُـمُ مـن مِثْلِهـا والعَمـائِـمُ
خميسٌ[1] بشَرْقِ الأرْضِ والغَرْبِ زحْفُهُ وفـي أُذُنِ الجَـوْزاءِ منـه زَمـازِمُ
تَجَمَّـعَ فيـهِ كُـلُّ لِسْـنٍ وأُمَّـةٍ فمـا تُفْهِـمُ الحُـدَّاثَ إلا التـراجـمُ
فللـهِ وقـتٌ ذوَّبَ الغِـشَّ نـارُهُ فلـم يَبْـقَ إلا صـارِمٌ أو ضُبـارِمُ
تَقَطَّـعَ مـا لا يَقْطَـعُ الـدِّرْعَ والقَنـا وفـرّ مـن الأبْطـالِ مـن لا يُصـادِمُ[2]

إنّ المتنبي يأتي بهذا الوصف المروّع المخيف المرعب لجيش الروم لكي يخلص إلىٰ أميره المجاهد الذي وقف رغم هذه القوة العاتية، وقف وقفة مشرفة، يعمل سيفه ذات اليمين وذات الشمال، فيهزم الأبطال ويطيح برؤوس الشجعان ولم تفارق البسمة ثغره، أو تترك البشاشة وجهه، وهو يشهد بقلب ثابت الانتصار العظيم، وهزيمة العدو أمامه، وخيله تلحق به في ذرىٰ الجبال:

وَقَفْتَ وما في المَوْتِ شكٌّ لِواقِفٍ كأنَّك في جَفْنِ الرَّدىٰ وهو نائِم
تمُـرُّ بـكَ الأبطـالُ كَلْمـىٰ هـزيمـةً ووجْهُـكَ وضّـاحٌ وثَغْـرُكَ بـاسِـمُ
تَجـاوزْتَ مِقْـدارَ الشَّجـاعـةِ والنُّهـىٰ إلىٰ قَوْلِ قَوْمٍ أنتَ بالغَيْبِ عالِمُ[3]

ثم يعود شاعرنا الأعظم إلىٰ وصف المعمعة من جديد، ويذكر كيف شتت الأمير شمل الأعداء، فنشر الرعب، وأشاع الفوضىٰ في صفوفهم، حتىٰ اختل نظام الجيش وتراجع الجناحان نحو القلب، والضرب ينال من هاماتهم، والنصر غائب عنهم قريب من المسلمين، وصارت جثث الأعداء تتناثر علىٰ جبل الأحيدب بجوار الحدث وكأنها عرس للبطل المجاهد سيف الدولة، وما الأشلاء والجثث

---

(١) الخميس: الجيش العظيم له الميمنة والميسرة والقلب والجناحان، الجيش لأنه خمسة أقسام مادة (خمس) مختار الصحاح ص١٩٠. لسان العرب جـ١ ص٩٠٣.

(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٨٤-٣٨٥.

(٣) النهىٰ: جمع نهية وهي العقل. مادة (نهى) مختار الصحاح ص٦٩٣.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص٣٨٦-٣٨٧.

إلا الدراهم التي تعوّد العرب في أعراسهم أن ينثروها علىٰ العروس فرحين مبتهجين:

ضمَمْتَ جناحَيْهِمْ علىٰ القلبِ ضَمّةً ... تموتُ الخَوافي تحتها والقوادِمُ[1]
بضَرْبٍ أتىٰ الهاماتِ والنَّصْرُ غائِبُ ... وصارَ إلىٰ اللّبّاتِ والنَّصرُ قادمُ
حَقَرْتَ الرّدينيّات حتىٰ طَرحْتَها ... وحتّىٰ كأنّ السَّيْفَ للرُّمحِ شاتِمُ
ومَنْ طَلَبَ الفتحَ الجليلَ فإنّما ... مفاتيحُهُ البيضُ الخِفافُ الصّوارِمُ
نَثَرْتَهُمُ فوق الأُحَيْدبِ نَثْرَةً ... كما نُثِرَتْ فوقَ العَرُوسِ الدَّرَاهِمُ[2]

إن المتنبي لم ينسَ الخيل التي اشتركت في المعركة فيصفها هنا وصفاً جديداً يختلف عنه في قصائده الأخرىٰ، فهي خيل نشطة بارعة في تسلق قمم الجبال، حيث وكور جارحات الطير، ولكنه تسلق مبارك، ينثر الجثث التي تطعم فراخ العقبان، حتىٰ ظنت هذه الفراخ أن تلك الطير أمهاتها لسرعة تسلقها، وخفة حركتها، وهي خيل تؤدي جميع ضروب السير حسب المكان الذي تسير فيه حتىٰ أنها تزحف أحياناً علىٰ بطونها كما تزحف الحيّات علىٰ وجه الأرض.

تَدوسُ بكَ الخَيْلُ الوكورَ علىٰ الذُّرا ... وقد كَثُرَتْ حَوْلَ الوُكُورِ المطاعِمُ
تَظُنُّ فِراخُ الفَتْخِ أنَّكَ زُرْتَها ... بأُمَّاتِها وهي العِتاقُ الصَّلادِمُ
إذا زَلِقَتْ مَشَّيْتَها ببُطونها ... كما تَتَمشّىٰ في الصّعيد الأراقمُ[3]

ثم ينهي الشاعر قصيدته بلغته إلىٰ الدمستق مليئة بالسخرية والهزء واصفاً حاله بالحماقة والجهل، لأنه لا يرعوي عن مُلاقاةِ الأمير المرّة بعد المرّة، وفي كل مرّة

---

(١) جناحان: جانبا العسكر الميمنة والميسرة.
الخوافي: أربع ريشات تتلو أربعاً قبلها من جناحي الطائر. مادة (خفىٰ) مختار الصحاح.
القوادم: أربع ريشات في أول جناحي الطير.
(٢) نثر: فرّق مادة (نثر) مختار الصحاح ص٦٤٥.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٨٧-٣٨٨.
(٣) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٨٩.

يفقد عزيزاً، ويبعثر جيشاً، ففي المرة السابقة فقد ابنه، وفي هذه المرة فقد صهره وابن صهره، ولكنه مضىٰ شاكراً، ولكن شكره غير موجّه للأمير بل موجّه إلىٰ هؤلاء القتلىٰ من جيشه الذي شغلت رؤوسهم جيش سيف الدولة من رأس القائد نفسه، فيقول في جو مصحوب بالسخرية:

أفِي كُلّ يَوْم ذا الدُّمُسْتُقُ مُقْدِمٌ ... قفاهُ علىٰ الأقْدام للوَجْهِ لائِمُ
أيُنْكِرُ ريحَ الليْثِ حتّىٰ يذوقَهُ ... وقد عَرَفَتْ ريحَ اللُّيوثِ البهائِمُ
وقَدْ فَجَعْتَهُ بابنِهِ وابْنِ صِهْرِهِ ... وبالصِّهْرِ حَملاتُ الأميرِ الغَوَاشِمُ
مَضَىٰ يَشْكُرُ الأصْحابَ في فَوْتِهِ الظُّبا ... بما شَغَلَتْها هامُهُمْ والمعاصِمُ
ويفْهُمُ صوتَ المَشْرفيّةِ فيهمُ ... علىٰ أنّ أصواتَ السيوفِ أعاجمُ[1]

وأبو الطيب المتنبي أول من وصف هذه الحروب مع البيزنطيين بأنها ليست حروباً خاصة بين ملك الروم وملوك العرب، ولكنها حرب بين الإسلام والشرك[2].

ولَسْتَ مَليكاً هازِماً لنظيرِهِ ... ولكنّكَ التوحيدُ للشِرْكِ هازِمُ[3]

إن هذه القصيدة تُعَدّ مثلاً أعلىٰ لشعر الحرب[4] لأن الشاعر لم يخرج فيها عن جادّة الموضوع لا من قريب ولا من بعيد، فلم يتغزّل ولم يفخر ولم يَهْجُ.

إن قصيدة الحدث دليل علىٰ سمو أسلوب المتنبي في الوصف الملحمي، وصدق عاطفته، وارتفاعه إلىٰ مستوىٰ المعركة[5].

إن قصيدة الحدث من أكثر قصائد المتنبي تحقيقاً للنفس الملحمي حيث ترتفع النفس الملحميّة في هذه القصيدة من بيت إلىٰ بيت فتكتمل لوحة بطولية

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٨٩-٣٩٠.
(٢) زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب ص٢٩٢.
(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٩١.
(٤) مصطفىٰ الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص٤١٣.
(٥) خليل شرف الدين: الموسوعة الأدبية الميسرة ص١٣٠.

خارقة في نفس تصاعدي وحشد للصور البصرية ورؤيا تعتمد علىٰ الواقع الحسي لترتفع إلىٰ جو أسطوري[1].

إن شعر المتنبي في قصيدة معركة الحدث عبارة عن عدسة تصوير ناطقة تنقُل إليك صورة الجيشين المتحاربين في أحسن صورة[2].

حوادث سنة ٣٤٣هـ:

في هذا العام أرسل ملك الروم رسوله إلىٰ سيف الدولة من أجل الهدنة فحشد سيف الدولة للقائه جيوشاً حال ثقلها بالباب دون دخول أبي الطيب فلما أدخل أبو الطيب حيث كان الحفل، وصف السفير أنه قبّل الأرض ثم قبّل كم سيف الدولة.

يقول زكي المحاسني[3]: أجد هذا عند أبي الطيب تسجيلاً للطراز التي كان يسلّم به السفراء البيزنطيون علىٰ الملوك في القرن العاشر للميلاد وهو طراز السلام لدىٰ سفراء الفرنجة في القرون الوسطىٰ، ولكنهم لم يكونوا يقبلون الأرض، وإنما كانوا يرجعون خطوتين إلىٰ الوراء ووجوههم تلقاء الملوك الذين يؤدون التحية إليهم، ثم يمسّون الأرض بأطراف قبعاتهم ذوات الريش ثم يلوحون بها مَيْلاً مع الخطوتين الراجعتين لكن السفير البيزنطي قبّل الأرض قبل أن يقبّل كمّ سيف الدولة، فلما فعل ذلك السفير وقف المتنبي وقال القصيدة التالية التي مطلعها:

دُروعٌ لمَلْكِ الرُّومِ هَذي الرّسائِلُ يَرُدُّ بها عَنْ نَفْسِه ويُشاغِلُ[4]

وحين يتحدث الشاعر عن السفراء الذين يأتون بعد انكسار جيوشهم يلتمسون عبثاً هدنة من أمير مزهوّ بانتصاراته، لم تكن لديه كفاية من الكلمات المذّلة

---

(١) جورج عيد ومعتوق: المتنبي شاعر الشخصية العربية ص٩.

(٢) هادي نهر: مع المتنبي في شعره الحربي ص١٤٩.

(٣) زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب ص٢٨٧.

(٤) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١١٢.

لتصوير موقفهم بدقة، فهم يرتعدون فرقاً، ولا يستطيعون المشي معتدلي القامة، تنظر أعينهم بفزع إلىٰ سيف الأمير، ولم يخفّوا طلب الهدنة، وإنما لالتماس العفو، إنه ميثاق حمية، ومن العظم أن تقول هذا تصوير لا يطابق الواقع.

أتاك يكاد الرّأس يجحد عُنْقَهُ ... وتنقدُّ تحت الذُّعر[1] منهُ المفاصلُ
يُقَوّم تقويمَ السّماطينِ مَشْيَهُ ... إليكَ إذا ما عوَّجَتْهُ الأفاكِلُ[2]
فقاسَمَكَ العَيْنَيْن منهُ ولحْظَهُ ... سَمِيُّكَ والخِلُّ[3] الذي لا يزايلُ
وقبّل كُمّاً قبّ التُربَ قَبْلَهُ ... وكلُّ كميٍّ واقفُ متضائِلُ[4]

ثم أخذ الشاعر يمنّ علىٰ رسول ملك الروم بتقبيل كم الأمير فقال:

مكانٌ تَمنّاهُ الشِّفاهُ ودونَهُ ... صُدورُ المذاكي والرّماحُ الذوابِلُ[5]

ولم يصرح أبو الطيب في هذه القصيدة بأن سيف الدولة مَنّ علىٰ الرسول بفكاك ابن قسطنطين فقبل سفارة الرسول، أو أنّ ابن قسطنطين كان سجيناً أو عزيزاً في أسره، أو أنه قضىٰ نحبه في ديار المسلمين، إلا أن بلاشير[6] قال: أن ابن نسيفور فوكاس مات.

وأخيراً يقول: إنّ الروم أرسلوا رسولهم راجين إجابتهم إلىٰ الصلح، وقد جاؤوا إليك ذليلين، لذلك لا تحتاج في أسرهم إلىٰ السلاسل.

---

(١) الذعر: الفزع. مادة (ذعر) مختار الصحاح للرازي ص٢٢٢.
(٢) السماطين: صفان من الجند كانا بين يدي سيف الدولة جـ ١ ص١١٣.
الأفاكل: جمع أفكل، الرعدة تعرض عند الفزع.
(٣) الخلّ: الخليل ويقال للسيف خل وخليل.
(٤) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١١٣ ـ ١١٤.
(٥) المذاكي من الخيل: التي كملت أسنانها. الواحدة: مذك.
الذوابل من الرماح: اليابسة العوالي.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣.
(٦) بلاشير: أبو الطيب المتنبي ص١٧٩.

رَجا الرّومُ من تُرجَى النّوافِلُ كُلُّها لـديـه ولا تُـرجـي إليـه الطَّـوَائـلُ
فإنْ كانَ خَوْفُ القَتْل والأسْرِ ساقهَمُ فقد فَعَلُوا ما القَتْلُ والأسْرُ فاعلُ
فَخَـافُـوكَ حتّـىٰ مـا لِقَتْـلٍ زيـادةٌ وجاؤوكَ حتّىٰ ما تُزادُ السّلاسِلُ[1]

حوادث سنة ٣٤٣هـ:

جلس سيف الدولة لرسول ملك الروم، ولم يصل إليه المتنبي لزحام الناس فعاتبه سيف الدولة علىٰ تأخره فقال ارتجالاً:

ظُلْـمٌ لـذا اليـومِ وصْـفٌ قبـلَ رُؤْيَتِـهِ لا يَصْدُقُ الوَصْفُ حتّىٰ يَصْدُقَ النَّظَرُ[2]

أي إنَّ وصفي لهذا اليوم دون أن أُشاهد ما جرىٰ فيه ظلم له، لأنّ صدق الوصف موقوف علىٰ صدق النظر، فإذا لم أَكُنْ صادقَ النظر بالعيان والمشاهدة، لم أكُن صادق الوصف، ثم ينتقل للحديث عن الروم فيقول:

اليـوْمَ يـرفَـعَ ملْـكُ الـرُّوم نـاظِـرَهُ لأنَّ عَفْـوَكَ عنـهُ عِنْـدَهُ ظَفَـرُ
وإنْ أجَبْـتَ بشـيءٍ عَـنْ رسَـالَتِـه فمـا يـزالُ علـىٰ الأمـلاكِ يَفْتَخِـرُ
قـد ٱسْتراحَـتْ إلـىٰ وَقْـتٍ رِقـابُهُـمُ مـن السُّيـوفِ وبـاقـي القَـوْمِ يَنْتَظِـرُ
وقـد تُبَـدّلُهـا بـالقَـوْمِ غَيْـرَهُـمُ لكي تَجِمَّ رُؤوسُ القَوْمِ والقَصَرُ[3]

أحداث سنة ٣٤٤هـ، ٩٥٥م[4]:

ورَدَ علىٰ سيف الدولة الخبر آخر النهار يوم الثلاثاء لست خَلَوْن من جمادىٰ الأولىٰ سنة أربع وأربعين وثلاثمائة بأنّ الدُمُسْتقَ وجيوش النصرانية قد نازلت ثغر

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١١٦.
(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص٩٨.
(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص٩٩.
(٤) سامي الكيالي: سيف الدولة ودولة الحمدانيين ص٢١٦-٢١٨.
البرقوتي: جـ٣ ص٢٥٣.
زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب ص٢٩٣.
بلاشير: أبو الطيب المتنبي ص٣١٧.

الحدث في يوم الأحد، ونصبوا عليه مكايد، وقدّروا أنّها فرصةٌ فيه لما تداخل أهله من القلق والانزعاج والوصم في تمام بنائه علىٰ يد سيف الدولة، ولأنّ ملكهم قد ألزمهم قصده، وأنجدهم بأصناف الكُفْر من البلغار والروس والصقلب وغيرهم، وأنفذ معهم العدد الكثير والعِدد الوفيرة، فركب سيف الدولة لوقته نافراً، وانتقل إلىٰ غير الموضع الذي كان فيه ونظر فيما يجب النظر فيه في ليلته، وصار عن حلب غداة يوم الأربعاء لسبع خَلَوْن فنزل «رعبان» وأخبار الحدث مستعجمة عليه لضبطهم الطرق وتقديرهم أن يخفىٰ عليه خبرهم فلمّا أسْحَر، لبس سلاحه وأمر أصحابه بمثل ذلك وسار زحْفاً، فلمّا قَرُبَ من الحدث عادت إليه الطلائع بأنَّ عدو الله لمّا أشرفَتْ عليه خيول سيف الدولة علىٰ عقبة تسمىٰ «العبراني» أو «العبري» رحل ولم يستقر به دار وامتنع أهلُ الحدث من البدار بالخبر خوفاً من كمين يعترض الرُّسل، فنزل سيف الدولة بظاهره، وأتَتْهُم طلائعهم تخبر سيف الدولة بانصرافهم إلىٰ «حصن رُعْبان» ووقعت الضجة، وظهر الاضطراب، وولّىٰ كلّ فريق علىٰ وجهه، وخرج أهل الحدث فأوقعوا ببعضهم، وأخذوا آلة حربهم وأعدوه في حصنهم فقال أبو الطّيّب:

ذي المعالي فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تعالىٰ هكذا هكذا وإلاّ فلا لا[1]

كان بناء الحدث الحمراء وتملك المسلمين لحصنها شوكةً في جنب الروم لأنها باب الطريق إلىٰ القسطنطينية، فجاء جيشهم سنة ٣٤٤هـ إلىٰ الإغارة عليها بقيادة ابن ملكهم «ليون» فوصف أبو الطّيّب سرية الروم هذه وما دار عليها من الأقدار التي دارت قبلها علىٰ آباء الروم وأحوالهم فقال:

لا ألومُ ابنَ لاوِنٍ مَلِكَ الرّو مِ وإنْ كان ما تَمَنّىٰ مُحَالا
أقلقتْهُ بَنِيَّةٌ بين أُذْنَيْـ ـهِ وبانٍ بغىٰ السَّماءَ فَنَالا
يجمعُ الرّومَ والصقالبَ والبُلْـ ـغَرَ فيها وتَجْمَعُ الآجَالا

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٣٤.

نـزلـوا فـي مَصَـارِعِ عـرفُـوهـا يَنْـدُبُـونَ الأَعْمَـامَ والأخْـوَالا[1]

إنّ الروم لم ينسوا ما أصابهم من خسارةٍ فادحةٍ في هذا المكان قبل عام أي عام ٣٤٣هـ في الحدث، ونظراً لشدة خوفهم منك، رأوا الطّعْن متتابعاً في قلوبهم:

تحمِـلُ الـرّيـحُ بينَهُـمْ شَعَـرَ الهـا مِ وتُـذري عليهـمُ الأَوْصَـالا[2]
تُنْـذِرُ الجِسْـمَ أنْ يُقيـمَ لـديهـا وتُـريـهِ لكـلّ عُضْـوٍ مِثـالا
أَبْصَـرُوا الطّعْـنَ فـي القلـوبِ دِراكـاً قَبْـلَ أنْ يُبْصـروا الـرّمـاحَ خَيَـالا
وإذا حـاولَـتْ طِعـانَـكَ خَيْـلٌ أبصـرْتَ أذْرُعَ القنـا أَمْيَـالا[3]

إن الخوفَ سيطر علىٰ قلوب الرّوم فانتشر وشاع فيهم، فكأنه بسط يمينه في ميامن عسكرهم، وشماله في مياسرهم حتىٰ انهزموا، لقد أصيبت أيدي الروم بالارتعاش من شدّة الخوف، فصار السّلاحُ يسقطُ من بينِ أيديهم من شدّة خوفهم إن الخوفَ غيَّرَ وجوه الروم وأذهب جمالها.

بَسَـطَ الـرُّعْـبُ فـي اليميـنِ يَمينـاً فَتَـولَّـوْا وفـي الشِّمـالِ شِمـالا
ينْقُـضُ الـرَّوْعُ أيْـدِيـاً ليـس تَـدْري أسُيُـوفـاً حَمَلْـنَ أمْ أغْـلالا[4]
وَوُجُـوهـاً أخَـافَهـا مِنْـكَ وَجْـهٌ تَـرَكَـتْ حُسْنَهـا لـه والجَمَـالا[5]

لقد فر الروم من المعركة، وكانوا قد تكلفوا كثيراً نتيجة غزوهم، لقد ظنوا أنّهم قادرون علىٰ ملاقاة المسلمين وقتالهم، فلمّا قصدوا محاربتك انهزموا وعاينوا قصورهم فأزال العيان ما كان الظنّ يحدث لهم.

---

(١) العكبري: التيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٣٧-١٤٠.
(٢) تذرىٰ: تنثر، تفرق، مادة (ذرىٰ). مختار الصحاح ص٢٢٢.
الأوصال: جمع وصل ويريد به العضو. مادة (وصل) مختار الصحاح ص٧٢٥.
(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٤٠-١٤١.
(٤) الأغلال: جمع غلّ وهو رباط تشد به اليد إلىٰ العنق. مادة (غلل) لسان العرب جـ٢ ص١٠٠٨.
(٥) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٤٢.

إنَّ الرومَ جبناء في قتالِهم للمسلمين فهم لا يستطيعون الصُّمود أمامهم لأنّ المسلمين يقاتلون من أجْلِ إعلاء كلمة الله، وأمّا الروم فقتالهم من أجْل الطاغوت، لقد أقْسَم الرّوم أنْ يُحْضروا عقولهم، ويَعْملوا أفكارهم في قتالك، فماذا كانت النتيجة، أفنيتَ جيوشَهم وأتلفْتَ نفوسَهم.

والعِيانُ الجَليُّ يُحْدِثُ للظَّنِّ ... زوالاً وللمُرادِ انْتقالا
وإذا ما خَلا الجبانُ بأرْضٍ ... طَلَبَ الطَّعْنَ وحدَهُ والنِّزالا
أقْسَموا لا رأوْكَ إلا بِقَلْبٍ ... طالَما غرَّتِ العُيونُ الرِّجالا[1]

إن هذا اللعين لم يشك في أنَّك تغلب جيشه فتتحكم فيه وتأخذه وتتملكه وتشتت أهله بالقتل والأسر، إنّ اللهَ تكفل لك عليه بالنصر.

ما يشك اللعين في أخذك الجيش ... فهل يبعث الجيوش نوالا[2]

وأخيراً يصف جيش المسلمين فيقول:

في خميسٍ من الأسودِ بَئيسٍ ... يَفْتَرِسْنَ النُّفوسَ والأمْوالا
وظُباً تعرفُ الحرامَ من الحِلِّ ... فَقَدْ أفنَتِ الدماءَ حلالا[3]

حوادث سنة ٣٤٤هـ:

ورد رسول ملك الروم بطلب الهدنة من سيف الدولة، فأنشد المتنبي هذه القصيدة بحضرتهم، وقت دخولهم لثلاث عشرة بقين من المحرم سنة أربعٍ وأربعين وثلاثمائة للهجرة ومطلعها:

أراعَ كذا كُلَّ الملوكِ هُمامُ ... وسحَّ له رُسُلَ الملوكِ عَمامُ[4]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص١٤٣.
(٢) نفس المصدر جـ٣ ص١٤٤.
(٣) نفس المصدر جـ٣ ص١٤٦.
(٤) أراع: أفزع. الهمام: الملك العظيم الهمة. الغمام: السحاب.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٩٣.

إنّ الأميرَ المجاهدَ سيفُ الدولة كان المحور الأول في شعر المتنبي الذي يدور عليه محور شعر الجهاد ولهذا ركّز عليه، ووجه نحوه أضواءَهُ ولعلّ أفضل صفة يتحلّىٰ بها الفارس في الحرب أنّه يخوضُ المعاركَ دون خوفٍ ويضربُ الأعناقَ وثغره باسم.

إذا زارَ سيفُ الدولةِ الرومَ غازِياً كفاها لمامٌ لو كَفاهُ لِمامُ[1]

يخاطب الشاعر الأمير سيف الدولة فيقول له: إنّ رسل ملك الروم تنام آمنة عندك بسبب إحسانك إليهم، أمّا الذين بعثوهم فلا يعرفون طعم النّوم خوفاً منك لأنّهم يحذرون ملكاً شديداً بأْسُه، قوياً جيشه، تتسابق فرسانه إلىٰ الحربِ طمعاً في الشهادة في سبيل الله.

تنامُ لدَيْكَ الرُّسْلُ أمْناً وَغِبْطَةً وأَجْفانُ ربّ الرُّسْلِ ليسَ تنامُ
حِذاراً لِمُعْرَوْري الجيادِ فُجاءَةً إلىٰ الطّعْنِ قُبْلاً ما لهُنَّ لِجامُ[2]

ثم يطلب من أميره قبول طلب الهدنة من الروم الذين ٱستجاروا به وجاؤوا إليه بذلّة، فاختيار العزيز للذل هو الذّل.

إذا خافَ مَلْكٌ من مَليكٍ أجرْتَهُ وسيْفَكَ خافُوا والجوارَ تُسامُ
لهم عنْكَ بالبيضِ الخِفافِ تفرُّقٌ وحوْلكَ بالكُتْبِ اللِّطافِ زِحامُ
تغُرُّ حلاواتُ النُّفوسِ قُلُوبها فتَخْتارُ بعض العَيْشِ وهو حِمامُ[3]

إنّ الرومَ جاؤوا إليك أيها الأمير من أجْلِ الهدنة، أي لتؤخرَ عنهم الحرب أياماً وهذا أكبر ذلّ وامتهانة لهم، لقد وافقتَ وأخرت الحربَ عنهم شفاعة فرسان طرطوس لهم، لقد قصدوك مستسلمين ولو لم يكونوا كذلك لجبنوا عنك ناكصين علىٰ أعقابهم.

---

(١) اللمام: الزيارة القصيرة. مادة (لمّ) مختار الصحاح ص٦٠.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٩٣.
(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٩٣-٣٩٤.
(٣) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٩٤-٣٩٥.

فلو كانَ صُلْحاً لمْ يكن بشفاعَةٍ ... ولكنَّه ذُلٌّ لَهُمْ وغَرَامُ[1]
ومَنْ لِفُرسانِ الثُّغُورِ عليهمُ ... بتبليغِهم ما لا يَكَادُ يُرامُ
كتائِبُ جاؤوا خاضعينَ فأقْدَمُوا ... ولو لَمْ يكونوا خاضعينَ لخَامُوا
وعزَّتْ قديماً في ذَراكَ خُيُولُهمْ ... وعزُّوا وعامَتْ في نداكَ وعامُوا[2]

لقد تعود الرّوم إحسانك أيّها الأمير، لذلك فإنّهم لمحبتك يصلّون عليك ويسلّمون، وإنْ كنتَ تغير عليهم تعجباً لحسن وجهك الميمون علىٰ الإسلام وأهله فالكرام يعتدون بأمثالك، وإنّك أيها الأمير إمام أهل المكرمات.

علىٰ وَجْهِكَ الميمونِ في كلِّ غارةٍ ... صلاةٌ تَوَالى منهُمُ وسلامُ[3]
وكلُّ أناسٍ يَتْبَعُون إمامَهُمْ ... وأنتَ لأهل المَكْرُمَاتِ إمامُ[4]

إذا عاد الروم الذين تركوا ديارهم خوفاً منك بالهدنة التي أجبتهم إليها، وعاودت أنت تلك الأرض بالغزو، فألفيت فيها جماعات تعمل سيوفك في رقابهم وتسبي من نسائهم قسماً آخر:

متىٰ عاود الجالون[5] عاودتَ أرْضَهُمْ ... وفيها رقابٌ للسُّيُوفِ وَهَامُ
ورَبُّوا لكَ الأولادَ حتّىٰ تُصيبَها ... وقد كَعَبَتْ بِنْتٌ وشَبَّ غُلامُ[6]
جرىٰ معك الجَارُون حتىٰ إذا انتَهَوْا ... إلىٰ الغاية القصوىٰ جَرَيْتَ وقامُوا[7]

---

(١) الغرام: الشر الدائم. مادة (غرم) مختار الصحاح. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.
(٢) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٩٥-٣٩٦.
(٣) الميمون: ذو اليمن والبركة.
الغارة: الحرب.
الصلاة: الرحمة:
السلام: البركة.
(٤) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٩٦.
(٥) الجالون: الذين أخرجوا من ديارهم. قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾.
(٦) الكاعب: التي قد بدأ ثدييها بالنهود. مادة (كعب) مختار الصحاح ص٢٧٢.
(٧) القصوىٰ: البعيدة.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٩٨.

حوادث عام ٣٤٥هـ:

خرج سيف الدولة للحرب، ووطأ من أرض الروم موطئاً لم يطأه المسلمون منذ ثلاثين عاماً[١]، غزا سيف الدولة «بطن هنزيط» وفتح «تل بطريق» علىٰ الفرات وهزم «ابن شمشقيق» وقتل «رومانوس بن البلنطس» صهر «ابن شمشقيق» ثم عاد إلىٰ حلب بعد رحلة مظفرة ناجحة محملاً بالغنائم والأسرىٰ من عظماء الروم وقادتهم مثل «الرست بن البلنطس» و«لاون بن الاسطر أطفيوس»[٢]، فيطرب المتنبي لذلك وينشد سيف الدولة عند منصرفه من بلاد الروم هذه القصيدة التي مطلعها:

الـرَّأْيُ قَبْـلَ شَجَـاعَـةِ الشُّجْعَـانِ هُـوَ أَوَّلٌ وَهْـيَ المَحَـلُّ الثَّـانـي[٣]

هذه القصيدة لا تقلُّ من حيث جَوْدة وصف المواقع ونعت الخيل عن أخواتها من شعر الشاعر، بل ربما زادت عليها في تعداد الصور والأهداف بالأفكار، حيث بدأها بالحكمة، ثم وصف الجياد علىٰ عادته، ثم وصف المعارك التي حدثت بين الجانبين، وزاد في هذه القصيدة وصف السفن، فضلاً عمّا أضفاه عليها من معانٍ رقيقة، وأوصاف بارعة تبلغ حد الإعجاز، بالإضافة إلىٰ قافية موسيقية استهل الشاعر قصيدته بذكر أبيات من الحكمة فضّل فيها العقل علىٰ الشجاعة والرأي علىٰ القوة فإن اجتمع لإنسان رأي سليم وقوة بدنية أمكن له أن يبلغ أسمىٰ المراتب وأرفع الدرجات، وألحّ الشاعر علىٰ تفضيل العقل الذي لولاه لكانت بعض الحيوانات القوية أكرم من الإنسان وأفضل منه.

الـرّأيُ قَبْـلَ شَجـاعَـةِ الشُّجْعـانِ هُـوَ أَوَّلٌ وَهْـيَ المَحَـلُّ الثـانـي
فـإذا هُمـا اجْتَمعـا لِنَفْـسٍ مِـرَّةٍ[٤] بَلَغَـتْ مِـن العَلْيـاء كـلَّ مكـانِ

---

(١) سامي الكيالي: سيف الدولة الحمداني وعصر الحمدانيين ص٥٨.

(٢) مصطفىٰ الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص٦٠٠.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٧٤.

(٤) النفس المرّة: القوية الشديدة، أي لا تقبل الضيم. قال تعالىٰ: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦].

ولـرُبّمـا طَعَـنَ الفَتـىٰ أقْـرانَـهُ بـالـرَّأْيِ قَبْـل تَطـاعُـنِ الأقْـرَانِ
لـولا العُقُـولُ لكـانَ أَدْنـىٰ ضَيْغَـمٍ أَدْنـىٰ إلـىٰ شَـرَفٍ مـن الإنسـانِ[1]

بعد ذلك انتقل الشاعر إلىٰ وصف خيل القتال، فذكر أنَّ الأمير قادها إلىٰ بلاد الأعداء التي صارت لها كالأوطان لكثرة ما تعوّدت التردد عليها، وأنها خيل جميلة المنظر، ملمّةٌ بآداب القتال، مدرّبة علىٰ خوض المعارك، تسير في ظلمة الغبار فتعرف طريقها وكأنها تبصر بآذانها لا بعيونها.

قـادَ الجيـادَ إلـىٰ الطّعـانِ ولـم يقُـدْ إلاّ إلـىٰ العَـادَاتِ والأَوْطَـانِ
كـلُّ ابـنِ سـابقـةٍ[2] يُغيـرُ بحُسْنِـهِ فـي قَلْـبِ صـاحِبِـهِ علـىٰ الأحْـزانِ
إنْ خُلِّيَـتْ رُبِطَـتْ بـآدابِ الـوَغـىٰ فَـدُعَـاؤُهـا يُغْنـي عـن الأرْسَـانِ[3]
فـي جَحْفَـلٍ سَتَـرَ العُيـونَ غُبـارُهُ فكـأنّمـا يُبْصِـرْنَ بـالآذانِ[4]

ثم مضىٰ الشاعر علىٰ رسله في إظهار براعة هذه الخيول السريعة غاية السرعة حتىٰ كأنها تكاد تصل بأيديها إلىٰ صميم بلاد الروم ولم تزل أرجلها في بلاد سيف الدولة، ثم وصف منظر الخيل وهي تعبر نهر «أرسناس» بالشام ذلك النهر الشديد البرودة الذي لا تهابه الخيل بل تقتحمه سابحات وعلىٰ ظهورها الأبطال المجاهدون وقد بدت عمائمهم منتشرة في الهواء وعلىٰ الماء لسرعتها الفائقة، كما وصف الخيل وهي تقفز من شدّة البرودة في أديم الماء الذي داعبه الريح، فجعله متكسراً كالمُدىٰ، فإذا ما خرجت منه بدت متقلصة كأنها خصيان فلا يفوت الشاعر أنْ يصف النهر بالبياض المفضض حين ذهاب الأمير وبالصفرة المحمرة حال عودته لكثرة ما اختلط به من دماء الأعداء الكفار.

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٧٤.
(٢) ابن سابقة: فرساً ولدته سابقة من كرام الخيل.
(٣) الوغىٰ: الحرب.
الأرسان: جمع رسن وهو ما يكون في رأس الدابة.
(٤) جحفل: جيش عظيم، مأخوذ من تجحفل القوم، اجتمعوا، ورجل جحفل: عظيم القدر.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٧٦.

فكـــأن أرجُلَهـــا بتُـــربـــةِ مَنْبِـــجٍ يَطْـرَحْـنَ أيـديَهـا بحِصْـنِ الـرَّانِ[1]
حتّـىٰ عَبَـرْنَ بـأرسنـاسَ[2] سَـوَابِحَـاً يَنْشُـرْنَ فيـه عمـائِـمَ الفُـرْسَـانِ
يَقْمُصْـنَ فـي مثـل المُـدىٰ مـن بـاردٍ يَـذَرُ الفحـولَ وهُـنَّ كـالخِصْيـانِ[3]
والمـاءُ بيـنَ عَجَـاجَتَيْـنِ مُخلِّـصٌ تَتَفـــرّقـــانِ بـــه وتَلْتَقِيَـــانِ
رَكَـضَ الأميـرُ وكـاللُّجَيْـنِ حَبَـابُـهُ وثَنـىٰ الأعنَّـةَ وَهْـوَ كـالعِقْيـانِ[4]

ويعرض الشاعر للسفن التي بناها الأمير سيف الدولة واستعملها في نقل الغنائم والسبايا ويشبهها بالخيل إلا أنها سوداء عقيمة لا قوائم لها تسير في بحر طالما ذاق متاعب الغزو والهزيمة من الأعداء، فأصبح يثني علىٰ سيف الدولة ويمجده لما ردّ له من كرامته وكرامة أهله.

فتَـلَ الحبَـالَ مـن الغـدائِـرِ فـوقَـهُ وبنـىٰ السَّفِيـنَ لَـهُ مِـنَ الصُّلْبـانِ[5]
وحَشَـاهُ عـادِيـةً بغَيْـرِ قـوائِـمٍ عُقْـمَ البُطُـونِ حَـوالِـكَ الألْـوَانِ[6]
تـأتـي بمـا سَبَـتِ الخيـولُ كـأنهـا تحـتَ الحسـانِ مـرابِـضُ الغِـزْلانِ

---

(١) منبج: بلدة في الشام من أعمال حلب.
حصن الران: من بلاد الروم.
(٢) أرسناس: نهر بالشام بارد الماء جداً.
(٣) يقمصن: يثبن، مادة (قمص) مختار الصحاح.
المدىٰ: جمع مدية وهي السكين.
خصيان: جمع خصىٰ من الخيل
(٤) اللجين: الفضة.
العقيان: الذهب.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٧٧-١٧٨.
(٥) الغدائر: جمع غديرة وهي الذؤابة من الشعر.
الصلبان: جمع صليب وهو الذي تعظمه النصارىٰ.
(٦) العقيم: الذي لا يلد. مادة (عقم).
الحوالك: جمع حالكة وهي السوداء. مادة (حلك).

بَحْـــرٌ تعَـــوّد أن يُـــذِمَّ لأهْلِـــهِ مِـــنْ دَهْـــرِهِ وطـــوارِقِ الحِـــدْثـــانِ
فتـــركْتَـــهُ وإذا أذَمَّ مـــن الـــوَرىٰ راعـــاكَ واستثنـــىٰ بَنـــي حَمْـــدانِ[1]

ولأول مرة يصف المتنبي سيف الدولة وبني حمدان بالصَّعلكة وهو وصف فيه جدّة وجرأة لأن الصعاليك كما هو معروف كانوا من فتيان العرب وشجعانهم الذين اشتهروا بالفروسية وسرعة العدو، وكانوا يغيرون علىٰ القبائل الغنية فيغنمون ويسلبون، ولكنهم لا يحتفظون لأنفسهم إلا بالقليل ويوزّعون الباقي علىٰ الفقراء من العرب، والمتنبي حين وصف بني حمدان بالصّعلكة إنّما استعار لهم شجاعة الصعاليك، وما امتازوا به من صفات البطولة دون السلب والنهب، فإن سلبوا ونهبوا فإنما يسلبون الأعداء وينهبون الروم، وهم لشدّة صعلكتهم لا يكادون يتركون ظهور جيادهم إلا لكي يتقيّلوا في ظلالها ثم لا يلبثوا أن يمتطوا صهوان جيادهم فتعدو بهم عدو النعام وتجري بهم جري الذئاب.

المُخْفـــريـــنَ بكُـــلِّ أَبْيَـــضَ صـــارِمٍ ذِمـــمَ الـــدُّرُوعِ علـــىٰ ذوي التِّيجـــانِ
مُتَصَعْلكيـــنَ علـــىٰ كثـــافـــةِ مُلْكِهـــمْ مُتـــواضعيـــنَ علـــىٰ عَظيـــمِ الشّـــانِ
يتقيّلُـــونَ ظِـــلالَ كـــلّ مُطَهَّـــمٍ أَجَـلِ الظَّليـمِ ورِبْقَـة السِّـرْحـانِ[2]

لقد ذلت لسيفك كل السيوف وأذلّ دينك كل دين.

خَضَعَـتْ لِمُنْصُلِـكَ المنـاصِـلُ عنـوةً وأَذَلَّ دينُـــكَ ســـائِـــرَ الأَدْيَـــانِ[3]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ١٧٨-١٧٩.

(٢) المطهم: الفرس التام كل شيء منه علىٰ حدته، أي بارع الجمال.
الظليم: ذكر النعام.
السرحان: الذئب.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٧٩.

(٣) المنصل: السيف.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٨٠.

ويمضي الشاعر في وصف المسلمين علىٰ خيولهم وفي مقدمتهم الأمير المجاهد سيف الدولة كأنّهم العقبان يضربون أعداءهم بقوة وعنف فتتساقط الرؤوس، وتنثني الهامات من شدة الضرب الذي ينزل عليهم كأنه المطر.

نَظَرُوا إلىٰ زُبَرِ[1] الحديدِ كأنَّما ... يصْعَدْنَ بينَ مناكِبِ العِقْبانِ
وفوارسٍ يُحْيي الحِمامُ نُفُوسَها ... فكأنَّها ليْسَتْ مِنَ الحيَوانِ
ما زِلْتَ تضربُهُمْ دراكاً في الذُّرىٰ[2] ... ضَرْباً كأنَّ السَّيْفَ فيه أثنانِ
خَصَّ الجَمَاجِمَ والوُجُوهَ كأنّما ... جاءتْ إليكَ جسومُهُم بأَمانِ
فرَمَوْا ما يَرْمونَ عَنْه وأدبَروا ... يطؤونَ كلَّ حَنِيَّةٍ[3] مِرْنانِ
يَغْشَاهُمُ مطرُ السّحاب مُفَصَّلاً ... بِمُثَقَّفٍ ومُهَنَّدٍ وسِنَانِ[4]
حُرِموا الذي أمَلوا وأدْرَكَ منهمُ ... آمالَهُ مَنْ عاذَ بالحِرْمانِ[5]

ثم يصف الشاعر الروم بالجبن والخور وعدم إجادة الضرب حتىٰ سالت دماؤهم علىٰ أوراق الشجر التي يشبهها الشاعر بثمر النارنج:

وجرىٰ علىٰ الوَرَقِ النّجيعُ القاني ... فكأنَّهُ النارَنْجُ في الأغْصَانِ
إن السّيوفَ مع الذينَ قلوبُهُمْ ... كقُلوبِهِنَّ إذا التقىٰ الجَمْعَانِ
نَلْقىٰ الحُسامَ علىٰ جَراءَةِ حدّهِ ... مِثْلَ الجَبانِ بكَفِّ كُلّ جَبانِ[6]

هكذا انتهىٰ المتنبي من هذه الملحمة وقد لمسنا ذلك الوصف البارع لحرب سيف الدولة مع الروم بما فيه من دقّة وبراعة حيث ينقل المعركة بكل ما فيها من

---

(١) الزبر: جمع زبرة وهي القطعة من الحديد.
(٢) الذرىٰ: المكان المرتفع.
(٣) الحنية: القوس.
(٤) المثقف: الرمح.
المهند: السيف.
(٥) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٨١-١٨٢.
(٦) المصدر نفسه جـ٤ ص١٨٤.

شدّة وعنف ودماء وتقتيل، ونصر وهزيمة، وفَرٌّ وَكرٌّ، ينقل كل ذلك تحت نظر القارىء حتىٰ يظن نفسه مشتركاً فيها أو علىٰ الأقل مشاهداً لها من مكان أمين.

حوادث عام ٣٤٥هـ «معركة الدرب»[١]:

لئن كانت معركة «الدرب» هي آخر معركة وصفها المتنبي لسيف الدولة مع الروم وكانت قصيدته هي آخر قصيدة في سيف الدولة قبل رحيل الشاعر من حلب، فقد وفّر الدهر علىٰ أبي الطيب كبرىٰ حوادثه، وأفدح خطوبه، إذ نجىٰ عينيه أن تشهدا انكسار الأمير ودوران الدائرة عليه وعلىٰ جيوشه.

توغل الأمير سيف الدولة في الأراضي البيزنطية في هذه السنة ٣٤٥هـ في جُمادىٰ الآخرة مع أهل الثغور، فوصل إلىٰ «خرشنة» و«صارخة» وفتح عدة حصون وأسر وأحرق، وأكثر القتل، ورجع إلىٰ «أذنة»[٢] وأقام فيها فجاءه والي طرسوس فخلع عليه وأكرمه وعاد إلىٰ حلب.

وسبب هذه القصيدة تحدث بحضرة سيف الدولة أنّ البطريق أقسم عند ملكه أنه يعارض سيف الدولة في الدرب، وسأله أنْ ينجده ببطارقته وعَدده وعُدده وفعل فخاب ظنه.

بدأ الشاعر القصيدة بالحكمة فلام من يقسم لعقبىٰ الحرب لأن عقباها مجهولة.

عُقْبىٰ اليَمينِ علىٰ عُقْبىٰ الوغَىٰ نَدَمُ ماذا يزيدُكَ في إقْدامِكَ القَسَمُ[٣]

يذكر المتنبي البطريق الذي أحنث يمينه لسيف الدولة، فقال وقد صغّر اسمه هواناً فجعله شميشق.

---

(١) زكي المحاسني: شعر الحرب في أدب العرب ص٢٩٣.
سامي الكيالي: سيف الدولة الحمداني وعصر الحمدانيين ص٢٢٦.
أحمد صالح فاعور: الدولة الحمدانية في حلب ص١٧٨.

(٢) أذنة: مدينة تقع غربي نهر سيحان خصبة عامرة.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٥.

اَلَ الفَتـىٰ ابـنُ شُمْشُقيـقٍ فـأحنَثَـهُ فتىٰ من الضَرْبِ تُنْسىٰ عندَهُ الكَلِمُ[1]

ثم أخذ الشاعر يصف جيش الأمير في هبوبه إلىٰ هذه الحرب حيث افتتحت «سروج» عند الصباح وكذلك «حرّان» وكان جيش سيف الدولة يطاول الأرض بطوله وجسامته، وكان الجيش مزوداً بخيول ضوامر، وبفرسان أبطال، وقد وردت هذه الخيول بفرسانها «بحيرة سمنين» واستولت عليها.

فلـمْ تُتِـمَّ سَـروجٌ فَتْـحَ نـاظـرِهـا إلاّ وجيْشُـكَ فـي جَفْنَيْـهِ مُـزْدَحِـمُ[2]
والنّقْـعُ يـأْخُـذُ حـرَّانـاً وبَقْعَتهـا والشَّمْـسُ تُسْفِـرُ أحيـانـاً تَلْتَثِـمُ[3]
سُحْـبٌ تمـرُّ بحِصْـنِ الـرّانِ مُمْسِكـةً ومـا بهـا البُخْـلُ لـولا أنّهـا نِقَـمُ
جيـشٌ كـأنّـك فـي أرْضٍ تُطـاوِلُـهُ فـالأرضُ لا أُمَـمٌ والجَيْـشُ لا أُمَـمُ
وشُـزَّبٌ أحْمَـتِ الشِّعـرىٰ شكـائِمَهـا ووسَّمَتْهـا علـىٰ أنـافِهـا الحَكـمُ[4]
حتـىٰ وَرَدْنَ بِسِمْنيـنٍ بُحَيْـرَتَهـا تنشُّ بالماء في أشراقِها اللُّجُمُ[5]
وأصْبَحَـتْ بِقُـرَىٰ هِنْـزيـطَ جـائلـةً تَرعىٰ الظُّبا في خَصيبٍ نبْتُه اللِّمَمُ[6]

أغذّت الجيوش الإسلامية سيرها حتىٰ جاوزت نهر أرسناس، فأمرَ سيف الدولة جيشه أنْ يخوضَ النهر، وبالمَنْظَرِ الموج وهو ينكشف عن صدور الخيل فيجفل

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٥.

(٢) سروج: موضع بالقرب من الفرات.

(٣) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٨.

(٤) شزب: الفرس الضامر.
الشعرىٰ: نجم يطلع في فصل الصيف وفيه يكون شدة الحر.
الشكائم: جمع شكيمة وهي رأس اللجام.
الحكم: جمع حكمة وهو ما علىٰ أنف الفرس.

(٥) النش: صوت الماء. مادة (نشّ).
اللجم: جمع لجام وهو الحديدة التي توضع في شدق الدابة. مادة (لجم) مختار الصحاح ص٥٩٣.

(٦) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص١٨-٢٠.

منها وهي لا تجفل منه، لقد كان سيف الدولة أول الخائضينَ في نهر «أرسناس» يعبر بالجيش إلىٰ بلد مقدور عليه الحريق، وقتل أهل البلد فصاروا عظاماً بالية.

وجاوَزُوا أرْسَناساً مُعْصِمينَ به ... وكيفَ يعْصِمُهُمْ ما لَيْسَ ينْعَصِمُ
ولا تصدُّكَ عن بحْرٍ لهمْ سَعَةٌ ... ولا يرُدّكَ عن طَوْدٍ لهمْ شَمَمُ[1]
ضَرَبْتَهُ بصدورِ الخيلِ حاملةً ... قَوْماً إذا تَلفوا قُدْما فقد سَلِموا
تَجَفَّلَ الموجُ عنْ لَبّاتِ خَيْلهمِ ... كما تجفَّلُ تحت الغارَةِ النَّعَمُ
عبرْتَ تقدُمُهُمْ فيه وفي بَلَدٍ ... سُكانُه رِمَمٌ مسكونُها حُمَمُ[2]

ثم يعرض لنا صورة فنية من معانيه الحماسية فيجعل السيوف في أكف الحمدانيين ناراً عبدت قبل أنْ يكون المجوس وما زالت إلىٰ اليوم في اضطرام، أي إنّ عمر السيوف وتاريخها في دهر الحروب يعبدها الأبطال كما يعبد النار المجوس. وأنّ هذه السيوف من صغرته صغُر، ومن عظمته عظم، إن السيوفَ قتلت الأبطال وأخذتَ أنت النساء والصبيان سبياً.

وفي أكُفِّهِمُ النارُ التي عُبِدَتْ ... قُبَيْلَ المجوسِ إلىٰ ذا اليومِ تَضْطرِمُ
هِنْديَّةٌ إنْ تُصَغِّرْ مَعْشَراً صغُروا ... بحدّها أو تُعَظِّمُ معشراً عظُمُوا
قاسَمْتَها تَلَّ بِطْريقٍ فكان لها ... أبطالُها ولكَ الأطفالُ والحُرَمُ[3]

ثم يسري خياله إلىٰ وصف الجياد، ووصف السفن التي أعدها سيف الدولة ليمض عليها بعض الجنود، فيقول إنها سفنٌ أعدّها مهندسون حربيون بأرض الروم حين دعت إليها الحاجة فجأة فكانت من نتاج رأيه، فحملت الفرسان في بطونها لا علىٰ ظهورها.

---

(١) الطود: الجبل.
شمم: العلو.
(٢) الرمم: العظام البالية.
العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٢١.
(٣) المصدر نفسه جـ٤ ص٢٢.

دُهْمٌ فوارِسُها رُكابُ أبْطِنُها مكدودةٌ وبقَوْمٍ لا بها الألَمُ
مِنَ الجيادِ التي كِدْتَ العُدُوَّ بها وما لها خِلَقٌ مِنْها ولا شِيَمُ
نِتَاجُ رأْيكِ في وَقْتٍ علىٰ عَجَلٍ كَلَفْظِ حَرْفٍ وعاهُ سامِعُ فَهِمُ[1]

دارت رحىٰ المعركة فوق الدّرب فصمد الروم لسيف الدولة أجسام بلا أرواح إذ جعل الشاعر تلك الأجسام الرومية هي التي تثبت في المعركة أي ثبتت طريحة علىٰ الأرض بلا أرواح.

وقَدْ تَمَنَّوْا غداةَ الدّرْبِ في لجَبٍ أنْ يُبْصروكَ فلمّا أَبْصَروكَ عَمُوا
صَدَمْتَهُمْ بخميسٍ أنْتَ غُرَّتُهُ وسَمْهَرِيَّتُهُ في وجهِهِ غَمَمُ
فكان أثْبَتَ ما فيهم جُسُومُهُمُ يسقُطْنَ حولَكَ والأرواحُ تَنْهَزِمُ[2]

وويل «ابن شمشقيق» من تهكّم المتنبي، فقد تصوّر أبو الطيب أنّ ابن شمشقيق ٱعتذر عن يمينه التي حَلَفَها فسألها أن تسمح له فينثني عن الحرب وقد انثنىٰ، فنكص وهرَب، فراحت يمينه تبتسم استهزاء منه وهو يفرّ، وكلما أمعن بالفرار أمعنت يمينه بالابتسام.

وأَسْلَمَ ابنُ شُمْشُقيقٍ أَلِيَّتَهُ إلاّ انثنىٰ فهْوَ ينْأَىٰ وهيَ تَبْتَسِمُ
لا يأمُلُ النَّفْسَ الأقصىٰ لِمُهْجَتِهِ فيسرقُ النَّفْسَ الأدْنىٰ ويَغْتَنِمُ
تردُّ عنه قنا الفُرسانِ سابغَةٌ صوْبُ الأسِنَّةِ في أثنائِها دِيَمُ[3]

وغاب الفتىٰ البطريق قائد الروم ممعناً في هربه بين الأدغال والأجسام ولولا ذلك لقُتِلَ وألقي للطير ليأكله، ثم دعا الشاعر علىٰ الشجر الذي أخفىٰ ذلك البطريق بأن لا يسقي الماء.

فلا سقىٰ الغَيْثُ ما وراهُ من شَجَرٍ لو زَلَّ عَنْهُ لوارىٰ شخصَهُ الرَّخَمُ[4]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٢٣.
(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص٢٣-٢٤.
(٣) المصدر نفسه جـ٤ ص٢٤-٢٥.
(٤) المصدر نفسه جـ٤ ص٢٥.

وأخيراً قفل سيف الدولة إلىٰ موطنه واندفع الناس يغنون ويطربون فرحاً بهذا الظفر العظيم، ودخل سيف الدولة حلب علىٰ جواده الجبار مردداً شكره لله وبيده سيفه (ذو شطب):

مُقَلِّـداً فَـوقَ شُكْـرِ الله ذا شُطَـبٍ لا تُسْتَـدامُ بـأمضـىٰ منهـا النِّعَـمُ[1]

ووسم المتنبي الروم ميسماً لا يبلىٰ علىٰ الزمان حيث يقول: لكثرة ما قتلت منهم أطاعوك ولم يخالفوك، إنّهم يطيعونك بغير قتل، إنّك أيّها الأمير تفنيهم بالقتل، فما تترك منهم أحداً حتىٰ يموت حتْفَ أنفه ولا تدعه حتىٰ يكبر فيهرم:

ألْقَـتْ إلَيْـكَ دمـاءُ الـرّوم طـاعتَهـا فلـوْ دعَـوْتَ بـلا ضَـرْبٍ أجـابَ دَمُ
يسـابِـقُ القَتْـلُ فيهـم كـلّ حـادثـةٍ فمـا يُصيبهُـمُ مـوْتٌ ولا هَـرَمُ[2]

وأخيراً يمدح الأمير بقوله: إنّ سيفَ الدولةِ يهدي إلىٰ دينِ الله:

القائِمُ المَلِكُ الهادي الذي شَهِدَتْ قيـامَـهُ وهـداهُ العُـرْبُ والعَجَـمُ

بعث الأمير سيف الدولة رسالة إلىٰ أبي الطيب الشاعر يطلب منه أن يعود إليه فقال الشاعر:

فَهِمْـتُ الكتـابَ أَبَـرَّ الكُتُـبْ فسمْعـاً لأمْـرِ أميـرِ العَـربْ[3]

يصف الشاعر المتنبي الأمير سيف الدولة بأنه سيف الله لا سيف الناس:

أيـا سَيْـفَ ربِّـك لا خَلْقِـه ويـا ذا المكـارِمِ لا ذا الشُّطَـبْ[4]

ثم يتطرق إلىٰ الروم فيقول إنّما جاءهم العدو لأن الأعداء أرجفوا أنك مريض:

وغـرَّ الـدُّمُسْتـقَ قـولُ العُـدا ةِ إنَّ عليّـا ثَقيـلٌ وَصِـبْ[5]

---

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٤ ص٢٥.
(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص٢٦.
(٣) المصدر نفسه جـ١ ص٩٦.
(٤) المصدر نفسه جـ١ ص١٠٠.
(٥) المصدر نفسه جـ١ ص١٠١.

ثم يقول وبالرغم من مرضك فإنّك تقود الجيوش:

وقـــد عَلِمَـــتْ خيلُـــهُ أنَّـــهُ إذا هَـــمَّ وهْـــوَ عليـــلٌ رَكِـــبْ[1]

ثم يصف جيش الروم وكثرته الذي جاء من أجل حرب الأمير:

أتـــاهُـــمْ بـــأوْسَـــعَ مِـــنْ أرْضِهِـــمْ طـــوالَ السَّبيـــبِ قِصـــارِ العُسُـــبْ
تغيـــبُ الشّـــواهِـــقُ فـــي جيْشِـــه وتَبْـــدو صِغـــاراً إذا لـــمْ تَغِـــبْ
ولا تعبُـــرُ الـــرّيـــحُ فـــي جَـــوِّهِ إذا لـــم تَخَـــطَّ القَنـــا أوْ تَثِـــبْ
فَغَـــرَّقَ مُـــدْنَهُـــمُ بـــالجيـــوشِ وأخْفَـــتَ أصـــواتَهُـــمْ بـــاللَّجَـــبْ
فـــأخْبِـــثْ بـــه طـــالبـــاً قَهْـــرَهُـــمْ وأخْبِـــثْ بـــه تـــاركـــاً مـــا طَلَـــبْ
نـــأَيْـــتَ فقـــاتَلَهُـــمْ بـــاللِّقـــاءِ وجِئْـــتَ فقـــاتَلَهُـــمْ بـــالهَـــرَبْ[2]

ثم يقول إنّ أهل الثغور خرّوا سجّداً لله عندما أنجدتهم ولو لم تأتِ لنجدتهم لسجدوا للصليب، كم طردت ومنعت عنهم الهلاك لمن بغىٰ عليهم فأهلكته.

فخـــرّوا لِخـــالِقِهـــم سُجَّـــداً ولَـوْ لَـمْ تُغِـثْ سجدوا للصُّلُـبْ[3]

ثم يركز المتنبي علىٰ ضرورة الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله وإذلال كلمة الشرك وتذكير المسلمينَ ليقوموا بواجباتهم الدينية والسياسية والعسكرية فيقول:

أرىٰ المُسْلِميـــنَ مَـــعَ المُشْـــرِكيـ ـيـــنَ إمّـــا لِعَجْـــزٍ وإمّـــا رَهَـــبْ
وأنْـــتَ مَـــعَ الله فِـــي جـــانِـــبٍ قليـــلُ الـــرُّقـــادِ كثيـــرُ التَّعَـــبْ
كـــأنّـــكَ وحـــدَكَ وحّـــدْتَـــهُ ودانَ البـــريَّـــةُ بـــابْـــنٍ وأبْ[4]

❊ ❊ ❊

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ١ ص١٠١.
(٢) المصدر نفسه جـ١ ص١٠١-١٠٢.
(٣) المصدر نفسه جـ١ ص١٠٣.
(٤) المصدر نفسه جـ١ ص١٠٤.

هل كانت الحروب الحمدانية البيزنطية حروباً صليبية؟

تعارفَ المؤرخونَ علىٰ أنَّ بداية الحروب الصليبية كانت سنة ثمان وثمانين وأربعمائة هجرية (١٠٩٥م) ولم تظهر هذه التسمية إلاّ في العصور الوسطىٰ مقترنة بظهور القوىٰ الصليبية الوافدة علىٰ بلاد الشام والتي اتخذت شارة الصليب علامة مميزة لها.

والحقيقة أنّ الصراع بين الديانتين الإسلامية والنصرانية بدأ قبل هذا الزمن بفترة طويلة، عندما بدأ المسلمون فتح بلاد الروم في عصر صدر الإسلام، لذلك لا ينبغي أن نمرَ علىٰ الحرب التي كانت مشتعلة بين الدولة الحمدانية في زمن الأمير سيف الدولة والدولة البيزنطية دون أن نقف قليلاً نتأمل تلك الهجمات المتوالية التي كان البيزنطيون يشنونها علىٰ الثغور الإسلامية بين حين وآخر، تلك التحرشات التي كان قادة الروم يقومون بها علىٰ أهالي الثغور من المسلمين، وعلينا أن نسائل أنفسنا عمّا إذا كانت تلك الحروب الكثيرة حروباً صليبية مبكرة أو لا؟

إنّ الحملاتِ التي كان يقومُ بها سيف الدولة الحمداني كانت حروباً وقائية فكثيراً ما كان يذهبُ إلىٰ الثغور الإسلامية ليجدد أسوارها ويعلي حصونها، فتتعرض له جيوش البيزنطيين، وحينئذ يضطر إلىٰ خوض غمار معركة حامية مع البيزنطيين، حتىٰ أصبح من عادة هذا الأمير أنْ يغزوَ في الربيع والصيف كما كان يفعل أسلافه من قادة المسلمين، ولكن هناك قرائن تاريخية تشير إلىٰ أنَّ تلك الحروب التي كان البيزنطيون يقومون بها ضد المسلمين كانت صليبية اللون والهدف والمقصد.

يقول مصطفىٰ الشكعة[1]: «يذهب بعض المؤرخين إلىٰ أن يوحنا تزمسكيس هو أول من فكّر في مشروع الحروب الصليبية حين فكر في استرجاع بيت المقدس

---

(١) مصطفىٰ الشكعة: سيف الدولة الحمداني ص١٤٠-١٤١.

من المسلمين في زحفه علىٰ بلاد الشام سنة ٣٦٤هـ، ١٩٧٤م وبذلك يكون قد سيق إلىٰ فكرة الحرب الصليبية بوقت طويل، ولكن الواقع أنَّ القائد البيزنطي «نقفور فوكاس» الذي كان نِدّاً لسيف الدولة والذي سَبَقَ تومسكيس ببضعة عشر عاماً يُعدّ أول من تبنّىٰ الحرب الصليبية ونفذها بحيث سيطرت علىٰ كل تفكيره في كل غزوة شنها ضد المسلمين.

وقد أخذ هذا القائد يمهّد لفكرته الصليبية في القسطنطينية نفسها حين كان يظهرُ في أعياد الفسح مرتدياً ملابس غريبة مذهبة، منتعلاً نعلاً مذهباً تشبيهاً بالسيد المسيح.

لقد كان هذا القائد يحشد في مقدمة جيشه البطارقة والقساوسة، ويأمر الجنود بحمل الصلبان الكبيرة بحيث يعطي الحرب صبغة مقدسة وذلك كلما خرج لحرب الحمدانيين.

وكان يؤلف جيوشه من طبقات النصارىٰ المختلفة من روم وروس وبلغار وصقلب وأرمن، وخزر، تماماً كالجيوش الصليبية في هجماتها المعروفة فلم يكن يجمع بين الجنود من لغة أو جنس أو عادات اللهم إلاّ هدف الانتصار علىٰ المسلمين والاستيلاء علىٰ بيت المقدس وهذا ما فعله في معركة الحدث سنة ٣٤٣هـ، حيث صطحب معه «تودس الأعظم» صهر الدمستق وكان يتقدمهم الصليب.

وقد وصف شاعرنا المتنبي هذه الجيوش علىٰ اختلاف أجناسها بقوله:

أَتَوْكَ يَجُرُّونَ الحَدِيدَ كأنّهُمْ ... سَرَوْا بجِيَادٍ ما لَهُنَّ قوائِمُ
إذا برَقُوا لم تعرفِ البيضُ منْهُمُ ... ثيابُهُمُ مِنْ مِثْلِها والعمائِمُ
خميسٌ بشَرقِ الأرضِ والغَربِ زَحْفُهُ ... وفي أُذُنِ الجَوْزاءِ منه زَمازِمُ
تجَمّعَ فيه كُلُّ لِسْنٍ وأمَّةٍ ... فما تُفْهِمُ الحُدَّاثَ إلا التراجِمُ[1]

(١) العكبري: التبيان في شرح الديوان جـ٣ ص٣٨٤-٣٨٥.

وليس هناك من شيء أدل علىٰ أنّ الحربَ التي كان يقوم بها «نقفور فوكاس» حرباً صليبية من عمله حين استولىٰ علىٰ طرسوس فخرب المسجد وأرغمَ المسلمين علىٰ التّنصر ثم صعد المنبر وقال لمن حوله: أين أنا؟ قالوا: علىٰ طرسوس، قال: لا، ولكنني علىٰ مِنْبر بيتِ المقدس وقد كشف «نقفور فوكاس» عن نواياه حين وجه خطابه إلىٰ أهل القرىٰ المسلمين بعد عودته من الهجوم علىٰ حلب قائلا: ازرعوا فهذا بلدنا وبعد قليل نعود إليكم.

ففكرة الحروب الصليبية كانت الرائد الجوهري لحملات «نقفور فوكاس» واحتواء جيشه علىٰ تلك الأجناس المختلفة وإفْصاحه عن غايته مِنْ تلكَ الحروب كاسترداد بيتِ المقدس، كل ذلك كان دافعاً للمسلمين إلىٰ أنْ ينتبهوا إلىٰ هذا الخطر الذي يهدد ديارهم، ولذلك بدأت النجدات والإمدادات من مال ورجال تتواكب علىٰ حلب من الأمصار الإسلامية، فلقد سمعوا ما فعله فوكاس بإخوانهم من طرسوس والمصيصة وما أعمل في بلاد المسلمين من قتل وتخريب وإخراجهم من دينهم وتحويلهم إلىٰ النصرانية ونهب المساجد وحرق المنابر، كل ذلك نبه المسلمين، فتوافدت آلاف من الجنود المسلمين من شرق الدولة الإسلامية مجهزين بسلاحهم وانضموا إلىٰ سيف الدولة وبدأوا يندفعون إلىٰ الثغور الإسلامية لتحريرها والانطلاق خلف البيزنطيين للثأر.

كانت الجيوش الإسلامية قبل أنْ تنطلقَ إلىٰ الأراضي البيزنطية تتزود بالخطب والقصائد التي تحثّهم علىٰ الجهاد والاستماتة في سبيل الله، فإمّا نصرٌ وإما شهادة وجنات تجري من تحتها الأنهار، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

علىٰ هذا النهج من الحرب سار نقفور فوكاس ومن أتىٰ من بعده من أباطرة البيزنطيين وعلىٰ هذا النهج من الدفاع والإحساس بالخطر خاضت الجيوش الإسلامية المعارك ضد عقيدة التثليث.

وعلىٰ هذا الأساس يمكن أنْ يقال إنّ حرب البيزنطيين لسيف الدولة كانت حروباً صليبية صريحة مبكرة، وقد استمر الصراع بين الإسلام والنصرانية حتىٰ العصر الحاضر متخذاً أشكالاً عديدة من أبرزها التبشير، وأول من بدأ التبشير في البلاد الإسلامية «ريمون لول» وذلك يعد فشل الحروب الصليبية فتعلم هذا المبشر اللغة العربية وطاف في البلاد العربية الإسلامية وناقش علماء المسلمين في كثير من المسائل»[1].

❊ ❊ ❊

(١) الغارة علىٰ العالم الإسلامي: محب الدين الخطيب ص٢٩.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الخاتمة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الخاتمة

تحدثت في هذا البحث «الشخصية الإسلامية في شعر المتنبي» عن الصراع بين المسلمين والروم البيزنطيين في القرن الرابع الهجري، ودور الدولة الحمدانية في هذا الصراع لا سيّما زمن الأمير سيف الدولة الذي أخذ علىٰ عاتقه مقارعة الروم، فقد خاض حوالي أربعين غزوة مع الروم كانت أغلبها له وأقلّها عليه.

ثم تحدثت عن الشاعر المتنبي الذي عاش في كنف الأمير سيف الدولة منذ عام ٣٣٧-٣٤٥هـ وعن ثقافة هذا الشاعر، حيث كان مثقفاً ثقافة عربية إسلامية واسعة، فالشاعر كان واسع الاطلاع، وكان إماماً من أئمة العربية، فقد حذق العربية شعراً ولغة وإعراباً، وقد كان ملازماً لدكاكين الوراقين، وهذه الملازمة هيأت له سبيل الاتصال بكثير من المثقفين، كما أن الشاعر اتصل بكثير من العلماء كأبي علي الفارسي، وابن خالويه، وابن جني، وابن دريد وغيرهم، وقد طلب العلم وعلم العربية ونظر في أيام الناس، وتعاطىٰ قول الشعر منذ حداثته حتىٰ بلغ فيه الغاية التي فاق فيها أهل عصره، وعلا شعراء وقته، كان لا يسأل عن شيء إلا استشهد بكلام العرب من النظم والنثر حتىٰ قيل إن أبا علي الفارسي قال له يوماً: كم لنا من الجموع علىٰ وزن فِعلىٰ؟ فقال له في الحال: حِجلىٰ وظِربىٰ.

قال الشيخ أبو علي: «طالعت كتب اللغة ثلاث ليال علىٰ أن أجد لها ثالثاً فلم أجد.

ثم تحدثت عن اتهام أبي الطيب بالتنبؤ وقسمت الذين اتهموه إلىٰ:

أولاً: موقف القدماء: وقسمت موقف القدماء إلىٰ ثلاث فئات:

الفئة الأولىٰ: هذه الفئة قبلت ادّعاء النبوة، ومن أعلام هذه الفئة البغدادي، وابن خَلِّكان، والبديعي.

الفئة الثانية: وهذه الفئة متحفّظة، ومن أعلامها الثعالبي.

الفئة الثالثة: وهذه الفئة أنكرت التنبؤ، ومن أعلامها أبو العلاء.

ثانياً: ثم أخذت موقف المحدثين وقسمته إلىٰ ثلاث فئات:

الفئة الأولىٰ: وهذه الفئة قبلت ادّعاء النّبوّة، ومن أعلامها الأفغاني.

الفئة الثانيـة: وهذه الفئة فئة متحفّظة، ومن أعلامها العقاد.

الفئة الثالثـة: وهذه الفئة أنكرت ادّعاء المتنبي للنّبوّة، ومن أعلامها طه حسين، محمود شاكر، محمد عبد الرحمٰن شعيب، هادي نهر.

ثالثاً: موقف المستشرقين: رفضوا اتهام المتنبي بالنبوة ونسبوه إلىٰ القرامطة.

وقد توصلت إلىٰ أنّ المتنبي لم يدَّع النبوة وإنّما طالب بحقه في العلوية فسُجِنَ وكان من وراءِ سِجْنه الحاقدون والحاسدون له والفاطميون والتنوخيون وأنّ الذي ادّعىٰ النّبوّةَ هو أحمد الأصبهاني الذي عاش في العصر نفسه الذي عاش فيه الشاعر.

ثم تطرقت في الحديث عن القرامطة وهي فئة تنتسب إلىٰ حمدان قرمط عقيدتها فاسدة تُؤله العقل، وهدفها تخريب الإسلام، وشعارها القتل وسفك الدماء وقد أباحت المحرّمات، وقد نسب المستشرقونَ إلىٰ المتنبي الاتصال بهذه الفرقة، وأول من أحدث هذا الرأي (القرامطة) بلاشير، وقيّدَ قوله في دائرة المعارف الإسلامية، ثم في كتابه عن أبي الطيب، كما أنّ ماسينيون ألّفَ في مؤتمر المستشرقين الأخير الذي عقد في رومية بحثاً ادّعىٰ فيه أنّ أبا الطيب كان قرمطياً وقد تلقف هذا النبأ طه حسين وأثبت ذلك في كتابه مع المتنبي، وقد بينت أنّ الشاعر بريءٌ من كل ما اتهم به للأسباب التالية:

١ ـ أنّ أبا الطيب كان يكره سيادة العبيد والخدم، وهؤلاء استعان بهم القرامطة وجذبوهم إليهم.

٢ ـ أن أبا الطيب كان يحتقر النبط، والقرامطة نَمَتْ بين النِّبْط.

٣ ـ أن الشاعر لم يثبت أنّه مدح قرمطياً واحداً، ولم تؤثر عنه علاقة أو اتصال بهم وأنّ أبا الفضل لم يكن قرمطياً وإنّما كان من المتفلسفة، كما أنّ الشاعر حارب القرامطة حين هجومهم علىٰ الكوفة، كما أن الشاعر لم يثبت أنه حض علىٰ الانتساب إلىٰ مذهبهم.

٤ ـ لم يشع في أيّ مرجع قديم ما يشير إلىٰ هذه التهمة ولو شاع لتلقفه حساد المتنبي القدماء.

٥ ـ ألحّ علىٰ الأمير سيف الدولة من أجْل القضاء عليهم.

٦ ـ أن الشاعر كان عربياً صحيح النسب يعتز بعروبته علىٰ حين كان للأعاجم دور كبير في توجيه القرامطة من أجْل القضاء علىٰ الإسلام حتىٰ إنّ أبا طاهر الجنابي زعيم القرامطة سمىٰ ابنه «سابور» علىٰ اسم ملك الفرس كناية عن العمل لإعادة سلطانهم الغابر.

ثم عرجت إلىٰ علاقة سيف الدولة بالشاعر منذ عام ٣٢١هـ عندما مدحه بقصيدة لما كان في «رأس عين» وتحدثت عن التقائهما بأنطاكية سنة ٣٣٧هـ عند أبي العشائر، وعن المدة التي قضاها المتنبي في كنف الأمير ٣٣٧-٣٤٥هـ، وعن القصائد التي قالها في مدح الأمير والتي تعادل ثلث شعر الشاعر وهي أفضل ما قاله الشاعر من الشعر، وتحدثت عن اشتراك الشاعر في ساحة القتال مع الأمير وحلّلت القصائد الجهادية التي قالها الشاعر في مدح الأمير والتي فيها كان يحثّ علىٰ قتال الكفار الروم من أجل إعلاء كلمة الله.

بعد ذلك عرجت علىٰ عقيدة الشاعر، وأثبتُّ أنَّ الشاعر كان مسلماً مؤمناً لم يتهم بإلحاد أو زندقة باستثناء تهمة التنبؤ وإن في شعره إثبات للركن الأول من أركان الإيمان وهو شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله.

فالشاعر كان يؤمن بالله والملائكة والشياطين والكتب السماوية والأنبياء ويؤمن بالبعث والحياة والموت.

كما أن الشاعر قد حفظ القرآن الكريم وظهر أثر ذلك في اقتباسه من القرآن الكريم، كما أن الشاعر كان علىٰ دراية في بعض الأحكام الفقهية والتصوف الإسلامية.

كما أن الشاعر كان يدعو إلىٰ توحيد صفوف المسلمين من أجل القضاء علىٰ العدو البيزنطي أولاً، وعلىٰ الأعاجم الذين تسللوا إلىٰ الحكم ثانية.

وأخيراً شاعرنا مسلم، مؤمن، عربي، صحيح النسب لم يتنبأ ولم يتقرمط وإنما دعا إلىٰ توحيد صفوف المسلمين وعمل من أجل إرجاع الحكم إلىٰ العرب وأعني بذلك إلىٰ أصحاب الحق الشرعيين وأنه كان علوياً عربياً، وأن في شعره كثيراً من الملامح الإسلامية ولو لم يكن إلاّ شعر الجهاد لكفاه ذلك.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفهارس

١ ـ فهرس المراجع والمصادر.

٤ ـ فهرس الموضوعات (محتويات البحث).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: الكتب:

١ - ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.

٢ - ابن الأثير الموصلي: ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصلي، ت ٦٣٧هـ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٣٩م.

٣ - ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن يوسف تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

٤ - ابن حجر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢هـ، لسان الميزان، مؤسسة الأعلى للمطبوعات والنشر، ط٢، ١٩٧١م.

٥ - ابن خلدون: عبد الرحمٰن بن خلدون المغربي، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨م.

٦ - ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ١٩٦٨م.

٧ - ابن رشيق: الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٤.

٨ - ابن كثير: أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٦م.
٩ - ابن ماكولا: الحافظ ابن ماكولا، ت ٤٧٥هـ الإكمال في رفع الارتياب، حيدر آباد الدكن الهند، ط٢.
١٠- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري الافريقي، ت٧١١هـ، لسان العرب، بيروت.
١١- أحمد أمين: أحمد أمين، ظهر الإسلام، ط٥، ١٩٦٩م.
١٢- أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط٤، ١٩٧٢.
١٣- أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة، ١٩٧٢م.
١٤- الأرناؤوطي: هدى الأرناؤوطي، ثقافة المتنبي وأثرها في شعره، وزارة الثقافة والفنون، العراق، ط١، ١٩٧٧م.
١٥ـ ألتونجي، محمد ألتونجي، المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس، الشركة المتحدة، بيروت، ط١، ١٩٧٥م.
١٦- الأنباري: كمال الدين عبد الرحمٰن بن محمد الأنباري، ت٥٧٧هـ، نزهة الألباء في طبقات الادباء تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار النهضة مصر.
١٧- البديعي: يوسف البديعي، الصبح المنبي عن حيثيّة المتنبي، تحقيق مصطفىٰ السقا، دار المعارف، ١٩٦٣م.
١٨- البرقوقي: عبد الرحمٰن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي ١٩٣٨م.
١٩- بروكلمان: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٦٨م.
٢٠- تاريخ الأدب العربي، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٨م.
٢١ـ البستاني: بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، ١٩٧٧م.
٢٢- البغدادي: عبد القادر بن عمر البغدادي، ت ١٠٩٣هـ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، المطبعة الأميرية، بولاق، ط١، ١٢٩٩هـ.

٢٣- البغدادي: أبو منصور عبد القاهر بن ظاهر بن محمد التميمي البغدادي، ت ٢٢٩، الملل والنحل.

٢٤- البغدادي: الملل والنحل، تحقيق البير نصري نادر، دار الشروق، بيروت، لبنان.

٢٥- بلاشير: بلاشير، أبو الطيب المتنبي: دراسة في التاريخ الأدبي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٧٥م.

٢٦- البيطار: أمينة البيطار، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين، ص١٦٧، ٢٣٤، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٠، دار دمشق.

٢٧- الثعالبي: أبو منصور الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق إيليا حاوي، ١٩٦٨م.

٢٨- الجبوري: عبد الله الجبوري، أبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٨، منشورات وزارة الثقافة والفنون، العراق، بغداد.

٢٩- الجرجاني: علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار العلم للملايين، بيروت.

٣٠- الجندي: درويش الجندي، الشعر في ظل سيف الدولة، مكتبة الإنجلو المصرية، ط١، ١٩٥٩م.

٣١- معتوق: جورج عبده معتوق، المتنبي شاعر الشخصية القومية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.

٣٢- الحاتمي: محمد بن الحسن الحاتمي، الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب وساقط شعره: تجقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، ١٩٦٥م.

٣٣- حتي: فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، تحقيق: جبرائيل جبور، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩م.

٣٤- حسن إبراهيم حسن: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٧، ١٩٦٤م.
٣٥- الحموي: ياقوت الحموي، ت ٦٢٦هـ، معجم البلدان، دار صادر، دار بيروت، ١٩٥٧م.
٣٦- الخطيب: أحمد بن علي الخطيب، ت ٤٦٣هـ، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتاب العربي، بيروت.
٣٧- الخطيب: محب الدين الخطيب، ومساعد اليافي، الغارة على العالم الإسلامي، الدار السعودية للنشر.
٣٨- خليف: يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.
٣٩- الخوانساري: ميرزا محمد باقر الموسوي الخوانساري الأصبهاني، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، تحقيق: أسد الله إسماعيليان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٩٠هـ.
٤٠- الزبيدي: محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس، دار مكتبة الحياة.
٤١- الزركلي: خير الدين الزركلي، الاعلام، ط٣، بيروت، دار العلم للملايين.
٤٢- سهيل عثمان: سهيل عثمان، ومنير كنعان، المحصول الفكري عند المتنبي، دار الإرشاد، ط١، ١٩٦٩م.
٤٣- السيوطي: جلال الدين بن عبد الرحمٰن، ت ٩١١هـ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط١، ١٩٦٤م.
٤٤- شراره: محمد شرارة، المتنبي بين البطولة والاغتراب، تحقيق: حياة شرارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨١م.
٤٥- شعيب: محمد عبد الرحمٰن شعيب، المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٨م.
٤٦- شلق: علي شلق، المتنبي شاعر ألفاظه تتوهج فرساناً تأسر الزمان، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ط١، ١٩٧٧م.

٤٧- الشكعة: مصطفىٰ الشكعة، سيف الدولة الحمداني، الدار المصرية للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٧١م.
٤٨- الشكعة: مصطفى الشكعة، فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٥٨م.
٤٩- الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، ت٥٤٨هـ، الملل والنحل، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
٥٠- شوقي ضيف: شوقي ضيف، البطولة في الشعر العربي، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٧٠م.
٥١- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧٣م.
٥٢- شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده، دار المعارف بمصر، ط٢.
٥٣- شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف بمصر، ط١٠.
٥٤- الطبري: أبو جعفر بن جرير الطبري، ت ٣١٠هـ، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨م.
٥٥- طٰه حسين: طٰه حسين، مع المتنبي، دار المعارف بمصر، ط١٢.
٥٦- الطيب: عبد الله الطيب، الطبيعة عند المتنبي، وزارة الإعلام العراقية، بغداد ط١، ١٩٧٧م.
٥٧- عباس حسن: عباس حسن، المتنبي وشوقي وإمارة الشعر، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٧٣م.
٥٨- عبد الجليل حسن عبد الهادي: عبد الجليل حسن المهدي، أبو فراس الحمداني، مكتبة الأقصى، عمان، ط١، ١٩٨١.
٥٩- عبد الحميد لطفي: عبد الحميد لطفي، المتنبي فارس الفكر العربي، دار الحرية، بغداد، وزارة الاعلام، ١٩٧٧م.
٦٠- عبد الوهاب عزام: عبد الوهاب عزام، ذكرى أبي الطيب بعد الف عام، ط٣، ١٩٦٨م.

٦١- العبد الله: كامل العبد الله، شعراء من الماضي، منشورات دار مكتبة الحياة، ط١، ١٩٦٢م.
٦٢- العشماوي: محمد زكي العشماوي، موقف الشعر العربي من الفن والحياة في العصر العباسي، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨١م.
٦٣- العقاد: عباس محمود العقاد، آراء في الأدب والفنون، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.
٦٤- العقاد: ساعات بين الكتب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٦٩م.
٦٥- العقاد: مطالعات في الكتب والحياة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٦٦م.
٦٦- العكبري: عبد الله بن الحسين العكبري، ت٦١٦هـ، التبيان في شرح الديوان، تحقيق مصطفى السقا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨م.
٦٧- العياش: سامي العياش، الإسماعيليون في المرحلة القرمطية، دار ابن خلدون، بيروت.
٦٨- غربال: محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، دار الشعب، ط٢، ١٩٧٢م.
٦٩- الغريب: عبد الله محمد الغريب، وجاء دور المجوس، دار الجيل، ١٩٨١م.
٧٠- فاعور: أحمد صالح الحاج شتيوي فاعور، الدولة الحمدانية في حلب ودورها في التاريخ الإسلامي، رسالة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، قسم التاريخ، مخطوط ٤٢٣ صفحة.
٧١- الفندي: محمد ثابت الفندي، وجماعته، دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٣٣م.
٧٢- القنوجي: صديق بن حسن القنوجي، أبجد العلوم المرقوم في بيان أحوال العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.
٧٣- الكبيسي: حمدان عبد المجيد الكبيسي، عصر الخليفة المقتدر بالله، مطبعة النعمان، النجف، ط١، ١٩٧٢م.

٧٤- كوركيس عواد: كوركيس عواد، رائد الدراسة الأدبية عند المتنبي، دار الرشيد، العراق، ١٩٧٩م.
٧٥- الكيالي: سامي الكيالي، سيف الدولة وعصر الحمدانيين، دار المعارف بمصر.
٧٦- مارون عبود: مارون عبود، الرؤوس، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٦٧م.
٧٧- ماريوس كنار: ماريوس كنار، الأمير سيف الدولة الحمداني، خزانة الكتب العربية، الجزائر، ١٩٣٤م.
٧٨- المازني: إبراهيم عبد القادر المازني، حصاد الهشيم، دار الشروق، ط٣، ١٩٧٦م.
٧٩- المحاسني: زكي المحاسني، شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٧٠م.
٨٠- المتنبي: دار المعارف، ط٥.
٨١- محمد كامل حسن: محمد كامل حسن، المتنبي، تحقيق عادل نويهض، المكتب العالمي، ١٩٧٥م.
٨٢- محمود محمد شاكر: محمود محمد شاكر، المتنبي، مطبعة المدني، ط١، ١٩٧٧م.
٨٣- المسامي: محمد مصطفىٰ المسامي، شعراء مصر من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الفاطمية، الهيئة المصرية العامة للمكتبات، ١٩٨٠م.
٨٤- المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ١٩٦٦م.
٨٥- المعري: أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبد الرحمٰن (بنت الشاطىء) دار المعارف بمصر، ط٤.
٨٦- الملاح: عبد الغني الملاح، المتنبي يسترد أباه، مطبعة الناجي، بغداد، ط١، ١٩٧٤م.

٨٧- ملحس: ثريا عبد الفتاح ملحس، القيم الروحية في الشعر العربي قديمة وحديثة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
٨٨- نبيلة إبراهيم: نبيلة إبراهيم، روميات المتنبي، مخطوط جامعة القاهرة رقم ٢٧/ ٩٥٤، رسالة ماجستير.
٨٩- نصرت عبد الرحمٰن: نصرت عبد الرحمٰن، شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ في العصر العباسي، حتى نهاية القرن الرابع، مكتبة الأقصى، عمان، ط١، ١٩٧٧م.
٩٠- نوري جعفر: نوري جعفر، الأصالة في شعر أبي الطيب المتنبي، مطبعة الزهراء، بغداد، ط١، ١٩٧٦م.
٩١- هادي نهر: هادي نهر، مع المتنبي في شعره الحربي، مطبعة الجامعة، بغداد، ط١، ١٩٧٩م.
٩٢- الهنداوي: خليل الهنداوي، سيف الدولة الحمداني، دار الشروق العربي، ط١.
٩٣- وجدي: محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، بيروت.
٩٤- الولي: طٰه الولي، القرامطة أول حركة اشتراكية في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨١م.
٩٥- اليازجي: ناصيف اليازجي، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، دار العلم، بيروت، ط٢.

ثالثاً: الدوريات:

١ - الألوسي: جمال الدين الألوسي، مجلة العربي، ع٢٢٦، ١٩٧٨م.
المتنبي: شاعر كل العرب ص٣٧-٤٠.
٢ - خلوصي: صفاء خلوصي، مجلة العربي، ع١٦٣، ١٩٧٢م.
ابن جني صديق المتنبي وشارح ديوانه ص١٢٨-١٣٤.

٣ - دواره: فؤاد دواره، مجلة الكويت، ع٧، ١٩٨١م.
ثورة المتنبي ص٥١-٥٥.
٤ - السامرائي: عبد الجبار محمود السامرائي، مجلة العربي، ع١٥٦، ١٩٧١م.
شعر الملاحم في الأدب العربي ص٦٧-٧١.
٥ - العسلي: بسام العسلي، مجلة القدس، ع٢٩، ١٩٦٢م.
مجاهدون في سبيل الله، الحمدانيون وحرب الثغور.
٦ - قلعجي: قدري قلعجي، المجلة العربية، ع٧، ٨.
المتنبي فارساً.
المتنبي وسيف الدولة، السعودية.
٧ - كنون: عبد الله كنون الحسني، مجلة الرسالة، ع١٢٩، ١٣٠ سنة، ١٩٣٥م.
السنة الثالثة.
المتنبي في ديوانه بمناسبة ذكراه الألفية.
٨ - الهاشمي: عادل الهاشمي، مجلة الأديب، جـ١١، السنة الثامنة عشرة المجلد ٣٦، بيروت، ١٩٥٩م.
المتنبي، بطولة متفجرة في إهاب شاعر.
٩ - مجلد المورد، المجلد السادس، ع٣، ١٩٧٧م.
عدد خاص عن أبي الطيب المتنبي.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس محتويات البحث

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
شكر وتقدير	٧
المقدمة	٩

الفصل الأول

تمهيد ـ دراسة تاريخية للصراع	٢٧
أ ـ الصراع العسكري بين المسلمين والروم في القرن الرابع الهجري	٣٣
ب ـ دور الدولة الحمدانية في الصراع مع الروم	٤١
جـ ـ سيف الدولة الحمداني	٤٩

الفصل الثاني

أ ـ ثقافة المتنبي العربية الإسلامية	٨١
١ ـ نشأة المتنبي العلمية	٨١
٢ ـ شيوخ المتنبي	٨٢
٣ ـ البيئات التي عاش فيها الشاعر	٨٣
٤ ـ ثقافة المتنبي	٨٨
٥ ـ ثقافة المتنبي اللغوية	٩١
٦ ـ ثقافة المتنبي الأدبية	٩٤
٧ ـ القرآن الكريم	٩٦
٨ ـ التصوف	٩٧
٩ ـ الفقه	٩٨
١٠ـ ثقافة المتنبي الفلسفية	٩٩

الموضوع	الصفحة

ب ـ تنبؤ المتنبي ١٠٣
١ ـ تنبؤ المتنبي ١٠٣
٢ ـ هل تنبأ أبو الطيب أم لم يفعلها؟ ١٠٦
٣ ـ لماذا سمي بالمتنبي إن كان لم يتنبأ؟ ١١٨
جـ ـ القرامطة ١٢٤
د ـ هل كان أبو الطيب المتنبي قرمطياً؟ ١٢٨
هـ ـ اتصال المتنبي ببلاط سيف الدولة ١٤٢

الفصل الثالث

أ ـ عقيدة المتنبي ١٥١
١ ـ الإيمان بالله الخالق ١٥٢
٢ ـ الإيمان بالملائكة والشياطين ١٥٦
٣ ـ الإيمان بالأنبياء والكتب السماوية ١٥٩
٤ ـ الإيمان باليوم الآخر ١٦١
ب ـ الرابطة الدينية ١٦٤
جـ ـ اقتباس المتنبي من القرآن الكريم وتأثره به ١٧٢
د ـ الفقه عند المتنبي ١٨٣
هـ ـ التصوف الإسلامي ١٨٩
و ـ شعر الجهاد ١٩٣
١ ـ شعر الجهاد ١٩٣
٢ ـ معركة عام ٣٣٦هـ ٢٠٥
٣ ـ معارك ٣٣٩هـ ٢٠٧
٤ ـ معارك عام ٣٤٠هـ ٢١٥
٥ ـ معارك ٣٤١هـ ٢٢٠

الموضوع	الصفحة

٦ ـ معارك الثغور ٣٤٢هـ ٢٢٦
٧ ـ معركة عام ٣٤٢هـ ٢٣٢
٨ ـ معركة الحدث ٣٤٣هـ ٢٣٤
٩ ـ حوادث سنة ٣٤٣هـ ٢٤٠
١٠ـ أحداث سنة ٣٤٤هـ ٢٤٥
١١ـ حوادث عام ٣٤٥هـ ٢٤٨
ز ـ هل كانت الحروب الحمدانية البيزنطية حروباً صليبية؟ ٢٥٩
الخاتمة ٢٦٥
ثبت المراجع والمصادر ٢٧١
فهرس محتويات البحث ٢٨٠

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المؤلف في مبطور:

الاسم:

فتحي أسعد إسماعيل نعجة من مواليد قرية «الكفرين» حيفا/ فلسطين عام ١٩٣٩م. انهى دراسته الثانوية في مدرسة جنين الثانوية.

المؤهلات:

* شهادة الدراسة الثانوية «المترك» عام ٥٨ / ١٩٥٩م.
* شهادة التوجيهي المصري عام ٦٠ / ١٩٦١م.
* شهادة مركز تدريب المعلمين برام الله عام ٦٢ / ١٩٦٣م.
* درجة الليسانس في اللغة العربية من جامعة بيروت العربية عام ١٩٧٢م.
* دبلوم الدراسات الإسلامية من معهد الدراسات العالية بالقاهرة عام ١٩٨٠م.
* درجة الماجستير في الأداب العربي – معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة ١٩٨٥م.
* درجة الدكتوراة (اختصاص) في اللغة العربية وآدابها من جامعة القديس يوسف ١٩٩٤م.

العمل:

يعمل مدرساً في مدارس وكالة الغوث الدولية بمنطقة الزرقاء.

صدر له كتاب «شخصيات إسلامية علماء وقادة» دار البيارق، عمان، ١٩٩١م.

تطلب جميع منشوراتنا من
الشركة المتحدة للتوزيع
بيروت - وطى المصيطبة - شارع حبيب ابي شهلا - مبنى السكن
تلفاكس ٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٢٩ - ٦٠٢٢٤٢ ص.ب ١١٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران